الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
جامعة منتوري – قسنطينة

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية
رقم التسجيل: ....
رقم التسلسل: ....

الشعر في ظل الدولة الحفصيـــة

دراسة تاريخية فنية

بـــحث مقدم لنيل شهادة الـــماجيستير في الأدب العربـــي القديـــم

إعداد الطالب: السعيد بحري

تحت إشراف: أ.د. الربعي بن سلامة

لـــجنة المناقشة

أ.د حسن كاتب - جامعة منتوري. قسنطينة	رئيسا
أ.د الربعـــي بن سلامـــة. أستاذ التعليم العالي	مشرفا ومقررا
د.عمـــار ويـــس- جامعة منتوري. قسنطينة	عضوا مناقشا
د.العلمـــي لـــراوي- المركزالجامعي.أم البواقي	عضوا مناقشا

السنـــة الجـــامعيـــة

1427هـــ-1428هـــ / 2006 - 2007

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه أستعين وبعد؛

إن صلتي بهذا الموضوع قديمة إذ تعود إلى سنة إلتحاقي بالجامعة، حيث كلفت بتدريس الأدب المغربي وشرعت في التردد على مصادره ومراجعه لتحضير دروسي.

وحينما انتهينا من دروس السنة النظرية وجدت نفسي أكثر قربا لمقياس الأدب المغربي بحكم اطلاعي على العديد من مصادره، ولذلك سألت نفسي لم لا أجعل موضوع بحثي للماجستير في الأدب المغربي؟

وبعد أن استعرضت أهم العناوين التي اطلعت عليها بدا لي أن مرحلة الحفصيين لم تحظ بدراسة مستقلة ولم يتناولها الدارسون كما تناولوا مرحلة بني حماد وبني زيان.

وحينما اختمرت الفكرة في رأسي عرضتها على أستاذي الدكتور جودت الركابي رحمه الله فرحب بها، وبعد مناقشات عديدة بيني وبينه قررنا أن يكون عنوان الموضوع: «الحياة الأدبية في ظل الدولة الحفصية».

وبالفعل تم تسجيل البحث بهذا العنوان ووفق خطة حاولت أن تحيط بجوانب الحياة الأدبية خلال العهد الحفصي ولكن ظروفا حالت بيني وبين إتمام البحث في الوقت المناسب، ولم يلبث أستاذي الدكتور جودت الركابي أن غادر أرض الوطن عائدا إلى سوريا بعد أن أنهى مهمته في الجزائر، وقد أدى هذا الوضع الجديد إلى صعوبة الاتصال بيني وبينه، ولذلك اقترح على أن يتولى هذا الموضوع تلميذه الدكتور الربعي بن سلامة.

وحينما اتصلت بأستاذي الدكتور الربعي بن سلامة وعرضت عرضت عليه اقتراح الدكتور جودت الركابي رحب بالفكرة ولكنه طلب مني أن نعيد النظر في الموضوع، لأنه كان -في تقديره- أكثر بكثير من أن تحتويه رسالة ماجستير، لأن الحياة الأدبية، كانت تشمل فضلا عن الشعر والنثر الحياة الفكرية، وهو أمر يصعب الإحاطة به، ولكي يكون العمل أقرب إلى الدقة العلمية وأكثر تركيزا اقترح علي أن أكتفي بدراسة الشعر في ظل الدولة الحفصية، وبعد مناقشات متعددة اتفقنا على تعديل العنوان بحيث يصبح: «الشعر في ظل الدولة الحفصية»

وكان من الطبيعي بعد أن عدل العنوان أن تعدل الخطة التي ستحتويه تبعا لتغير عناصر الإشكالية التي تقلصت وانحصرت في محاولة الإجابة عن عدد من الأسئلة يمكن إيجازها فيما يلي:

1) ماهي الظروف السياسية التي عاش في ظلها شعراء العهد الحفصي؟

2) وهل كانت الحياة الاجتماعية مشجعة على التنافس بين الشعراء والأدباء؟

3) هل كانت الحياة العلمية والفكرية قادرة على إمداد الحياة الأدبية بما يلزمها من وسائل النمو والتطور؟

4) هل استطاع شعراء الدولة الحفصية أن يستوعبوا موروثهم الثقافي؟ وإلى أي مدى استطاعوا أن يتميزوا عن أسلافهم؟

هذه الأسئلة وغيرها هي التي حاول البحث أن يجيب عنها في حدود ما توفر من معطيات، وفي حدود ما سمح به المنهج التاريخي التطوري الذي اعتمدناه، وإن كنا قد تجاوزناه أو طعمناه ببعض معطيات المنهج الفني حينما تعلق الأمر بالخصائص والمميزات الفنية.

وإذا كانت الإشكالية قد تغيرت فإن الخطة أيضا قد تغيرت لتناسب عناصر الموضوع وأصبحت على النحو التالي:

المدخل، وقد تناولت فيه عنصرين اعتبرتهما تمهيدا للحياة الأدبية وإطارا لحياة الشعر والشعراء في ظل الحفصيين وهما:

1) الحياة السياسية التي كان لها تأثيرها على حياة الشعر والشعراء، كما تأثرت هي أيضا بالنشاط الشعري.

2) الحياة الاجتماعية والثقافية التي شكلت الإطار العام والتربة الخصبة لحياة الشعر والشعراء في ظل الدولة الحفصية.

وبعد المدخل قسمت الموضوع إلى بابين، جعلت أولهما للشعر والشعراء، وخصصت الآخر لأهم الخصائص الفنية التي اتسم بها الشعر الحفصي.

أما الباب الأول فقد قسمته إلى فصلين تحدثت في الفصل الأول عن الشعر من حيث الموضوعات والأغراض واستعرضت من خلاله أهم الأغراض التي كانت سائدة آنذاك من مدح وغزل وحنين إلى الأوطان...

وجعلت الفصل الثاني للتعريف بعدد من أبرز شعراء العصر، وقد حاولت أن ألم بأهم شعراء الأقاليم التي كانت تحت لواء الدولة الحفصية، فتناولت بعضا من شعراء إفريقيا (تونس) وعددا من شعراء المغرب الأوسط (الجزائر) وطائفة من الشعراء الوافدين (الأندلسيين).

وأما الباب الثاني فقد قسمته أيضا إلى فصلين، حاولت من خلالهما أن ألم بأهم الخصائص والمميزات الفنية للشعر الحفصي، فجعلت الفصل الأول للحديث عن هيكل القصيدة، وحيث أنني قد تعرضت أثناء

البحث لأهم الأغراض الشعرية فإنني اكتفيت بالتوقف عند عنصرين من عناصر الهيكل وهما مطلع القصيدة ومقطعها أو خاتمتها.

أما الفصل الأخير فقد خصصته للحديث عن أهم وسائل التشكيل التي استخدمها شعراء الدولة الحفصية لإقامة هياكل قصائدهم؛ فتحدثت فيه عن اللغة والموسيقى والصورة الشعرية وقد لاحظت وأنا أتتبع هذه العناصر أن شعراء الدولة الحفصية لم يخرجوا عن خط القدماء ولم يتميزوا عنهم إلا في حالات نادرة كما نرى في القصيدة المولدية وفي شعر الحنين إلى الأوطان، حيث تدخلت بعض المعطيات الإقليمية كأسماء الأماكن وبعد الشقة بين المغاربة والأماكن المقدسة لتضفي على شعرهم نوعا من الخصوصية وتكسبه نوعا من الوهج الذي كانت تغذيها مشاعر الحنين إلى الأوطان الفقيدة، ومشاعر الحنين والشوق إلى البقاع المقدسة...

وقد أنهيت البحث بخاتمة ضمنتها أهم ما توصلت إليه من نتائج وأهم ما سجلته من ملاحظات شبيهة بالتي ذكرتها.

وإن كنت اليوم أنهيت هذه المرحلة من البحث -وأقول المرحلة لأن البحث لا ينتهي- فإن الفضل في الوصول إلى هذه النقطة يرجع لله أولا وإلى كل من ساعدني في هذه المسيرة وأولهم أستاذي المرحوم جودت الركابي الذي قبل فكرة هذا البحث وتعهد بمتابعة مساره إلى أن حالت الظروف ثم الموت بينه وبين إتمام هذه المهمة النبيلة، فعلى روحه ألف رحمة.

كما لا أنسى أن أتقدم بخالص شكري لقسم اللغة العربية وآدابها الذي ما فتئ يسهل مهمة الباحثين ويساعدهم على تذليل الصعاب، وهي كثيرة ولم أذكرها لأنها -في تقديري- تعد جزء من البحث ومن متطلباته، وبدونها يفقد البحث حلاوته وربما جدواه.

أما أستاذي المشرف الدكتور الربعي بن سلامة الذي تفضل بقبول تكليف أستاذه واحتضن هذا البحث قبل أن ينطلق وتعهده بنصائحه وتوجيهاته، كما تعهدني بالتذكير والتشجيع المستمر وبالرعاية المتواصلة حتى وصل البحث إلى هذه النهاية التي كنا نحلم بها معا.فإليه أقدم أخلص وأصدق مشاعر التقدير والعرفان.

وبالله التوفيق

المدخل

1- الحياة السياسية

2- الحياة الاجتماعية والأدبية

الحياة السياسية والاجتماعية والأدبية:

إن هذه الحيوات في رأيي مهاد ضروري لمعرفة جوانب غامضة من شعر الشعراء وخلفياتهم الاجتماعية والأدبية التي نعتقد أنها ستمدنا بروافد مهمة في إلقاء الضوء على النصوص الشعرية في مختلف الأزمان، وعلى مر العصور الطويلة لحياة الدولة الحفصية.

لنرى فيما بعد إذا ما كان لهذه الحيوات صدى في شعر الشعراء أم أن ذلك لم يواكب حركة الشعر وتطوره، وهل كان للشعر دور في هذه الحيوات يوجهها ويصورها ويقترح لها من الآراء والأفكار ما يتلاءم وآمال الشاعر وأحلام أمته وشعبه، في حالات الرضى والسخط وفي حالات الأمن والاستقرار؟!

ثم هل صور الشعر، ذلك الصراع السياسي والاجتماعي والديني والمذهبي بين فئات المجتمع. وبين العلماء والفكريين والشعراء أم أن الشعر كان ذاتيا لا يبوح إلا بالمشاعر الذاتية الخاصة؟

لقد تتبعت تلك الأحداث السياسية والاجتماعية في المصادر والمراجع التي اهتمت بهذه الفكرة. فوجدت الشعر قد واكب هذه الحياة، وعبر من خلال هذه القصائد عن الآراء التي ملأت الساحة بالصراع العلمي أحيانا وبالجدل والصراع الهامشي أحيانا أخرى. كالذي حدث بين ابن خلدون وابن عرفة أو الذي دار بين ابن أبي الحسين ومناوئيه كابن الأبار وابن عصفور، والسياني، وعنان بن جابر زعيم قبيلة مرداس الذي كان له ولقبيلته شأن في الحياة السياسية والأدبية كما سنرى.

وفي هذا الإطار، رأيت أن نقص المعلومات السياسية والاجتماعية والأدبية في ظل الدولة الحفصية يدفعني إلى الحديث عن هذه الظروف الغامضة في حياة هذه الدولة لنستكشف مكنوناتها.

ولذا فإن هذا المهاد يعتبر ضروريا لدارس الأدب المغربي القديم نتتبع من خلاله تلك الحياة المليئة بالنشاط العلمي والصراع الديني بين المذهبين المالكي والصوفي الذي بدأ انتشاره مع أواخر القرن السادس الهجري[1] كما استفدت من الدراسة الاجتماعية والاقتصادية لمدينة بجاية في العهد الحفصي، ولولا الإطالة لأشرنا إلى جميع مناحي الحياة الاجتماعية من تطور وازدهار وذبول لنخرج بصورة مقبولة عن حياة بعض المدن الجزائرية التي كان لها الفضل في بعث حركة أدبية. بلغ اشعاعها الدول الأجنبية المجاورة[2] إذ تخرج من مدارس بجاية علماء كبار من إيطاليا فكتبوا أحسن الروايات، وأرخوا لهذه المنطقة التي احتضنتهم، اجتماعيا وعلميا، فكان هذا الفيض العلمي لمدينة بجاية والمسيلة، وبسكرة وقسنطينة (وبونة)، مع المدن التونسية الأخرى لتتشكل في النهاية حلقة متكاملة لانتشار الثقافة وازدهار الحركة الأدبية والشعرية –خاصة- في ظل الدولة الحفصية.

---

[1] الجراري، عباس، الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه ، مكتبة المعارف. الرباط، ص 83.

[2] بعيزيق، صالح، بجاية في العهد الحفصي، ص 337.

1- الحياة السياسية :

لقد عرفت منطقة المغرب العربي والأندلس"الخلافة الموحدية" ، منذ ظهر المهدي بن تومرت و ذاع صيته بين الناس والقبائل في منطقة المغرب العربي كله بعد أن تهيأت له الأسباب لإعلان الخلافة الموحدية، عندما بدأ الضعف والفساد يستشري في دولة المرابطين الذين مالوا إلى الدعة و اللهو والمجون، وقد جاؤوا كمصلحين للدنيا والدين وشعارهم "الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" ذاك هو رأي المهدي بن تومرت و أتباعه في الحكام المرابطين في المغرب والأندلس.

وبعد أن تجول المهدي بن تومرت في أقطار المغرب يدعو إلى إصلاح الدين و الدولة، تمت له البيعة؟ سنة 515هـ [1] وأول من بايعه من أصحابه العشرة:

عبد المؤمن بن علي والشيخ أبوحفص عمر الهنتاني[2] الذي سيكون لأبنائه من بعده شأن كبير(بإنشائهم دولة في الجزائر ،تونس و ليبيا) وذاع صيت الخلافة الموحدية في المغرب والأندلس، للأعمال الجليلة التي أنجزت في عهدهم حتى أصبح ملكهم ممتدا من طرابلس الغرب شرقا إلى الأندلس غربا. وذلك بفضل رجال أفذاذ مثل مؤسس هذه الخلافة عبد المؤمن بن علي[3] هذا الرجل الألمعي الذي يعد بحق درة الموحدين الذي كانت رحلته في المغرب الأوسط في سنة الأخماس كما يسميها "الزركشي"[4] حيث دانت له البلاد وخضعت له القبائل العربية والبربرية واستمرت هذه الدولة في التألق والعلو في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والأدبية والسياسية والعسكرية فكانت معركة (الأرك)[5] إيذانا بظهور قوة عسكرية يحسب لها ألف حساب في الأندلس والمغرب العربي بجميع أقطاره.

غير أن هذا النصر الباهر لم يدم طويلا ولم تستثمر نتائجه. فسرعان ما انخذل "الموحدون" في معركة "العقاب"[6] التي انكسر فيها الجيش الموحدي انكسارا غير متوقع. فكانت هذه الهزيمة هي بداية النهاية لدولة كان ينتظر منها استعادة المجد الضائع للخلافة الإسلامية (كما كان الحال في بدايات الفتوحات الإسلامية).

---

[1] الزركشي، تاريخ الدولتين، مطبعةالمكتبة العتيقة. تونس.ص6/ محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني المعروف بابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، المكتبة العتيقة، تونس 1967م، ص 131.

[2] أبوحفص عمر الهنتاتي هو الذي سيكون له شأن في ظهور بني حفص في (تونس ، الجزائر و ليبيا).

[3] عبد المؤمن بن علي الكومي : خليفة المهدي ومؤسس الخلافة الموحدية(سنة 524-558هـ).

[4] الزركشي، تاريخ الدولتين. ص13 .

[5] الأرك : 591 هـ (برنشفيك. ج1. ص 45).

[6] العقاب: اسم لمكان وقوع المعركةالتي وقعت سنة 609هـ/1212م.

وبانهزام الموحدين في معركة (العقاب) وما تلاها من ضعف. يعتقد أغلب الدارسين أن أسباب ضعف الموحدين، وانهيار دولتهم تعود إلى أسباب خارجية تمثلت في شدة المد النصراني في إسبانيا واسترجاعهم الكثير من المدن والصراع مع الدول المجاورة، والسبب الداخلي يتمثل في تلك الحركات التي ظهرت في أجزاء مختلفة من أقطار الدولة المترامية الأطراف[1]. وهي التي عجلت بتقويض أركان هذه الخلافة العظيمة التي وَحَّدت المغرب والأندلس في عهدها.

وهذه لمحة عن تلك الثورات في إيجاز:

1) ثورة بني غانية:

هذه الثورة هي أعنف الثورات التي وقفت في وجه الموحدين تنافح عن مجد "الملثمين" الضائع، محاولة استرداده بقوة السلاح. فقد استأثر (علي بن اسحاق)[2] المسوفي[3]،الميورقي[4] صاحب هذه الجزر بشرق الأندلس وهي: (ميورقة، ومينورقة ،ويابسة).

وكان لهم شأن كبير في الأندلس، ثم انتقل يحيى بن غانية إلى بجاية[5] سنة 580هـ. في أسطول كبير مكون من: 32 قطعة بحرية وأربعة آلاف من الرجالة. فملكها بمساعدة القبائل المجاورة، واستولى على هذه النواحي:كالمسيلة ومنطقة الزاب، وبسكرة وقفصة والمهدية وقابس التي اتخذها مركزا لإقامته، ثم استولى على طرابلس.

ولما سمع يعقوب المنصور ما حل بإفريقية (مثل بجاية، وما جاورها) لم يمهله وخرج إليه في 583هـ[6] ولحق بابن غانية وتابعه قرقوش الأرمني الغزي، فألحق بهما الهزيمة في (الحامة)[*]، ثم وصل إلى توزر، ودخل الناس في طاعته...وهكذا تمّ للموحدين مجددا السيطرة على هذه المناطق الثائرة ليعود إلى مراكش 584هـ ثم إلى الأندلس ليخلص مدينة (شلب) من (صانشو الأول) ويستمر الصراع بعد وفاة الخليفة المنصور سنة595هـ ليتولى بعده ابنه :"محمد الناصر" الذي لم يمهل ابن غانية، وإنما حاول حسم دائه

---

[1] التجاني، الرحلة .ص.ص :(100-115).

[2] ابن أبي دينار، المؤنس:ص119 - الإحاطة : ج1 ص311 .

[3] المسوفي : نسبة إلى قبيلة مسوفة البربرية بالمغرب الأقصى.

[4] الميورقي : نسبة إلى جزيرة بشرق الأندلس التي حكمها بنو غانية إلى أن أخرجوا منها على يد الناصر سنة 599هـ. وقتل عبد الله الميورقي.

[5] ابن خلدون، العبر: ج6.ص390- ج4. ص412.

[6] الزركشي، تاريخ الدولتين، ط2. المكتبة العتية بتونس 1966م. ص 16.

[*] الحامة: بالقرب من قابس.

في مواجهات قاسية استمرت أكثر من عشر سنوات، طرد خلالها ابن غانية إلى أعماق الصحراء في سنة 602هـ في معركة **تاجرا**[1] الشهيرة.

ثم يعود الخليفة الناصر إلى مراكش دون أن يحسم داءه مع بني غانية حسما نهائيا.

أما أخوه عبد الله بن غانية فقد قتل سنة 599هـ بجزيرة ميورقة، التي استعادها الموحدون، وبذلك ينتهي أمر بني غانية في الأندلس، لكن أمرهم في الجهة الشرقية من المغرب العربي سيزداد شدة وضراوة.

2) ثورة قراقوش: [2]

لأسباب سياسية وقف الأيوبيون ضد الموحدين، وأرسلوا إلى طرابلس الغرب خادمهم "قراقوش الأرمني" الذي استباح طرابلس، والجزء الجنوبي لتونس، وأحكم السيطرة عليها. ثم تحالف مع يحيى بن غانية ضد الموحدين، فاستولى على أغلب المدن الشرقية من قفصة إلى المهدية إلى قابس إلى توزر إلى طرابلس. إلى أن يحسم هذا الداء الأمير "أبو زكرياء يحيى" بعد استبداده واستقلاله بتونس 626هـ. وعند استيلاء قراقوش على قابس بعث بهذا الإنذار إلى والي الموحين "ابن تافراجين" متوعدا أياه بقوله: (ولما عزمنا على قرع بابكم، والحلول بجنابكم، رأينا تقديم الإنذار إليكم وإيراد النصيحة عليكم، والكف عنكم ثلاثة أيام لا تمد لكم فيها يد، ولا يتقدم بالإضرار إليكم أحد، لنعلم ما عندكم ونتبين غيَّكم من رشدكم....)[3].

ويسجل هذا النصر الباهر على الموحدين شاعر الثائرين: قراقوش وابن غانية.

الشاعر ابن فرسان بقوله[4] :

أجل إنـــه النصر المهنأ والفتـــح　　طواه الدُّجى وقتا وبينه الصبح

عَصَوْا ثمّ جاؤوا طائعين إمامهم　　عماية غي كان آخرها الصبح

ويسجل الشاعر موقفه عند فتح (قابس) ونشر العدل بين الناس في قوله:

فــلا زلت فتـــاح البلاد ممهـــداً　　جوانبها ما أتاح من بارق لمحُ

ودانَ لك الداني وقصَّ من الذي　　قَص طاغيّاً ريشٌ وحم له ذبحُ

---

[1] تاجرا: هي مكان بالقرب من قابس.انتصر فيها الموحدون على يحيى بن غانية 602هـ.انظر: رحلة التجاني ص:256.

- الزركشي، تاريخ الدولتين. ص 17.

[2] هو تابع للأيوبيين في مصر، ومؤيدا للخلافة العباسية في بغداد. انظر التجاني، الرحلة، ص 80.

[3] التجاني، الرحلة، ص 107.

[4] التجاني، الرحلة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية. ص 109.

ولكن هذا المجد الذي يتغنى به الشاعر ابن فرسان الذي كان يرى في هذه الحركة أملا ومخرجا لم لم يكن إلا حلما سرعان ما تبدد، و أُخرِج "قراقوش" من قصر "العروسين" مأسورا على يد الخليفة الناصر.

3) ثورة الأشل:

ظهر هذا الثائر من منطقة الزاب، ودعا الناس إلى اتباعه في هذه النواحي من الأوراس وبسكرة والحضنة حتى قلعة بني حماد. وقد خرج إليه المنصور وقضى عليه في قلعة بني حماد، في قصة طريفة مبسوطة في كتب التاريخ[1]

4) ثورة الرجراجي: [2]

هو محمد بن عبد الكريم الرجراجي. كان مطلق اليد في فرض الضرائب والجباية، إلى أن نزع منه هذا الحق، فثار ضد الموحدين. وألّب عليهم القبائل المجاورة، بعد أن علا أمره وكثر جنده وعدده ومدده، وأصبح حاكم المهدية يتصرف كيف شاء. ولم يقنع بذلك بل دعا لنفسه وتلقب بلقب "المتوكل على الله" كان ذلك في 595هـ/1199م.

وهكذا تطاول ابن عبد الكريم الرجراجي على الوالي الموحدي في تونس، ودخل إلى حلق الوادي وقد خسر الموحدون في هذه المواجهات خسائر كبيرة يصفها التجاني بقوله:[3]

"وكان ابن عبد الكريم قد أكمن كمينا للجيش في بعض المواقع. فلما وصل عسكر تونس ووقع القتال بينه وبين ابن عبد الكريم خرج ذلك الكمين فولى العسكر منهزما ..."

ثم تراجع ابن عبد الكريم عن تونس ليواجه ابن غانية في الجنوب، وبذلك يضع نفسه في موضع الخطر وسوء تقدير وتدبير الأمور ...بفتحه لجبهتين في آن واحد.فاتجه جنوبا واستولى على "قفصة".

ولكن (يحيى بن غانية) لم يتركه يتلذذ بنصره، فخرج إليه من "قابس" مركز إقامته، وهزمه شر هزيمة في قفصة، وفر إلى المهدية، منكسرا ذليلا. وبعد معركة (قصور لالّة) التي انتصر فيها (يحيى بن غانية) يتجه نحو المهدية ليحاصرها برا وبحرا بعد أن استعان بالموحدين(وحدّ بينهما كره الرجراجي) وعندما تيقن من عدم قدرته على مجابهة القوتين المحاصرتين قرر التفاوض على التسليم، فتظاهر له ابن غانية بذلك وأعطاه الأمان وبعد أيام من دخول المهدية أسر الرجراجي وابنه عبد الله فقتل الأب وأما ابنه عبد الله فقد تظاهر بأنه سيرسله إلى جزيرة ميورقة (عند أخيه عبد الله بن غانية) ثم هيأ له سفينة لنقله إلى

---

[1] ابن عذاري المراكي البيان المغرب ج3.ص: 189/ العروسي المطوي، السلطنة الحفصية. ص43.

[2] التجاني، الرحلة، ص: 354 / العروسي المطوي، السلطنة الحفصية، ص :51.

[3] التجاني، الرحلة، ص (352).

الأندلس وعند وصول السفينة بالقرب من "مرسى القل" بالجزائر، ألقي به في البحر مقيدا.[1] وبذلك تنتهي هذه المغامرة، لتنشأ مغامرات ومؤامرات أُخر؟!

الموحدون يواجهون الانهيار

إذا كنا قد ألمعنا من قبل إلى ظهور هذه الدولة العظيمة وما كان لها من جليل الأثر في الأندلس والمغرب العربي فإن سنة الحياة أن تؤول هذه الدولة كمثيلاتها إلى الضعف والزوال. فبعد (معركة العقاب) المشؤومة كانت بداية النهاية لدولة حققت أمجادا لهذه الأمة ويكاد يجمع الدارسون لهذه الفترة التاريخية على أن سبب انهيار "دولة الموحدين" إنما يرجع في مجمله إلى أسباب داخلية عجّلت بتقويض خلافتهم، من أهمها[2] :

1)التخلي عن نهج (المهدي بن تومرت) في الحكم. أي مبدأ الشورى.

2)النظام الوراثي.

3)الابتعاد عن روح الحركة الموحدية دينيا

4)الهزيمة الكبرى في معركة (العقاب).

5)شساعة المساحة الجغرافية، وبعد العاصمة (مراكش) عن أطراف الخلافة في الشرق وفي الغرب.

6)التشتت الداخلي بين القبائل (وبين الولايات ومركز الخلافة في مراكش)وميلها للاستقلال والسيطرة على مناطق نفوذها و الاستئثار بالجباية والخراج ...

7)ثورة بني غانية :

هذه الثورة العنيفة التي كانت بمثابة الفتيل الذي أشعل نار الخلاف مع الموحدين ، وبالرغم من كل الأسباب التي ذكرها المؤرخون و أفاضوا في الحديث حولها ، فإن الدارس يبقى حائرا أمام هذا الانهيار السريع لدولة ملأت الآفاق شرقا وغربا وازدهرت فيها الثقافة والعلم...ثم تنحدر بشكل مريع في جميع مناحي الحياة قبل سقوطها الفعلي و النهائي 668هـ[3]، ولذلك فلا نستغرب ظهور تلك الدويلات على أنقاضها كما سنذكر ذلك بعد حين.

---

[1] التجاني، الرحلة .المطبعة الرسمية /تونس /ص 354.

[2] روجي لي تورنو، حركة الموحدين في القرنين : الثاني عشر والثالث عشر. ترجمة أمين الطيبي. الدار العربية للكتاب. ليبيا. تونس1982.ص:102، 115

[3] ابن خلدون، العبر. دار الكتاب اللبناني. بيروت. 1968 .ج6.ص591.

الشعر يصف الأحداث الداخلية:

هذه الثورات الداخلية التي ثارت في وجه الموحدين قد حركت في الشعراء هممهم ومشاعرهم، فوقفوا مواقف مما كان يجري على الساحة فمن مؤيد للنظام الموحدي ومنهم من ناصر حركات المنتفضين على الموحدين في شتى أرجاء الخلافة من مثل قول الشاعر الذي يصور حال الاحتقان بين الموحدين والقبائل العربية، وبعض المنتفضين ويصدق عليهم قول الشاعر:

أرى بين الرماد وميض نار ... ويوشك أن يكون لها ضرام

فإن لم تطفها عقلاء قـــــوم ... يكون وقودها جثث وهـــــام

فإن النار بالعودين تذكـــــى ... وإن الحرب أولها كـــــــلام

ومن الشعراء الذين أشادوا بانتصارات الخليفة (الناصر) ومقتل عبد الله بن غانية في الأندلس (الجزر الشرقية، ميورقة، ياسبة) وإخماد حركة بني غانية في الأندلس. قول أبي العباس الجراوي[1]

لك النصر حزب والمقادير أعــوان ... فحسب أعاديك انقيــاد وإذعــان

فبُعدا وسحقا لابن اسحاق إنّــــــه ... مطيع لأحلام الكرى وهو يقظــان

ســواء لديــه من غبــاوة طبعــه ... هــلاك ومنجــاة وربــحٌ وخسران

وهــل هــو إلاّ من أناسٍ تهــاتفوا ... فَراشًــا على أسنانكم وهي نيــران

عصوا دعوة المهدي، وهي سفينة ... فأغــرقهم طغيــانهم وهو طوفــان

لــقد ألــبس الله الخــلافة بهجــة ... بملك بــه يزهى الوجــود ويزدان

سعودك مَنْ يرتاب فيهــا وللورى ... عليهــا دليــل كــل يوم وبرهــان

ويسجل انتصار الخليفة الموحدي على (بني غانية) من موقعة "تاجرا"[2] الشاعر (حمادي المالقي) بقوله:

رأى يحيى إمام الحق يأتـــي ... فقــر مــن وافــي إليـــــه

فشبهت الشقي بيــاء يفــري[3] ... ولام الأمــر قد دخلت عليه[4]

وبعد هزيمة بني غانية، دخل الموحدون إلى المهدية وتونس، استعادوا بذلك هذه المناطق وعيّن الناصر على تونس (أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص)سنة 603 هـ ..مطلق اليد في هذه الجهة.

---

[1] العروسي المطوي. السلطنة الحفصية. ط.دار الغرب الإسلامي ،بيروت،لبنان 1986م. ص63.

[2] المصدر نفسه. ص62. تاجرا منطقة بين قابس ومدنين بالجنوب التونسي، وقد كانت الهزيمة على ابن غانية.

[3] يفري : لم يفر: لم ينجز له أمرا. ويقال في المثل: لم يفر فريه أحد: أي لم يأت بما أتى به من الأمر المعجز الخارق للعادة.(الأمر الذي لم يأت به أحد)

[4] ابن الأبار، الحلة السيراء، ت: حسين مؤنس، ص25.

وينسب بعضهم إلى يحيى بن غانية وهو يطلب ود القبائل من بني سليم ويتودد إليهم بوشيجة القرابة والدم الذي يجمعهم، ولكنه تودد سياسي فيه مراوغة ودهاء! [1]

يـــا أيهـــا الراكب الســـاري لطيته　　عـــلى عُـــذافرةٍ تشقى بهـــا الأكـــمُ
بـــلغ "سُليْما" على بعد المزار لهـــا:　　بيـــني وبينكـــم الرحمـــان والرَّحـــمُ
يا قومنا لا تشبُّوا الحرب إن خمدت　　واستمسكوا بعرى الإيمـــان واعتصموا
يقودهم أرمـــني لا خلاق لـــه　　كـــأنّـــه فيهـــم مـــن جهلهـــم علَـــمُ
الله يعـــلم أني مـــا دعـــوتكـــم　　دعـــاء ذي قـــوة يومـــا فينتـــقـــمُ
ولا لجأت لأمر يستعان به　　من الأمور وهذا الخلـــق قـــد علمـــوا
لكن لأمر رسول الله عن رحِمٍ　　يُنْمِي إلـــيه وتـــرعى تلـــكم الذممُ
فـــإن أبيـــتم فحـــبل الوِّد متصـــل　　وإن أبَيْتُـــم فـــعند السيـــف نحتكـــم

بعد البيت الثالث ورد بيتان لم يوردهما التجاني[2] وهما قوله:

كم جرَّب الحرب من قد كان قبلكم　　مـــن القرون فبادت دونها الأمم
حاشَا الأَعَارب أن تَرْضَى بمنْقَصَةَ　　يا ليتَ شِعري هل تراهُمُ علمُوا

وقد نسب عبد الله كنون هذه القصيدة «للمنصور» حفيد عبد المؤمن بن علي الكومي.
أما الشاعر الجراوي فيقول عند مقتل الثائر(الجزيري) بالمغرب الأقصى[3]:
ومشيدا بالموحدين الذين أخمدوا نار الفتنة:

قضى لك الله بالتأيد والظفر　　وبـــالسعـــادة في ورد وفي صـــدر
آثرتَ في نُصرةِ الدين المسير على　　طيب المقـــام وربعت النـــوم والسهر
حيًّا الجزيري في إتلاف مهجته　　حتى تـــورط في ورء بـــلا صـــدر
نـــار من الفتنة العميـــاء أطفأها　　سعدُ الإمامَ وحد الصـــارم الذكـــر
والوعظ في الناس مقبول ومطـــرح　　كالخط في الماء أو كالنقش في الحجر

أما في معركة الأرك الشهيرة فقد سجل أبو العباس الجراوي في هذه القصيدة مشاعر الاعتزاز بما حقق الموحدون على يد الخليفة العظيم "يعقوب المنصور" هذه الأبيات:

هو الفتح أعيا وصفه النَّظم والنثرا　　وعمت جميع المسلمين به البشرى

---

[1] يرى صاحب النبوغ المغربي أن هذه القصيدة للناصر الموحدي.النبوغ. ص714. بينما ينسبها التجاني إلى يحيى بن غانية. الرحلة . ص82.

[2] النبوغ المغربي ص 715.

[3] النبوغ المغربي ص713.

لقد أورد الإذفونس شيعته الرَّدى وساقهم جهــلا إلى البطشة الكبرى

فكيف رأى المغترُّ عقبى اغتراره وكيف رأى الغدَّار في غيِّه الغدرا

يقر الشاعر الجراوي في هذه الأبيات أن الخليفة المنصور كان يدافع عن الدين، وقد نذر نفسه لخدمة ذلك. أما المنتقضون عليه، فيصفهم بالخارجين عن الإجماع ويمدحه بإخماد نار الفتنة بين المسلمين استعماله للسيف، حين عجز الوعظ والإرشاد، عن وقف الغواية والضلال بين الناس.

فالشعر لم يتأخر عن وصف الأحداث الداخلية، فعندما حاصر الخليفة"يعقوب المنصور" مدينة (قابس) وفتحها قال الشاعر "أبو بكر مجبر":

لــقد برزت إلى هــول المنــايــا وجــوه كــان حجبَّهــا اللِّثــام

ومــا أغنت قــسي العــزِّ عنهــا ولــيست تــدفع القَــدَر السِّهــام

يقرر الشاعر أنه لا راد لقضاء الله وقدره

ومما قاله الجراوي هذه القصيدة في انهزام يحي بن اسحاق بن غانية[1]:

رأى الشقاء ابن اسحق أحق به من السعــادة والمحــدود محــدود

وكيف يحظى بدنيــا وبــآخرةٍ مخــلب عن طريق الرشد مطــرود

والسيف أبــلغ فيمن ليس يرعه عــن الــغوايــة إيعــادٌ وتــهديــد

أولى له لو تراخى ساعة لغــدٍ وريده وهــو بــالخطي مــورود

يوم جدير بتعظيم الأنــام لــه فمــا يقــاس به في حسنــه عيــد

أضحت على فضله الأيام تحسده إنّ النبيه الرفيــع القــدر محســود

إن الجراوي ليصدر في هذه الأبيات عن نفس موالية للسلطان، وقد رأى في خروج ابن غانية ضد الموحدين، خروج عن الدين، ولذلك يستحق ابن غانية هذاالمورد الذي أورده الخسران والهزيمة في الدنيا، وفي الآخرة.

فالشعر كان دائما حاضرا في قلب الأحداث مسايرا لها تارة وموجها لها تارة أخرى.

---

[1] المطوي، العروسي، السلطنة الحفصية، دار الغرب الإسلامي.بيروت. لبنان، 1986م، ص43.

نشأة الدولة الحفصية :

يقول عنهم ابن خلدون في كتاب العبر[1]:

" إنهم من إحدى القبائل البربرية العريقة من منطقة المغرب من هنتاتة ، الوجهاء في قومهم، وقد كانوا سادة و ملوكا في قومهم، وكانوا من أوائل القائمين على حركة المهدي بن تومرت داعية الموحدين.وكانت كلمة الموحدين عند ابن خلدون تطلق على سلاطين الحفصيين، ثم استبدلت هذه الكلمة للتفريق بين الدولتين[2] الموحدية والحفصية.

وقد تبع ابن خلدون في نسب الحفصيين ، ما جاء به المؤرخ الكبير محمد بن نخيل، الذي أرجع الحفصيين إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه. ويعارض هذا النسب الأستاذ روبير برينشفيك[3] في كتابه الذي خصصه للدولة الحفصية. ويرى أن هذا الانتساب أملته ظروف سياسية ودينية على الحفصيين لتستقيم أمورهم في الحكم.

وقد كان لمؤسس هذه الدولة عبد المؤمن بن علي الكومي بمساعدة (الشيخ أبي حفص عمر) سيد قبيلته، والقائم بدعوة المهدي بن تومرت الدور البارز في نشر دعوة الموحدين في المغرب والأندلس.

- وكان المهدي يلقب بالإمام وعبد المؤمن بالخليفة وعمر إنتي بالشيخ.

أما نسبه وأصله فكما نقل ابن خلدون عن المؤرخ التونسي ابن نخيل: ينتهي نسبه إلى الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وكان لهذا الشيخ الموحدي فضل على الموحدين في كل حركاتهم وحروبهم مع خصومهم في المغرب وفي الأندلس. إلى أن كان من حركة الناصر إلى إفريقية (تونس) 601هـ. لمواجهة ابن غانية. وما أثاره من فتنة وفزع بين الناس باستيلائه على تونس والمهدية وقابس.

عندها خرج إليه الخليفة مع الشيخ (أبي محمد عبد الواحد ابن الشيخ أبي حفص) فأوقع بالثائر ابن غانية وأتباعه من القبائل في معركة "تاجرا"[4] بالقرب من قابس. وفي هذه المعركة قتل جبارة أخو ابن غانية. وكان لأبي محمد يد بيضاء على الناصر عندما لحق به وهو محاصر للمهدية فأفتكها من بني غانية.

---

[1] الزركشي، تاريخ الدولتين. ص 23 / ابن خلدون، العبر. ج 6. ص 577.

[2] ديسلان (deslane):هو الذي غير لفظة الموحدين حتى يزول اللبس على القارئ عند ذكر اسم الدولتين الموحدية والحفصية وهو تصحيح في محله.

[3] برينشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ج2 ص9- برينشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ج1 ص29.

[4] مكان وقعت فيه معركة بين الموحدين وبني غانية، كان النصر فيه حليفا للموحدين سنة 602هـ. انظر الزركشي، ص17.

وكان ذلك سببا في توليته على تونس، وقد أطلق يده فيها، إلى أن كان من أمر هذا الوالي وأبنائه من بعده من استئثار بالحكم في تونس وإعلان استبداده بهذه المنطقة على عهد أبي زكريا يحي 625هـ في البيعة الأولى التي حصلت له آنذاك.

ثم في البيعة الثانية 634هـ وعندها تسمَّى بالأمير وكان لهذا الأمير الدور البارز في إنشاء هذه الدولة في الجهة الشرقية من المغرب العربي حيث كانت تمتد جغرافيا "من بجاية غربا إلى طرابلس الغرب شرقا. وإن كانت هذه الخريطة متمددة ومتقلصة بحسب الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة بين دول متجاورة ومتناحرة في كثير من الأحيان. غير أن هذه الدولة لفتت الأنظار إليها بفضل الأمير أبي زكريا الذي انهالت عليه البيعات من كل مكان.[1]

- من الأندلس : من زيان بن مردنيش صاحب (شاطبة) مع رسوله ابن الأبار 635هـ

- بيعة سبتة والمرية وصلت 640هـ.

- ثم بيعة غرناطة و"اشبيلية" 643هـ.

- ثم وصلت بيعة مكة 657هـ.

وقرئت هذه البيعة على السلطان المستنصر بتونس ، في يوم مشهود ودعي من أجل هذه البيعة بأمير المؤمنين ومدحه أحد الشعراء[2]

- ثم وصلت بيعة بني مرين من المغرب الأقصى 668هـ.

- ثم وصلت بيعة الزيانيين " من تلمسان "

فازداد بذلك خطر الحفصيين وعلا شأنهم في المشرق والمغرب ودام سلطانهم أكثر من ثلاثة قرون ونصف القرن. هذا امتدادهم في الزمان. أما امتدادهم في المكان :فيمتد من غرب بجاية إلى بسكرة وما جاورها، ثم منطقة الأوراس، وقسنطينة وعنابة هذا في الجزائر الحالية.

وفي تونس بتمامها وفي منطقة طرابلس حتى برقة شرقا، كما تذكر ذلك كتب التاريخ.[3]

---

[1] ابن خلدون، العبر.ج6. ص،ص(607، 611).

[2] هذه الأبيات هي التي مُدح بها أمير المؤمنين

اهنأ أمير المـــؤمنين ببيعته	جاءت بالإقبال والإسعاد
فقد حباك بملك رب الورى	فأتى يبشر بافتتاح بـــلاد
وإذا أتتك أم القرى منقادة	فمن المبرة طاعة الأولاد

[3] المصدر نفسه ج6.ص577./ ابن القنفذ القسنطيني، الفارسية، تحقيق عبد المجيد الزكي ومحمد الشاذلي النيفر، في آخر الكتاب خريطة انتشار الدولة الحفصية./ أحمد بن عامر، الدولة الحفصية صفحات خالدة من تاريخنا المجيد، دار الكتب الشرقية، تونس، ص 44.

أما نفوذها المعنوي فيبلغ مداه في عهد الخليفة أبي فارس عبد العزيز(796 – 837هـ) ولكنه نفوذ معنوي لا قيمة له في واقع الحال. فالمبايعة بين هذه الدول الشقيقة المتجاورة لا تعني شيئا؟، إذ الحروب بينهم لم تتوقف وكل يتربص بصاحبه الفرصة لينال منه ويتوسع على حسابه وقد اشرنا إلى تلك الصراعات في إيجاز.

وقراءتنا لهذه البيعات : أنها كانت تحمل دفعا معنويا لدولة كان يرى فيها الطرف الآخر أملا قد يتحقق على أيديهم في تخليص المسلمين من عدوهم المتربص بهم وخاصة في الأندلس.

وتبتدئ الدولة (الحفصية) منذ تعيين أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص واليا على تونس سنة 603هـ وتنتهي نهائيا سنة981هـ، بعد دخول الأتراك وإخراج الإسبان من تونس، والمدن الساحلية الأخرى التي استولت عليها وبذلك ينتهي عهد ملئ بالأحداث الكبرى في السياسة والأدب بين ازدهار وذبول وقوة وضعف، وبين انتشار وانحسار. وسنعرض لتلك الأحداث الهامة، وسير الحضارة والأدب خاصة في هذه الفترة من عمر الدولة الحفصية.

حكام الدولة الحفصية من أمراء وسلاطين:[1]

يختلف المؤرخون في ابتداء الدولة الحفصية، هل تبدأ فعليا منذ تولي أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص واليا على تونس سنة 603هـ، أم يبدأ التاريخ الحقيقي بعد البيعة الثانية لأبي زكريا الحفصي سنة 634هـ. وهو الاستبداد الفعلي بهذه المنطقة وإعلان الاستقلال عن الموحدين في مراكش.

يرى بعض المؤرخين أن بداية الدولة الحفصية تبدأ فعليا من سنة 634 بعد إعلانه "أميرا" مستقلا عن الدولة الموحدية و مبايعته للمرة الثانية.

ومنهم من يرى أن بداية ظهور خطر الحفصيين وبداية استبدادهم بالحكم منذ تعين (أبي محمد عبد الواحد) واليا مطلق اليد على تونس سنة 603هـ.

وإذا كان الأمر كذلك فإنني سأذكر أسماءهم وأهم الأحداث التي عرفت في عهدهم، مع الإلماع لسلاطينهم، ولدورهم الإيجابي في تاريخ المنطقة عسكريا و ثقافيا، وحضاريا.

أمراء وسلاطين بني حفص*

1) (أبو محمد عبد الواحد: 603-618هـ).
2) أبو زكرياء يحيى 625-647هـ (1237-1249)
3) محمد المستنصر بالله 647-675هـ (1249-1277م).
4) أبو زكرياء يحيى الواثق: 675- 678 هـ (1277-1279 م).
5) أبو إسحاق ابراهيم الأول: 678-683هـ (1279-1284م).
6) أبو حفص عمر الأول المستنصر: 683-694هـ (1284-1295م).
7) أبو عبد الله محمد أبو عصيدة: 694-709هـ.
8) أبو بكر بن يحيى(الشهيد - دام حكمه 17 يوما) 709-709هـ (1309-1309م).
9) أبو البقاء خالد الأول (709-711هـ) 1309-1311م.

---

[1] ابن خلدون،عبد الرحمان.كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر.دار الكتاب اللبناني بيروت. لبنان.ج6،ص591.

* ملاحظة: لمعرفة هؤلاء الأمراء والسلاطين. انظر هذه المصادر والمراجع: الفارسية: لابن القنفذ القسنطيني، رحلة التجاني، العبر لابن خلدون، تاريخ الدولتين للزركشي، الأدلة البينة النورانية للشماع، المؤنس لابن أبي دينار، رحلة القلصادي، عنوان الدراية للغبريني، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي لبرنشفيك، السلطنة الحفصية للعروسي المطوي، نفح الطيب للمقري، أزهار الرياض للمقري- تاريخ الجزائر العام للجلالي، تاريخ الجزائر لمبارك الميلي،تاريخ ابن أبي الضياف .

10) المولى أبو يحيى زكرياء ابن اللحياني (711-717هـ).

11) محمد أبو ضربة: (717-718هـ) 1317-1318م (مات في مصر عند قلاوون).

12) ابو يحيى أبو بكر الثاني (717-747هـ)-1318-1346م[1]

13) أبو حفص عمر (الثاني) 747هـ-1346م

فراغ .... الاستلاء المريني (747-749هـ).......

14) أبو العباس أحمد (الأول) : 749هـ/1348م.

15) أبو زيد عبد الرحمن-بقسنطينة- 749هـ/1448م.

16) أبو عبد الله محمد المنصور ببجاية-749هـ/1348م.

17) أبو العباس أحمد (الفضل)- المتوكل (747-750هـ/1349م).

18) أبو إسحاق ابراهيم الثاني المستنصر 751-770هـ/1350-1369م.

19) أبو البقاء خالد الثاني 770-772هـ/1369-1370م.

20) أبو العباس أحمد الأول 772-796هـ (1370-1394م).

21) أبو فارس عبد العزيز (ابن السلطان أحمد الأول) (796-837هـ).

ولد بقسنطينة 763-837هـ و هو من أعظم سلاطين تونس، وأحد أعمدتها التي أمدت هذه الدولة بدفع معنوي في العالم الإسلامي.

22) محمد المنتصر (837-839هـ) وهو حفيد أبي فارس عزوز وهو ابن أبي عبد الله محمد المنصور. ابن السلطان أبي فارس ، بويع بالمحلة و جددت له البيعة بتونس سنة 838هـ. ثم مرض فجأة فبعث لأخيه الأمير أبي عمرو عثمان في قسنطينة، فعهد إليه بالسلطنة. توفي سنة 839 هـ، وآل الأمر إلى أحد عظماء هذه الأمة من الجد، إلى الأب إلى الحفيد، فهؤلاء السلاطين من نسل واحد ولدوا بقسنطينة، و كانت لهم أيادي بيضاء على هذه الامة وعلى سلطنة الحفصيين خاصة.

23) أبو عمرو عثمان 839-893هـ (1435-1488م).

24) إبو يحيى زكرياء الثاني 893-899هـ(1488-1493م).

---

[1] ولد بقسنطينة، و منها تحرك إلى تونس.

25) أبو عبد الله محمد "الرابع" 899-932هـ (1493-1526م).

26) الحسن بن محمد 932-950هـ (1526-1543م).

27) أبو العباس أحمد "الثالث" 950-977هـ (1543-1569م).

28) محمد بن الحسن 977-981هـ (1569-1573م).

و هو آخر ملوك وسلاطين بني حفص[1]. وذلك بعد إستلاء الأتراك على جميع أنحاء السلطنة الحفصية في طرابلس وتونس والجزائر. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

إن هذه القائمة بأسماء أمراء وسلاطين الدولة (الحفصية) تعطينا صورة عن سير هذه السلطنة في مسيرتها السياسية والاجتماعية والحضارية. وتبين لنا من خلال تتبع حركة الازدهار والذبول، ومن فتن ومطاحنات في الداخل وفي الخارج، وتبين لنا هذه القائمة و نحن نمعن النظر في أسماء الحكام و هم يتداولون على كرسي الحكم في تونس، وفي قسنطينة وفي بجاية.

نستنتج بعض الملاحظات الجديرة بالاهتمام، بالرغم من أننا سنركز على الجانب الأدبي والثقافي لهذه الدولة التي عمَّرت طويلا في الزمان وانتشرت في مكان واسع من شرق المغرب العربي إلى وسطه (من بجاية إلى طرابلس).

فمن الملاحظات الكبرى على قائمة سلاطين الدولة الحفصية :

الاستقرار السياسي : لم تدم هذه الفترة إلا مدة خمس وخمسين سنة، ثم تعصف بالدولة فتنة بعد مجيء أبي إسحاق إبراهيم سنة 677هـ ووقوع مأساة في العائلة الحفصية كما ستظهر في سنة 681هـ مشكلة أخرى كان بطلها الدعي ابن أبي عمارة المسيلي.

تم الاستيلاء المريني على مركز الدولة و جميع ولاياته سنة 747هـ وللمرة الثانية 759هـ، ومحاولة ثالثة 810هـ بمساعدة أولاد حكيم... [2]

إن هذا التدخل في شؤون الحفصيين وإبعادهم لمدة معينة عن الحكم بيّن مدى الخلاف المستحكم بين حفصيين من الحكام خاصة. ويبين مدى الخلاف في قضية الحكم الذي أصبح وراثيا- ولم تتبع فيه مبادئ الموحدين في الشورى مما أدى إلى ارتكاب مجازر و فظائع بين الحفصيين أنفسهم بسبب ولاية العهد... وما يترتب على ذلك من إقصاء وتهميش لبعضهم بعضا. ولنمثل على ذلك بهذه الحوادث:

---

[1] ابن أبي دينار، أبي عبد الله، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس. العنيقة. تونس. تحقيق: محمد شمام ص ص (130، 175).

[2] م. ن .

وهي حوادث يصعب تفسيرها وتقبلها رغم وقوعها وقبل أن أعرض لتلك الأحداث والخلافات الأسرية، أذكر بما قاله بن خلدون في كتابه[1] أثناء حديثه عن الملك والسلطان وركائز ذلك فيقول: " اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما: فالأول الشوكة والعصبية وهو المعبر عنه بالجند. والثاني: المال، الذي هو قوام أولئك الجند و إقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال، والخللُ إذا طَرَقَ الدولة طرقها في هذين الأساسين، والهَادِمَانِ المُفْسِدانِ للملك هما: التَّرَفُ، والقَهْرُ".

ذلك هو رأي ابن خلدون في الملك وفساده، إذا تسرب إليه الضعف في الأواصر والأمشاج، وتقطعت بين أهله عُرَى الولاء والمحبة فإن الأمر سيؤول إلى الظلم والقتل والاغتصاب وما إلى ذلك...

أما العنصر الثاني: فهو قوام الملك به تزدهر الأمم وتغلب (المال) وبه يكون (الجيش) أما إذا نقص المال وقلت الموارد ولم يعد للملك جيش يحمي الدولة فإن الخراب والزوال سيسرع إلى هذه الدولة؟.

والنتيجة الحتمية لكل نظام يصاب بالضعف والانهيار إذا استشرى فيه **الظلم** فمرتعه وخيم ولا يقوم الملك على الظلم و الجور وإن عمر قليلا فسرعان ما يأتيه الخراب والدمار.

أما **الــترف**: فهو العلة الثانية التي تطيح بالدول والممالك وإذا ما استقرأنا تاريخ الأمم رأينا أسباب انقراضها وذهابها تعود في أغلب الأحيان إلى هذين العاملين. لأن الترف يولد، الدعة والسكينة والميل إلى الراحة، والانقطاع عن العمل والإبداع بل يؤدي إلى فساد الأخلاق وضياع القيم، وهذا ما حدث في الأندلس مثلا، وتفسير ذلك يطول لو تتبعنا سقوط الدول والأمم عبر التاريخ. ولكن رأي بن خلدون ماض في الناس، ثابت في الأمم إلى أبد الآبدين.

مظالم في عهد الحفصين :

- المستنصر مع إخوته وعمه[2]

- بين أبي إسحاق إبراهيم وأبناء أخيه(الفضل والطاهر والطيب) وأبيهم، الواثق(أبو يحي زكرياء 675-678هـ) الذي تنازل لعمه عن السلطة ولكنه قتلهم في يوم واحد وقتل معهم (ابن الحببر).

- بين أبي زكرياء بن ابراهيم وعمه عمر الحفصي(حكم لمدة عشرة أشهر) لقد خرج أبو زكرياء بن ابراهيم من تلمسان: نحو القبائل المجاورة كقبائل بني هلال، و زغبة، والدواودة. وكان لأبي زكرياء أخوان اللحياني وأبو إبراهيم قتلهم جميعا المستنصر[3] .

---

[1] ابن خلدون، العبر ج1. ص521.

[2] ابن خلدون، عبد الرحمان، العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط.3. 1967م. ج6، ص627. ج7، ص701.

[3] المصدر نفسه :ج6، ص 628.

وبسب مؤازرة الدول المجاورة هذه الدول للثائرين على الحفصيين من الأسرة الحفصية ومن غيرهم يتجذر ذلك الخلاف بين الحفصيين أنفسهم فيؤدي إلى **مهلكة** فيما بينهم.

(1) مقتل الأمير أبي بكر بن يحيى سنة 709هـ بعد مبايعته لمدة سبعة عشر يوما والمعروف بالشهيد[1]، وقد أمر بقتله السلطان الحفصى- أبو البقا خالد و ذلك بسبب الانفصال الذي حدث بين الجهة الشرقية والغربية ونقض العهد المبرم بينهما. و لذلك خرج أبو البقاء خالد مع القبائل العربية ودخل تونس و قتل الأمير الشهيد؟

(2) ثم يُقتَل أبو البقاء خالد الأول بعد ذلك سنة 711هـ، وهكذا تستمر هذه السلسلة من الانتقاضات بين أصحاب الحق في الأسرة الحفصية وغيرهم من المنتقضين ذلك الخلاف الذي لم ينته...

(3)ثورة ابن غانية: يختار ابن غانية الظرف المناسب للانقضاض على بجاية، بعد ضعف الموحدين في الأندلس سنة 580هـ وتستمر هذه الثورة إلى أن تنتهي بموت ابن غانية وهو بضواحي منطقة الشلف (خميس مليانة) في الجزائر سنة 631هـ.

ثورة قراقوش الأرمني أو الغزي: بعثه الأيوبيون من مصر إلى طرابلس فاستولى عليها بعد أن أنهى حكم بني خطاب. ثم وصل إلى الجنوب التونسي واستولى على أغلب مدنه، ولذلك نرى ابن غانية يعاضده مدة من الزمن ثم يخرج ضده عندما يزداد نفوذه ويرسل ابن غانية إلى القبائل العربية يدعوهم إلى عدم اتباعه فكتب إليهم هذه القصيدة يستميلهم ويستدر عواطفهم بقوله :[2]

يا أيها الراكب الساري لطيته ... على عذافرة[3] تشقى بها الأكمُ
بلّغ سليما على بعد المزار لها: ... بيني وبينكم الرحمان والرحم
يا قومنا لا تشبوا الحرب إن خمدت ... واستمسكوا بعُرَى الإيمان واعتصموا
يقودهم أرمني لا خلاق له ... كأنه بينهم من جهلهم علم
الله يعلم أني ما دعوتكم ... دعاء ذي قوة يوما فينتقم
ولا لجأت لأمر يستعان به ... من الأمور وهذا الخلق قد علموا

---

[1] الزركشي، تاريخ الدولتين، تحقيق: محمد ماضور. المطبعة العتيقة ص59.

[2] يرى صاحب النبوغ المغربي أن هذه القصيدة للمنصور الموحدي بعث بها إلى قبائل بني سليم بإفريقية

[3] عذافرة: الشديد من الإبل.

لكن لأجــزي رســول الله عن نسب   ينمي إليه وترعى تــلكــم الذمــم
فإن أتيتــم فحبــل الوصــل متصــل   وإن أبيتــم فعنــد السيــف نحتكــم

وانتهت مغامرة قراقوش بمقتله، ولكن حركات التمرد لم تنته في المغرب والأندلس، حتى نهاية السلطنة الحفصية في الجهة الشرقية لمنطقة شمال إفريقيا. بل إن شبح الانتقاض على السلطة المركزية في تونس لم يتوقف إلا ليزداد اشتعالا وتأججا، حتى بلغت هذه الدولة إلى مرحلة من الضعف الذي لا يوصف وأصبح أمراؤها تستعينون بالأجنبي كما وقع ذلك سنة 942هــ مع الحسن بن محمد و(شارلكان). الذي أمضى معه معاهدة بشروط قاسية[1].

وتلك القرصنات التي عرفتها تلك المنطقة في هذه الفترة الزمنية الطويلة من عهد الحفصيين، ازداد حجمها، حتى احتل الإسبان أغلب المدن الساحلية وتمكنوا من بسط نفوذهم العسكري على الدولة، إلى أن كانت نهاية هذا الاحتلال لهذه المدن على يد الأتراك العثمانيين سنة981هــ وينتهي أمر هذه السلطنة التي عمرت طويلا، وكان لها دور حضاري في هذه المنطقة. وفي الأدب اجتمع لها من خيرة الشعراء والأدباء ما لم يجتمع لأحد من الملوك والدول كما اجتمع لبني حفص[2].

ولو حاولنا حصر هؤلاء الأعلام ودورهم في بعث حركة أدبية وفنية في هذه الربوع لما استطعنا ذلك.

- ويكفي أن نشير إلى رأي الغبريني في كتابه عنوان الدراية الذي ترجم فيه لأكثر من سبعمائة عالم وأديب و فقيه، من أصحاب المؤلفات ومن ذوي السمعة والمكانة الرفيعة، أما الكُتَّاب والشعراء العاديون فقد صرف عنهم النظر. كان ذلك في عهد الكاتب أبي العباس الغبريني الشاعر والفقيه والقاضي الذي طبقت شهرته الآفاق.

وقد حظيت هذه الدولة بأشهر العلماء والأدباء من أمثال ابن نخيل و التجاني وابن خلدون والزركشي. وابن الشماع، وابن أبي دينار و ابن الأبار، وابن عميرة المخزومي، وحازم القرطاجني، والفقيه الذائع الصيت ابن عرفة الورغمي صاحب المختصر وصاحب الفتاوى الكبرى ومحيي مذهب الإمام مالك وابن عربية والهواري، والقلعي، والرحوي، وابن عبد السلام، وابن الخلوف القسنطيني، وابن القنفد صاحب الفارسية.

وقد سجل الشعر هذه الأحداث التاريخية ليكون شاهدا على عصره.

وفي وصول بيعة مكة يقول أحد الشعراء:

إهنــا أميــر المؤمنيــن ببيعــة   وَافَتْــكَ بالإقبــالِ و الإسعــاد

---

[1] فؤاد إفرام البستاني، دائرة المعارف.ج7،ص.423.-ابن أبي دينار، المؤنس، ص175./ العروسي المطوي، السلطنة الحفصية، ص41.

[2] ح.ح.عبد الوهاب، خلاصة تاريخ تونس. ص 123.

فلقــد حَبَــاك بملك ربُّ الوَرَى فــأتى يبشــر بافتتــاح بــلاد

وإذا أتت أُمُ القُــرَى منقـــــادة فمــن المبــرّة طاعــة الأولاد

وفي سنة 640هـــ وصلت بيعة سبتة والمرية، وفي سنة 643هـــ وصلت بيعة اشبيلية وغرناطة وقد دانت لمؤسس هذه الدولة أبي زكرياء منطقة المغرب العربي، فقد قضى على ثورة ابن غانية سنة 631هـــ، وقمع ثوار المغرب من هوارة وغيرها، واستولى على الجزائر وبايعته تلمسان، وسجلماسة، وسبتة وطنجة ومكناسة.

هذا عن الجانب السياسي أما الجانب الأدبي فقد كان الرجل محبا للعلم كاتبا شاعرا، إذ اجتمع لديه من خيرة الشعراء والأدباء ما ازدان به حكمه وتاهت بهم دولته على الدول، فذاع صيته وملأ الأفاق عدله وحبه للعلم والعلماء ثم أنشأ مكتبة عظيمة وصل عدد كتبها ومجلداتها إلى ما يزيد على ثلاثين ألف مجلد وكتاب. كان يتردد عليها الأدباء والقراء المؤرخون والمفكرون، وقد نهل منها، ابن خلدون عندما أراد أن يتوسع في كتابة تاريخه، وقد قضى في قلعة بني (سلامة) بالقرب من تلمسان زهاء أربع سنوات، تفجرت قريحته عن مقدمة كانت فتحا مبينا في علم العمران البشري، وألحق بتاريخه الكبير "العبر" ثم تاقت نفسه إلى ذخائر العلم ونفائس هذه المكتبة العظيمة فقصدها ثانية بعد رحلته إلى الأندلس والمغرب وتلمسان وبجاية وبسكرة للاستفادة منها. كما كان لهذا الأمير-أبي زكريا- رأي في النقد الأدبي وفي الشعر، إذ فاضل بين شعراء قصره الأربعة قائلا[1]:

ألا إن مضمار القريض لممتد به شعراء السبق أربعـــة لد

فأما **المجلي**[2] فهو شاعر جمّـــةَ[3] أتى أولا والناس كلهـــم بعد

وأما **المصلي**[4] فهو حبر قضاعة بآدابه تزهو الإمارة والمجـــلد

وأما **المســـلي**[5] فالمعـــاوي أمه أتى ثالثـــا لكن يلين ويشتـــد

وبعدهم الكـــومي أقبـــل **تاليـــا**[6] وكم جاء سبّاقا مسومه النهـــد

هم علماء الناس مـــا منهم غنى وهم شعراء الملك ما منهم بدّ

وقد ترك لنا وصية تستحق الدراسة والتمثل بها في كل وقت، ينهض فيه الإنسان بأمر من أمور السياسة والحياة.

---

[1] النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص65.

[2] من معاني أسماء الخيل.والمجلي: السابق.سمي بذلك لأنه يجلي عن صاحبه الهم والكرب.

[3] جمّة : مدينة بالقرب من المهدية

[4] المصلي : الذي يأتي بعد المجلي.

[5] المسلي هو الذي يأتي ثالثا في السباق لأنه يسلي عن صاحبه بعض همه.

[6] التالي: سمي بذلك لأنه تلى المسلي في السباق.

الأمراء الأدباء :

إن ظاهرة وجود أمراء، لهم موهبة الشعر وقرضه وحب الأدب وقراءته، كان عاملا من عوامل نشر الثقافة والعلم، ومكتبة أبي زكريا تشهد على التوجه العلمي النافع[1].

1) أبو زكرياء يحيى 'مؤسس الدولة) 625-647هـ.

2) أبو العباس أحمد 722-796هـ.

3) أبو فارس عبد العزيز 796-837هـ.

4) أبو عمرو عثمان 839- 893 هـ.

وقد كان لأبي زكرياء الدور البارز في جمع الأدباء والشعراء في قصره وحول دولته، ينافحون عن أفكاره ومبادئه الموحدية، ويعلون بذلك من شأن هذه الإمارة الفتية (في الجزائر وتونس وطرابلس).

فكان له هذا الدور المحمود في السياسة وفي الأدب فقد ترك لنا وصية سياسية و أدبية يجدر بنا أن نشير إلى أهم المعاني التي احتوت عليها وهي من غُرِّ الوصايا في الأدب العربي في المغرب في عصر الحفصيين يقول فيها[2] :

" اعلم، سددك الله وأرشدك ، وهداك إلى ما يرضيه وأسعدك، و جعلك محمود السيرة مأمون السريرة، أن أول ما يجب على من استدعاه الله في خلقه، وجعله مسؤولا عن رعيته، أن يقدم رضى الله تعالى في كل أمر يحاوله، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله، ويكون عمله وسعيه وذبه عن المسلمين، وحربه وجهاده للمؤمنين، بعد التوكل عليه والبراءة من الحول والقدر إليه. ومتى فاجأك أمر مقلق أو ورد عليك نبأ مرهق، فريّض لبك، وسكّن جأشك وارْعَ عواقب أمر تأتيه،وحاولْه قبل أن ترد عليه وتفشيه.

ولا تقدم إقدام الجاهل، ولا تحجم إحجام الأخرق المتكاسل، وأعلم أن الأمر إذا ضاق مجاله، وقصر عن مقاومته رجاله، فمفتاحه الصبر والحزامة والأخذ مع عقلاء الجيش ورؤسائهم، وذوي التجارب من نُبهائهم، ثم الإقدام عليه والتوكل على الله فيما لديه، والإحسان لكبير جيشك وصغيره، الكبير على قدره، والصغير على قدره. ولا تلحق الحقير بالكبير، فتجرئ الحقير على نفسك، وتغلطه في نفسه، وتفسد نية الكبير وتؤثره عليك، فيكون إحسانك له مفسدة في كلا الوجهين، ويضيع إحسانك، وتتشتت نفوس من

---

[1] بلغ عدد الكتب بهذه المكتبة ما يزيد عن ستة ثلاثين الف كتاب.، وهي أكبر مكتبة في ذاك الوقت.

[2] ابن خلدون، عبد الرحمان، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الكتاب اللبناني، بيروت،ط.3، 1967م. ج6، ص621.

معك، واتخذ كبيرهم أبا وصغيرهم ابنا، واخفض لهم جناح الذل من الرحمة، وشاورهم في الأمر، فإذا عزمت فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكلين..."[1]

وهذه بعض المعاني القيمة في "الوصية" :

1) الإخلاص في العمل (لله، وللعباد).

2) التريث والتدبر.

3) ما خاب من استشار.

4) تاج المرء تواضعه.

5) الحق يؤخذ ويعرف من الطرفين.

6) صون دماء المسلمين وحمايتها من المارقين.

7) داوِ جرحك كي لا يتسع، وكن حازما.

8) الصنائع الجليلة تخلد أصحابها.

تلك هي بعض معاني الوصية النادرة، القيمة في معناها ومبناها.

ومما قيل في هذا الأمير العادل عند وفاته بعناية قول المهدوي "أبو عمر عثمان بن عريبة":[2]

يلذ زمـان الفتى ثـم يوقعُ ويضر هـذا الدهرُ ثمَّةَ يَنـفعُ
لئن طوى بدر الإمارة مغرب فلقد جَلاَ شمس الخلافة مطلعُ
فأضاء بالمرحـوم ذلكم الثَّرى وأنـَار بالمنصور ذلك المرتَّعُ
بسطوا لسان الذِّكرِ فيمَنْ بايعوا وثَنَوْا عِنَانَ[3] الصَّبر فيمن ودعوا
ورأوا جلال محمد فتباشروا وتذكروا يحيى الرضى فتفجعوا

وقد علق بعضهم على هذه القصيدة : بأنها أجمل ما قيل في الرثاء والصبر على الأذى والتجلد أمام المحن...

---

[1] المصدر السابق، ج6، ص621،انظر الوصية كاملة هناك.

[2] ابن القنفذ، الفارسية، ص 113.

[3] العَنان بالفتح: السحاب. والعِنان بالكسر: مصدر، ج.أعِنَّةٍ. سير اللجام سمي بذلك لأنه يعترض الفم فلا يلجه. ويقال : ذل عنانه: انقاد.

إذ مُدِح ولي العهد بأحسن ما يكون المدح، وهو في موضع التحسر والأسى وإنما يعود ذلك إلى حسن تعبير الشاعر عن موقفين مختلفين وذلك من مفارقات الشعر، وحسن أداء الشعراء في الأوقات الأليمة.

وإذا كان أبو زكرياء من كبار الشخصيات التي أرست دعائم هذه الدولة . فإن الأمر بعد ولي عهده المستنصر، سيؤول إلى الاضطراب والمنافسة غير الشريفة بين ورثة الحكم بعدَه.

فبعد تولي الواثق للحكم خرج ضده عمه: أبو إسحاق إبراهيم. وشهد هذا الخلاف في البيت الحفصي، مذبحة عائلية غذتها وأملتها أوضاع استبدادية شخصية متنوعة منها:

- استبداد "ابن الحببر" بالسلطة

- سبب انتقال السلطة من المستنصر إلى ابنه الواثق بدل عمه "أبي إسحاق إبراهيم" وبعد تنحي الواثق عن الخلافة لعمه(يودع الواثق وأبناءه بسجن القصبة وهم: الفضل والطيب والطاهر.)

وقتل: (ابن الحببر)، بالطريقة والكيفية التي قتل بها ابن أبي الحسين الكاتب الشهير.وبهذه الحادثة بدأت الإضطرابات في البيت الحفصي داخليا أكثر منها خارجيا. وبدأ التفكك والتشقق الأسري يظهر للعيان فمنهم من احتمى بدول مجاورة، مثل بني زيان وبني مرين كما ذكر ذلك من قبل.[1]

- وسوف يكون لهذه الحادثة الأثر البالغ في تدهور الأوضاع الداخلية بل إن بذور الشقاق والتهافت على السلطة، الذي لا تحكمه قوانين ثابتة سيؤدي فيما بعد إلى تناحر واقتتال بين الحفصيين فيما بينهم.

- وهذا الأمر بالغ الخطر على تضعضع الدولة من الداخل وبداية مشهد سياسي آخر، من الانتقاض والانقسام.

<u>انقسام الدولة الحفصية:</u>

بعد وفاة المستنصر يبدأ عهد من الفتنة العائلية يؤدي إلى انقسام الدولة.

1) الصراع بين الجهتين الشرقية والغربية.

استقلال بجاية وقسنطينة واستبدادها بحكم الجهة الغربية.

2) وفي الجهة الشرقية: انتقضت قفصة، وقابس ،وطرابلس واستأثرت بالحكم؟

إن هذه الضربات المتتالية قد خلقت جوا متوترا من الداخل، بسبب هذا الصراع الأسري بين الحفصيين أنفسهم على السلطة.

---

[1] بن الجيلالي، عبد الرحمان، تاريخ الجزائر العام،. المطبعة العربية، الجزائر 1935م ج2، ص53. وانظر تاريخ الدولتين للزركشي ص59/ والعبر: ج6، ص393.

وبسبب هذا الصراع تولد صراع آخر مع القبائل العربية، وبخاصة في الجنوب التونسي وفي الجزائر (بجاية، بسكرة، قسنطينة)، وقد أفاض في الحديث عن هذه الانتقاضات العلامة عبد الرحمان بن خلدون في كتابه " العبر".[1]

أما في الخارج : فقد أشرنا من قبل إلى أن الدول المجاورة للدولة الحفصية كانت تُغير على المدن الساحلية وتستولي عليها، ثم تعود إلى وطنها وهكذا على مر الأزمان كانت السواحل الحفصية نهبا للإسبان، والايطاليين وغيرهم.

وبعد أن عرف الإسبان مدى هشاشة النظام الحفصي وعدم قدرته على المواجهة، بدأ احتلالهم لتونس، ثم لباقي المدن الساحلية[2]، وبعد دخول الأتراك (العثمانيين) إلى الجزائر وتونس يؤول الأمر إلى هذه الخلافة العثمانية التي بسطت نفوذها على العالم العربي كله، وإخراج الإسبان من شمال إفريقية، وانتهت بذلك خلافة عظيمة هي الخلافة الحفصية، التي شهدت أحداثا عظيمة، وكان لها دور بارز في توحيد المغرب العربي، وإعلاء شأن الإسلام والمسلمين في هذه الرقعة من الجهة الغربية للعالم الإسلامي.

وأما في الأدب وهو مجال تتبعنا لهذه الحركة خلال فترة حكم الحفصيين، فإن سوق الشعر، بخاصة قد كانت نافقة، وامتلأت الساحة بمنتوج عظيم كان صورة حقيقية لما عاشته هذه الدولة من هدوء واضطراب، ومن حروب وسلام، مع القبائل في الداخل، ومع دول المغرب المجاورة في تلمسان (ومراكش وفاس). ومع دول الشمال من حملات صليبية وغارات للقراصنة الأروبيين، على معظم السواحل الحفصية، من الجزائر إلى دلس، إلى أزفون، إلى بجاية، فجيجل، فالقل، فعنابة، بنزرت، فتونس، ثم المهدية، ثم قابس، ثم جربة، وطرابلس الغرب[3].

وكانت الحرب سجالا إلى أن أفل نجم هذه الدولة في أخريات أيامها في حدود سنة 941هـ، عندما تغلب الإسبان على تونس، مركز الخلافة،واستباحت جيوشهم عاصمة الدولة، فكانت بداية النهاية لدولة كان لها الدور البارز في الإشعاع الحضاري والثقافي لهذه المنطقة. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

[1] ابن خلدون، العبر، ج6، ص593.

برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ت.حمادي الساحلي،ج1، ص،ص(122، 146).

[2] برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ج1،ص،ص(241، 310).

[3] المصدر السابق،ج1،ص310/ الجيلالي، تاريخ الجزائر، ج2، ص7.

السلاطين الأعلام في السياسة والأدب:

أبو العباس أحمد[1] : (722-796هـ/1370-1394م): ولد بقسنطينة، وفيها تعلم على رجال الأدب والفقه، ومختلف العلوم، وتولى على قسنطينة، وفي عهده دخل (بنو مرين) إلى (تونس) وأسر أبو العباس وأرسل إلى سبتة، إلى أن توفي السلطان المريني أبو عنان الذي قتله وزيره، فيطلق صراح أبي العباس ليقصد مدينة قسنطينة، ومنها يتوجه إلى الحضرة، لينصب نفسه خليفة يوم 03 نوفمبر 1370م/772هـ، وعندما نزع من الأعراب ما بأيديهم من الاستبداد بالأمصار وجباية الأموال، انتقضوا عليه فشك في حاجبه ابن تافرجين فقبض عليه حتى مات في قسنطينة سنة 778هـ، وأنهى شغب الأعراب في جنوب تونس وقفصة، والجريد، وتوزر، وقبض على شيخ الأعرب ابن يملول، وعين على هذه المناطق ولده المنتصر.

أعماله :

- المداومة على القراءة بالمقصورة، غربي جامع الزيتونة.
- إنشاؤه للبرج الكبير.
- رفع التضييق على أهل قرطاجنة.

الأحداث السياسية في عهده:

- نزول النصارى على المهدية سنة 792هـ، فخرج إلى مواجهتهم بقيادة أخيه وابنه، أبي فارس عبد العزيز، الذي سيكون له شأن كبير في هذه الدولة[2].
- انتقاض قفصة عليه سنة 795هـ.

ومما قاله من الشعر هذه الأبيات:[3]

مواطننا في دهــرهن عجائب وأزماننـــا لــم تعــدهن الغرائب

مواطن لم تَحْكِ التواريخ مثلها ولا حدثت عنها الليالي الذواهب

ويقول من قصيدة أخرى مفاخرا بشجاعته وبأسه:

---

[1] الشماع، عمر بن أحمد، الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، دار الكتب الوطنية تونس، ص110.

وانظر: الأنصاري، أبو عبد الله محمد، فهرست الرصاع ، تحقيق وتعليق محمد العنابي.نشر الكتبة العتيقة.تونس، ص54.

[2] ابن خلدون، العبر، ج6، ص902.

[3] الأنصاري، فهرست الرصاع، ص54.

انظـــر إلينـــا تجد مـــا بنـــا دهش　　　وكيف يطرق أسد الغابة الدهش

لا تعرف الحادث المرهوب أنفسنا　　　فإننـــا بارتكاب المـــوت ننتعش

وقوله معبرا عن تحقيق أمل وانفراج كُرب:

عسى الله يـــدني للمحبين أَوْبَـــةً　　　فتُـــشفى قلوب منهم وصدورُ

وكم من قصي الدار أمسى بحزنه　　　فأعقبه عند الصبـــاح ســـرور

ويقول محقق الفهرست الأستاذ محمد العنابي معلقا على شعر أبي العباس الحفصي:

«إذا كان هذا رقة طبع السلطان، فما ظنك بغيره من العلماء والأدباء الذين رفعوا مشاعل الهداية الدينية والسمو الحضاري، وكانوا المثل الأعلى في النبوغ العلمي والأدبي...» [1]

ويستمر هذا الإشعاع الثقافي اللامع إلى ما بعد وفاة (أبي فارس عبد العزيز): غير أن البلاد أخذت في التراجع إلى الوراء، وزالت هيبتها وقوتها، وتلاشت عرى دولتها، وضاعت الآثار الأدبية مع سنابك خيل الإسبان العابثة بتاريخ أمة وبحضارتها، ثم سرقة أغلب تراثها الذي سلم من الحرق والإهمال إلى مكتبات إسبانيا، وحتى اليوم ما تزال كتبنا وما يزال تراثنا عندهم أسيرا.

إن هذه الحالة التي آلت إليها دولة بني حفص في أخريات أيامها، لتدعو إلى التأسي والحسرة على ما ضاع من أمجادنا.

في مختلف المدن التي استولت عليها يد الأجنبي، فكانت عاملا مهما في تهديم صرح الثقافة والحضارة في شمال إفريقية، وفي عهد الحفصيين خصوصا، ولذلك قيل:

الأدب يقوى بقوة الأمة ويضعف ويذبل بذبولها وإن لم يمت نهائيا، فإن تلك الانتفاضات الأدبية والشعرية خصوصا، سيبقى أثرها ضعيف على الساحة الأدبية، بسبب سيطرة الأجنبي على مقدرات الأمة، وكبت الحريات، وخنق الأصوات الوطنية، وقمعها.

فتتضاءل المعارف، وتخبو جذوة الأدب والفن، كما يشهد على ذلك عهد الإسبان في شمال إفريقية في أخريات الدولة الحفصية، ولنا في شعر تلك الفترة خير شاهد على هذا التردي والانحدار.

وقد صور تلك الفترة الشاعر الكبير: " ابن عبد السلام التونسي" نزيل دمشق سنة 951هـ قائلا[2]:

سلوا البارق النجدي عن سحب أجفاني　　　وعما بقلبي من لواعج نيران.

---

[1] الأنصاري، فهرست الرصاع، تحقيق: محمد العنابي، ص ص(54، 55).

[2] النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص 119/ المقري التلمساني، نفح الطيب، ج5، ص 29.

وكــانــت لطــلاب المعــارف قبــلة   لما في حماها من أيمة عرفان

فــاعظم بــرزء خصَّ خيــر مدينــة   وخير أناس بين عجم وعربان

ثم يقول:

فما الدهر إلا هكذا فاصْطَبِر له   رَزِيَةُ مالٍ أو تفرق خِلاّنِ

2- الحياة الاجتماعية والأدبية

الحياة الاجتماعية:

يتشكل سكان المغرب في عهد الحفصيين من عنصرين اثنين:

1- البربر

2- العرب

وقد وحد الإسلام بين العرب والبربر في القصيدة وفي اللغة وحتى في الجذور الواحدة كما يؤكد ذلك ابن خلدون وغيره.

أما سكان هذه المنطقة (من بجاية حتى طرابلس) فيسكنها العرب والبربر وأهل الذمة: من اليهود والنصارى.

اليهود وقد كانوا يدفعون الجزية منذ العصر الصنهاجي.

وكان اليهود يقيمون في أحياء تسمى (الحارة)، يتمتعون بحرية إقامة شعائرهم الدينية، في معابدهم وهياكلهم.

النصارى: وهم من الأوربيين التجار الذين أقاموا لأنفسهم فنادق ومحلات للتجارة بتونس العاصمة، كما قصدوا الدولة الحفصية للأمن والأمان الذي كانت تعيشه هذه الدولة[1]

الرقيق: تم توسع هذا المجتمع ليشهد حركة من الرقيق، التي كانت رائجة في إفريقيا وأوروبا، وكانت المبادلات بين هذه الدول وخاصة في مدينة بجاية[2] التي اتصلت بالدول الشمالية وعقدت معها المعاهدات السياسية والتجارية.

مهاجري الأندلس: بدأت هذه الرحلة بشكل ملحوظ مع بداية القرن السابع الهجري. ووفد على بجاية وغيرها من المدن الحفصية الكثير من العلماء والخاصة من أهل الأندلس في بدايات هجرتهم نحو شمال والدولة الحفصية تحديدا.

كما ازدهرت المدن التي عمروها ازدهارا ثقافيا واجتماعيا، في مختلف مظاهر الحياة بما حملوا من عادات وتقاليد حضارية جلبوها من الأندلس[3]

---

[1] أحمد بن عامر، الدولة الحفصية، ص 73.

[2] صالح بعيزيق، بجاية في العهد الحفصي ص / برينشفيك، تاريخ إفريقية ج1 ص 76 مختلف المعاهدات.

[3] الغبريني، عنوان الدراية.

لقد ظهرت هذه الحركة الصوفية بنجاح في المغرب العربي موازاة مع الحركات الموجودة، وبموازاة التعليم العام المعروف، اتخذ الصوفيون لأنفسهم طريقة لنشر تعاليمهم دون ضوضاء. حتى ذاع صيتهم وخاصة على يد الصوفي الشهير سيدي «أبي مدين شعيب».

بعد أن تعرف على أكبر علماء التصوف في المشرق مثل: الجنيد، القشيري، والإمام الغزالي، وحتى عبد القادر الجيلاني.

وبعد أن اتخذ هذا العالم الصوفي بجاية دار إقامة. ينشر منها مذهبه ويذيع تعاليمه بين طلبته والناس، إلى أن توفي في طريقه إلى مراكش، قرب تلمسان سنة 594هـ وضريحه إلى اليوم مزار للوافدين على البلدة. وهؤلاء المتصوفة كان لهم دور في الحياتين الأدبية والاجتماعية والدينية. متخذين من مجالسهم وأضرحة علمائهم نقاط تعليم وتنوير خاصة بهم.

هذا ويمكن أن نشير إلى المعاملة الحسنة لأمراء الدولة الحفصية للرعايا وسياسة الناس باللين في عموم الحال.

فمن يتتبع تطور الحياة الاجتماعية والسياسية للأمراء الحفصيين يلاحظ:

- إلغاء الضرائب على الناس في كثير من الأحيان.
- إقامة المنشآت الترفيهية، وحفر الآبار، وإجرائها على السابلة، وإنشاء القناطر، وبناء المدارس، والمساجد والزوايا.

المحاكم:

عندما كانت المحاكم مستقلة في أحكامها، فقد شهدت البلاد، نوعا من الأمن والرخاء أدى إلى نمو الحياة الأدبية والاجتماعية والاقتصادية في البلاد.

ولنا خير مثال على ذلك في عهد الأمير الثالث عشر، الذي أودع (ابنه السجن) بسبب قتله لشخص ولم ينجه ذلك من العقاب رغم تسامح أهل القتيل، إلا أن القاضي«ابن عبد الرفيع» طبق عليه أحكام المذهب المالكي[1]. وبالرغم من ذلك فقد كانت هناك تجاوزات في ميدان القضاء شهدتها الدولة الحفصية في بدايات حياتها وخاصة مع ابن الأبار، وابن العصفور، واللبياني، وغيرهم من الذين ذهبوا ضحية طيش وحمق حاكم استبدت به نشوة التفوق وروح الانتقام، بغير وجه حق وتلك نقطة سوداء في هذا النظام وهي وصمة عار عند حكام بني حفص مهما قدمت من مبررات أو مسوغات لا تجدي نفعا في تغطية هذه المظالم التي اهتزت لها مشاعر الجميع وأدانتها الأقلام النزيهة، واعتبرت ذلك انحرافا وفسادا.

- وينقل لنا الزركشي في تاريخه[2] « إن عادة الموحدين قديما بتونس أنهم لا يولون القضاء أكثر من عامين. عملا بما أوصى به عمر بن الخطاب رضي الله عنه.»

---

[1] أقام عليه الحد بالسجن ولو اعترف بالقتل لكان جزاؤه القتل.

[2] الزركشي، تاريخ الدولتين، تحقيق محمد ماضور. المكتبة العتيقة.ص 55.

المرأة في المجتمع الحفصي[1]:

لا شك أن المجتمع الحفصي كان سليلا للعادات والتقاليد فقد توارث الناس بعض القيم التي أصبحت أساسا في كل مجتمع ولكن بعض العادات التي ميزت العهد الحفصي تدعونا إلى الوقوف عندها، لأنها جديرة بالاهتمام، وتعطينا صورة عن مكانة المرأة في عهد الحفصيين وبخاصة في المدن الكبرى مثل القيروان وتونس وبجاية، وبلاد القبائل وقسنطينة وفي بسكرة وما جاورها.

- فقد كانت المرأة تتمتع ببعض الحقوق مثل عدم زواج البنت التي لم تبلغ سن الزواج، وهو عرف فقهي على غاية من الأهمية.
- وفي القيروان كانت المرأة تتمتع بنوع من عقود النكاح التي تحميها من تغيب الزوج لمدة «أربعة أشهر» إلى «ستة أشهر».

يعترف الزوج للزوجة مع عقد الزواج بحق الزوجة في تطليق نفسها إذا غاب عنها أكثر من المدة المذكورة[2].

وتذكر كتب التاريخ حادثة مع الفقيه الذائع الصيت الإمام البرزلي، الذي كان موظفا في القيروان ثم تونس العاصمة...

فقد وقف البرزلي معارضا لتلك العادات والتقاليد التي تفرض على الزوج إذا تزوج ثانية أن يكون للزوجة الأولى حق فسخ عقد الزواج بيدها ولذلك عندما أراد هو نفسه الزواج بامرأة ثانية. رفضت زوجته فاستعمل حيلة من حيل العارفين بالطرق الشرعية والفقهية. فقد أعطاها توكيلا بعدم الزواج من ثانية.

ثم أشهد شاهدين عدلين على هذه الوثيقة بنسخها.(برسم استدعاء) وعندما استظهرت بها زوجته، أصبح توكيلها ملغى لاقيمة له؟!لأنه أصبح منسوخا توكيلها[3].

وفي الأغلب الأعم، أن هذه العادات والتقاليد كانت متقاربة، خاصة في المدن الكبرى.

- ولكن في بعض المناطق في الدولة الحفصية كانت المرأة تحرم من الميراث كما هو الحال في منطقة القبائل الكبرى في الجزائر.

- وفي توقرت، يحكى أن الأب هو الذي يدفع مهرا بنته كما هو الحال في أوروبا وكما يذكر ذلك[4] ليون الإفريقي[5].

---

[1] تاريخ إفريقية في العهد الحفصي ج2. ص ص 174- 182.

شهيرات التونسيات، ح.ح.عبد الوهاب، ص 21، 105.

[2] وثائق الجامع الأعظم: 93 عدد 12 599هـــ، 1203م.

[3] البرزلي: 27/2ب. عن برينشفيكج2،ص 176.

[4] ليون الإفريقي:ج3. ص192.

[5] الرحلة 2/ 112.

- الطلاق:

تشير الدراسات التاريخية والاجتماعية في العهد الحفصي إلى أن ظاهرة الطلاق المتفشية بين بعض الجهلة بالدين قد كثرت وخاصة في الأرياف والبوادي...

لذلك سيقف ضد هذه الظاهرة أغلب علماء وفقهاء الدولة الحفصية مشددين على هذه الرخصة الشرعية. وأنها ليست لعبة في يد الجهال. وحذروا الناس من مخاطرها على الفرد والمجتمع، وعلى ضررها في الدنيا والآخرة.

مكانة المرأة علميا:

أكدت كل المصادر التي تحدثت عن الفترة الحفصية أن ظهور بعض الأديبات أو الشواعر في بداية الدولة الحفصية التي اهتمت بالتعليم ونشره كان يمكن لهذا الإشعاع العلمي أن يخلص المرأة الحفصية من براثن الجهل.

فقد كانت مدرسة ابن عرفة تقليدية متشددة مع المرأة في خروجها وارتيادها دور العلم ومجالسه، بل كان لا يسمح لها بالخروج ولو لصلاة الجماعة[1].

وما ذكر من نساء خدمن العلم كالأميرة: عطف زوج أبي زكرياء (625هـ،647هـ) التي أنشأت المدرسة التوفيقية.

الأميرة فاطمة[2]:

أخت السلطان أبي بكر بن أبي زكرياء التي أسست مدرسة "عنق الجمل" سنة 742هـ.

وقد اختارت الأستاذ محمد بن عبد السلام[3] قاضي الجماعة مدرسا ومديرا لشؤون المدرسة وقد تخرج على يده علماء أجلاء من أمثال عبد الرحمن بن خلدون ومحمد بن عرفة.

ومن شواعر الدولة الحفصية: عائشة البجائية، صارة الحلبية، زينب التجانية.

الشاعرة عائشة البجائية [4]:

هي من عائلة بجائية، عرف والدها الشعر وقرضه ومما قاله[5]:

سلام كعرف المنْدَل الرطب في الجمر	وإلا كما هب النسيم على الزهر
فلله در مقلتين بعبرة	تعبر فوق الخد عن كامن السر
بدا لي أن الليل أودى زِنَادَهُ	ولا نار إلا نور برق له يسري
ونار بأكبادي أكابد مرها	وقلبٌ سليم قلبٌ في لظى جمر

---

[1] الأبي، الإكمال: 182/2، برينشفيك، تاريخ إفريقية، ج2، ص179.

[2] تاريخ الدولتين، للزركشي ص 58.

[3] محمد بن عبد السلام من أشهر قضاة تونس توفي سنة 749هـ.

[4] ذكرها العبدري في رحلته 688/ وذكرها صاحب، عنوان الدراية، وأغلب شعرها مفقود.

[5] ح. ح. عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، ص 119.

ومـــا طـــائر فوق الغصون مســرَّح كَمَنْ بات مقصوص الجناحين في وكر
فلم أنــس توديـــع البنـــين مصفدًا وأصغرهم يجري وأدمعه تجــري

أما ابنته عائشة فقد ذكرت المصادر لها بعض أبيات من الشعر نذكر منها قولها:

أخذوا قلبي وساروا واشتياقي أودعوني
لا عدا إن لم يعودوا فاعذروني أو دعوني

وبعثت بهما إلى شاعر قسنطينة في زمانه ليعارضهما فاعتذر لها وأنهما على تلك الحالة أفضل. ومما ينسب إليها قولها:

صدَّني عن حلاوة التشييع اجتنابي مرارة التوديع

صارة الحلبية:

ومما نقله لنا الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في حديثه عن هذه الشاعرة الوافدة على الدولة الحفصية، وأميرها (المستنصر)، منشدة أياه:

الشرق يزهو بكــم والمغــرب وكذا الزمان يتيه بكم ويَطْرُبُ
والمُلْكُ والمجدُ والمفاخر والندى كل فخر على مجــدك يُنْسَبُ

ثم انتقلت إلى الأندلس ومدحت الأمير (ابن الأحمر)[1] بقولها:

سَمَا لَكَ مُلكًا لا يزول مجـــددًا وعــزًا وتأييدًا ونصرًا مُؤَبَّدَا
أرى الدهر فيما شئته لَكَ خادمًا عـــلى كل ما تختاره لك مُسْعِدَا
وقد قرن السعد الجديدُ لطـــالـــع لملك جديد في دارة السعد شيَّدَا

وعندما وصلت إلى المغرب الأقصى، مدحت الأمير يعقوب بن عبد الحق المريني في مراكش بهذه القصيدة[2]:

باليُمن والسعْد والتأييد والظفر قدمتَ يا خير الأملاك من مصر
فكنتَ كالشمس بعد الغيب مُلفَغةً أو الغنى جاء للمرء بعد الفقر
ملأتمُ الأرض من قسط ومن عدل من وقلب أعدائكم بالرعب والذُّعر
حط أرجلَه في نحو حضرتكم أضحى مدى الدهر في أمنٍ من الغير

زينب التجانية:

هي زينب بنت أبي اسحق ابراهيم التجاني[3]:

سليلة بيت للعلم والعلماء والشعر والشعراء، كما يذكر ذلك الرحالة العبدري عندما مر على مدينة تونس 688 هـ.

فمن قولها ملغزة فيمن اسمه تميم:

---

[1] هو: أبو عبد الله محمد بن محمد بن نصر من بني "الأحمر" ملوك غرناطة حكم من (671هـ - 701هـ).

[2] ح. ح. عبد الوهاب، الشهيرات التونسيات، مكتبة المنار تونس، ص: 116.

[3] ح. ح. عبد الوهاب، شهيرات التونسيات، ص: 110- 114.

يقولون لي هذا حبيبك ما اسمه فما اسطعت إفشاء وما اسطعت أكتمُ
فقلت اسمه مِيمٌ وحرفٌ مقدمٌ فهذا اسم من أهوى فديتكم افهموا

ومما نسب إليها في وصف شعر امرأة قولها:

إذا انسدلت منه عليها ذؤابة كغصـــن أراك عـــانقتـــه أراقـــم
أثيثٌ طويلٌ فهو يستر جسمَها إذا نزعـــت عنه المـــلابس أسحـــمِ
كأن الصباح ارتاع من خوف طالب بثـــأرٍ فألْـــوَى بالدُّجَـــى يتكتَّـــم

إن هذه الحركة الأدبية التي شهدتها الدولة الحفصية في بداية تأسيسها لسوء حظنا وحظ الثقافة والأدب خاصة، أنها حركة لم تستمر، والتعليم لم يشع بين الناس وبخاصة بين البنات مقارنة بالذكور. لذلك فإن ظهور أديبات أو شاعرات كان قليلا إذا ما قيس بعدد الشعراء من الرجال في المملكة الحفصية، واتصال هذه الدولة بجاراتها شرقا وغربا وبخاصة الوافدين من الأندلس، بعد سقوط بلنسية؟!

ومرد ذلك إلى انتشار الفكر المحافظ، وترك كل ما هو علمي أو عقلي وتراجع النهضة العلمية الشاملة التي عرفتها الدولة في بداياتها الأولى على عهد أبي زكرياء.

لا شك أن الحياة الأدبية كانت مسايرة للحياة الاجتماعية في مختلف مناحيها. وسنذكر هنا بعض الآثار الأدبية ككتب الرحلات والأدب واللغويات وغيرها، ومن أشهر هذه الكتب:

رحلة التجاني:

إن هذا اللون الأدبي قد حظي باهتمام الدارسين المغاربة مند القرن الثاني الميلادي ولاح في الأفق رحلة ابن جبير اللامعة الذكر، وفي هذه الأثناء كتب التجاني هذه الرحلة التي رافق فيها سلطان تونس الذي كان قد غادر الحاضرة متجها إلى البقاع المقدسة في جيش من الخدم والأقرباء والملحقين بالقصر وبفيلق من الجيش يوم 14 جمادى الأولى706هــ /1306/11/21م سالكا الطريق الساحلي باتجاه جربة.

وقد سجل لنا التجاني في هذه الرحلة ملاحظات دقيقة في الجغرافيا والتاريخ وبشيء من الإطناب في الأدب والشعر ومحاولة إظهار قدرة حفظه وحسن استشهاده للمواقف التي كانت في معرض حديثه من مختلف العصور الأدبية. وسأعود بالتفصيل إلى أهمية هده الرحلة التي كانت خير شاهد على العهد الحفصي في مختلف مناحيها و بخاصة في الجانب الأدبي الذي أمدنا فيه التجاني بخيرة الشعراء والأدباء في عصره.

وهذه الرحلة وثيقة ترفدنا بما يكفي لإعطاء صورة كافية عن البيئة الأدبية والثقافية في عهد الدولة الحفصية.

كتب النحو:

لقد كانت الدراسات النحوية منتعشة وباستمرار على مر العصور والأزمان في المشرق العربي وفي المغرب والأندلس، وربما كان للمصنفات والملخصات النحوية –خاصة- الباع الطولى عند علماء الدولة الحفصية وسنوجز الحديث عن شخصيتين طبعتا هذه الفترة بطابع مميز لما أحدثا من تآليف تضاهي ما كان في بغداد وهما:

1- أبو الحسن علي بن مؤمن الحضري المعروف بابن عصفور المولود بإشبيلية والذي توفي بتونس في عام 691 هـ وقد أنشأ في تونس مدرسة مميزة بانتماء عدد من الأدباء والعلماء إليه لما أحدثته طريقة ابن عصفور المنفردة بالدراسة التحليلية مما جعل مجموعة من الأدباء تتصدى له بالرد منهم:

ابن الصائغ وابن هشام الجزيري الذي كتب (المنهج المقرب) في الرد على المقرب وقد كان ابن عصفور يدرس كتبه التي ألفها ومنها: شرح كتاب "الجمل" للزجاجي وإيضاح الفارسي وكتاب سيبويه بطريقة مستحسنة امتدح خصائصها ابن خلدون [1]

وقد كان يدرس عند إبن عصفور الأمير أبو زكرياء الحفصي واتخذه لابنه مربيا ومعلما، غير أنه يجازى "جزاء سنمار" كما يقول المثل العربي وهذه حادثة قتله في إيجاز:

ذات يوم دخل الأستاذ الأديب إلى قصر لأبي فهر الذائع الصيت بينما كان المستنصر يتمتع فوق عرشه في خيلاء وغرور بعيد، مرددًا صدر بيت:

"لقد أصبح ملكنا الغداة عظيما"

ولما دخل عليه ابن عصفور أجابه الأمير علي البداهة قائلا ومتمثلا قول الشاعر:"لقد أصبح ملكنا الغداة عظيما" فأجابه الأستاذ بداهة: "بنا وبأمثالنا" فأسرها الملك في نفسه وحرض على إلقائه في بحيرة أبي فهر فمات جراء ذلك كما تروي لنا كتب التاريخ ولم يكن ابن عصفور هو أول من صقل سيفا ومات به... فقد سبقه كثيرون وقضية إبن الأبارغير بعيدة عن إبن عصفور؟!

وبعد أن رأينا أن النحو قد أخذ بشغاف قلوب المغاربة وحبب إليهم نظم الكثير من المصنفات النحوية مثل "آجرومية" وألفية إبن مالك وغيرها...

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص532.

كما كان لهم باع طويل في هذا المضمار كما أسلفنا لو استطاعوا الخروج عن التقاليد وتحرروا من ربقة القواعد الجامدة التي كان يطمح إلى تكسير كثير منها العلامة ابن خلدون، كما يذكر ذلك في معرض حديثه عن هذا التجديد روبار برنشفيك في كتابه[1]

«... ولا شك أنه كان يفكر في نفسه عندما لاحظ بكل أسف أن العبارات العلمية المستعملة في إفريقية لا تسمح بالتعبير عن الأفكار تعبيرا صحيحا ولكن الذي كان يحرجه أكثر هو علم النحو الذي كان يتناوله بشيء من التصرف، وكان باستطاعة ذلك الكاتب الرائد أن يجد ضالته لو اهتدى إلى استعمال اللغة العصرية التي ستُنْحت في معظمها في العصور الحديثة »

الشعر والنثر:

لن نطيل الحديث عن الشعر في معرض حديثنا عن الحياة الفكرية في هذه الفترة لأننا سنخص هذا الموضوع بشيء من التفصيل والدراسة والاستنتاج وكنا هنا سنسجل بعض مسار الشعر في العهد الحفصي وعلاقة الشعراء بما يبدعه النقاد والكتاب من إبداع فني في مجال النثر الفني الذي أراني مؤجلا الحديث عنه إلى ما بعد اكتمال دراسة شعر الشعراء.

لقد بقي الطابع العام للشعر العربي محافظا على كيانه عند شعراء الدولة الحفصية رغم الاهتمام بالشعر عبر العصور وعند مختلف الفئات فقد كان رجال الدين لا يأنفون من قرض الشعر ولكنهم يميلون إلى الشعر التعليمي أو الديني مثل : الإمام ابن عرفة والأبي و إبن خلدون والغساني ...

ومن الشعر التعليمي قول الامام إبن عرفة:

إذا لم يكن في مجلس العلم نكتـــة وتقرير إيضاح لمشكل صورة

فدع سعيه واطلب لنفسك واجتهد وإيـــاك تركا فهو أقبح خلـــة

ومن خواطره في الحياة والموت قوله:

بلغت الثمـــانين بل جزتهـــا فهان على النفس صعب الحمام

وآحاد عصري مضوا جملة وعـــادوا خيالا كطيف المنـــام

وأرجو به نيل صدر الحديث بحب اللـــقـــاء وكـــره المقـــام

وكانت حياتي بلطف جميـــل لسبق دعـــاء أبي في المـــقـــام

---

[1] برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب:حمادي الساحلي.ط.دار المغرب الإسلامي ط1. 1988م ج2

ومن اعتذاريات عبد الرحمان بن خلدون لأبي العباس أحمد الحفصي قوله[1]:

مولاي غاضت فكرتي وتبلدت   منی الطباع فكل شيء مشكــل
تسمو إلى درك الحقائق همتي   فأصـــدُّ عن إدراكهن وأُعــزل
وأجد ليلى في امتراء قريحتي   وتعــود غورًا بينما تسترســل[2]
فأبيت يعتلج الكلام بخاطري   والنظــم يشرد والقوافي تجفل
وإذا امتريت العفو منه جاهدا   عاب الجهابذ صنعه واسترذلوا

ومن القصيدة نفسها قوله: وقد أرفقها بكتابه "العبر":

وإليك من سير الزمـــان وأهلــه   عبرا يدين بفضلها من يعــدل
صحفا تترجم عن أحاديث الألـــى   غبروا فتجمل عنهم وتفصـــل
لخصت كتب الأوليـــن بجمعهـــا   وأتيت أولهـــا بما قد أعقـــلوا
وجعلته لصوان ملكـــك مفخـــرا   يبأى الندي به ويزهو المحفل[3]

هذه الإشارة تقودنا إلى أن اهتمام الناس بالشعر، لم يكن حكرا على فئة دون أخرى، فقد كان الأمراء الحفصيون أنفسهم يفرضون الشعر ويشجعون الشعراء والأدباء على حد سواء ومن وصيته إلى إبنه قوله:

« إعلم سددك الله تعالى وأرشدك، وهداك لما يرضيه وأسعدك وجعلك محمود السيرة مأمون السريرة. إن أول ما يجب على من استرعاه الله تعالى في خلقه وجعله مسئولا عن رعيته في جل أمرهم ودقه، أن يقدم رضى الله عز وجل في كل أمر يحاوله، وأن يكل أمره وحوله وقوته لله...» [4]

ومن شعره في ابنه عندما سمع بوفاته قوله:

ألاَ جـــازع يبكي لفقد حبيبـــه   فإني لعمري قد أضربي الثكل
لقد كان لي مال وأهل عدمتهم   في أنا لا مـــال لدي ولا أهل
سأبكي وأرثي حسرة لـــفراقهم   بكاء قريح لا يمل ولا يســـلو

---

[1] ابن خلدون،عبد الرحمان، الرحلة، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان، ط 2004. ص ص(190، 196)

[2] امتراء: يمتري، يستدري قريحته، يطلبها ويستدعيها.

[3] يبأى: يفخر.

[4] ابن خلدون، العبر، ج6، ص 620.

فلـــهفي ليوم فرق الدهر بيننـــا ألا فرج يرجي فينظم الشمـــل

وإني لأرضى بالقضاء وحكمه وأعلم ربي أنه حـــاكم عـــدل

ومن اهتمام رجال الدين بالشعر خاصة نذكر : لأثير الدين أبو يحي ابن حيان الأندلسي قوله[1]:

عداتي لهم فضل علي ومنـــة فلا أذهب الرحمان عني الأعاديا

هم بحثوا عن زلتى فاجتنبتها وهم نافسوني فاكتسبت المعاليـــا

ومما هو مقرر أن الحركة الشعرية راسخة القدم في إفريقية الحفصية وقبلها بقرنيين تقريبا شهدت القيروان حركة شعرية كان من روادها :ابن رشيق ،وابن شرف والحصري، الذين عاصروا الهجمة القبلية لبني هلال على القيروان والخراب الذي لحق بمدينتهم التي عادت يبابا وأثرا بعد عين.

وحسبنا في هذا المقام أن نذكِّر أن في عهد الدولة الحفصية كان المجال سانحا لظهور سوق رائجة للشعراء والأدباء في بلاد الحفصيين، وسنجد بعض الأعلام من الأندلسين قد كانوا السباقين إلى رسم هذه الصورة المتلألئة للشعر الحفصي نذكر منهم على الخصوص: ابن الأبار –ابن سعيد –حازم القرطاجني – أبو المطرف ابن عميرة المخزومي وأبو بكر بن حبيش[2]، الذين مهَّدوا لحياة أدبية زاهرة في ظل الدولة الحفصية.

الإنتاج الفكري:

لاشك أن الطابع الغالب على الثقافة في تلك الأزمنة هو الطابع الديني بصورة أشمل من غيرها فقد بلغ التأثير ذروته في الفنون، وما يتبعها من نتاج فكري تتحكم فيه بشدة الضوابط الدينية.

وأما العلوم العقلية فقد لاقت عنتا شديدا من المعارضين لها، حتى كادت لا تدرس في المدراس العربية إلا قليلا وخير ما يذكرنا بذلك الصراع الذي شنه "أبو حامد الغزالي" على الفلسفة والأثر السلبي الذي لحق بهذا العلم الذي كان دوما وراء كل تغيير في الأفكار وتنوير العقول ومحاولة فهم هذا العالم على أساس منطقي عقلي[3]...

وفي هذه البلاد من شمال إفريقية كانت مراكز للإشعاع الثقافي أهمها: القيروان وتونس وبجاية وبسكرة وقسنطينة وطرابلس بدرجات متفاوتة ومما جعل تونس تتبوأ مكانة مرموقة موقعها الجغرافي الذي جعلها

---

[1] الزركشي، تاريخ الدولتين، ص 17./ هو أثير الدين بن حيان الأندلي، المتوفى بالقاهرة سنة 745هـــ.

[2] إبراهيم بن مراد، مخترات من الشعر المغربي والأندلسي، ص101 وما بعدها.

[3] بريشفيك، كتابه تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ص 369.

موئلا لكل حاج من الأندلس والمغرب فهي معبر وموئل للإقامة خاصة بعد هجرة الأندلسيين المطرودين من مدنهم التي بدأت تسقط الواحدة تلو الأخرى وسنذكر فيما بعد رجالات الأندلس الذين شاركوا في الحياة الفكرية السياسية على أيام الدولة الحفصية. وقد أفاض الحديث حول هجرة الأندلسيين إلى الدولة الحفصية مع بداية القرن السادس والسابع الهجريين الأستاذ صالح بعيزيق في كتابه[1]

تحت عنوان:

الهجرة الأندلسية من القرن 13/7 إلى سقوط غرناطة 897/ 1492م

لقد شهدت بجاية هجرة كبيرة بعد سقوط بلنسية وغيرها... غير أن هزيمة العقاب (609هـ/ 1212م) كانت بداية رحلة ومرحلة جديدة امتدت إلى 897هـ تاريخ سقوط غرناطة.

وتوجه أهل الأندلس نحو المغرب العربي، حيث بدأ يدب في نفوسهم الفشل وعدم القدرة على مواجهة النصارى، فدعوا إلى خروج الناس من الأندلس كما يسجل ذلك ابراهيم ابن الدباغ[2] بقوله:

وقائلة أراك تطيـل فكرا   كأنك قد وقفت لدى الحساب

فقلت لها: أفكر في عقاب   غدا سببا لمعـركة العقـاب

فما في أرض أندلس مقام   وقد دخل البلاد من كل باب

وبعد هذه الحادثة الكبرى بدأ أمر المسلمين في الأندلس ينفرط كما تنفرط حبات العقد... حتى كانت النهاية المؤلمة وخروج المسلمين نهائيا من الأندلس 897هـ. وهكذا ستشهد بجاية خاصة هجرة كبرى من الأندلسيين نحو هذه المدينة المزدهرة آنذاك بظهور الحفصيين في هذه المنطقة وسيكون للأندلسيين دور بارز في الحياتين الاجتماعية والأدبية في ربوع الدولة الحفصية.

وفي هذا المنحى الأدبي والاجتماعي يقول مقدم الفارسية[3]:

إن للمدرستين الحفصيتين دور كبير وأثر بالغ في نشر الثقافة وإشعاع الحركة الأدبية والعلمية بالدولة الحفصية

والمدرستان هما:

- مدرسة المهدية
- مدرسة القيروان

---

[1] بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية، منشورات العلوم الاجتماعية والانسانية بتونس 2006م. ص369.

[2] بجاية في العهد الحفصي: صالح بعيزق ، ص 369. نفح الطيب، ج4، ص464، دار صادر

[3] ابن القنفذ، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم محمد الشاذلي النيفر /عبد المجيد التركي الدارالتونسية للنشر 1968م/ ص: 27.

هاتان المدرستان امتزجت فيهما الثقافات بالوافدين من الأندلس أو العائدين من المشرق بعد تحصيل ودراسة وطنوا الثقافة في إفريقية وقد كان الفضل في ذلك للأمير الأول : أبي زكرياء يحي 626-647هـ.

في تشجيعه للوافدين من الأندلس وإغداقه النعم عليهم وتكريمهم وتقديمهم إلى المناصب العليا في الدولة وفي الجيش وفي القضاء فكان لهذه الثلة من العلماء خطر عظيم ودور بارز في بعث حركة أدبية وفكرية لا مثيل لها.

وهذه بعض الأعلام التي وفدت على الدولة الحفصية في مختلف أرجائها كبجاية وقسنطينة وقلعة بني حماد وبسكرة والقيروان والمهدية وتونس وطرابلس كمراكز كبرى للثقافة والسياسية وللأدوار الكبرى التي لعبتها هذه المدن. بفضل حركتها الأدبية التي بعثها هؤلاء الأدباء والشعراء من أمثال ابن عميرة المخزومي- ابن الأبار، ابن سعيد صاحب المغرب في حلى المغرب- وحازم القرطاجني والغبريني – والقلعي – والتجاني- وابن عربية- وابن خلدون وابن الخلوف القسنطيني وابن القنفذ القسنطيني.

التعليم:

إنَّ أهم ما تتصف به الحياة في تلك الحقب الماضية أن التعليم لم يكن متفشيا في الناس وهذا ما تذكره لنا المصادر [1] الحديثة والقديمة ولذلك كان يلتجئ الناس في تحرير عرائضهم ورسائلهم إلى الكاتب العمومي ولكن التعليم في المساجد كان مفتوحا للجميع كما كانت مجانية التعليم عاملا ساعد على ارتقاء أبناء الطبقة السفلى وبلوغ المراكز العليا في الدولة ودواوينها .

وفي العهد الحفصي كانت توجد مكاتب في القصر السلطاني للأمراء ولأطفالهم وكان "المؤدب" يعلم الأطفال القراءة والكتابة بنفس النمط الذي عرف به التدريس على أيام "ابن سحنون"[2] وهو يذكر في كتابه:

من المسائل المتعلقة بالتربية وطرق معاملة التلاميذ وأجر المعلمين وختم القرآن جزئيا أو كليا وكانت هذه الأماكن بعيدة عن المساجد بعدما أفتى العلماء الحفصيون بمنع التعليم فيها فانصب التعليم على الزوايا والكتاتيب وبعض الأماكن الخاصة.

وإذا انتقلنا إلى العقوبات فإننا سنجد أن طابع العنف هو الذي يميز المدرسة الحفصية عن غيرها من المدراس والكتَّاب في ذلك الوقت ونسجل أن تلك العقوبات وما تتركه من آثار نفسية على الطفل قاسية في كل الأحوال ومع ذلك فقد لاحظنا من كان يمجد تلك الأيام ويحن إليها على أنها مرتع للشباب وأيام لا تنسى من حياة الفرد كما يذكر ذلك (ابن ناجي) في كتابه [معالم الإيمان].

وإذا عدنا إلى المدارس والشكل الذي كانت عليه أيام الدولة الحفصية فإننا نذكر هنا:

---

[1] روبار برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب:حمادي الساحلي.ط.دار المغرب الإسلامي ط1. 1988م ج2.ص374.

[2] ابن سحنون ، كتاب آداب المعلمين، تحقيق ح.ح.عبد الوهاب. تونس 1931م.

أ- المدرسة(المعرضية) التي أسست عام 1280م .

وقد أشار إلى الطريقة التي تتوخاها هذه المدرسة التي يقول عنها الزركشي[1] :"وزع على جميع الحاضرين قرطاسين بذهب وفضة وأجرى على المدرس رزقا كثيرا قدره عشرة دنانير في الشهر وكان يحضر مجلس الوعظ يوم الإتنين والجمعة ويطلق العنبر والعود مادام المجلس وجعل بين دار سكناه وبين المدرسة طاقة يسمع منها ما يقرأ" .

ب- المدرسة الشماعية:

كانت العطلة يومي الخميس والجمعة وأضاف الشيخ قداح يوم الإثنين إلى اليومين المذكورين وليس هناك امتحانات حقيقية ولكن يمكن لأي شيخ عالم أن يمنح تلميذه (إجازة) تسمح له بممارسة التعليم .

أما الطريقة المتبعة فكانت طريقة (النقل) العتيقة المتمثلة في النقل الشفاهي إلى أن اندمجت إفريقية من القرن العاشر في الطريقة القديمة وهي طريقة "الإلقاء".

وقد كان ابن عرفة رائدا في محاولة بعث تجديد حقيقي في طرق التدريس عند رجال التعليم كما يشير إلى ذلك برنشفيك في كتابه[2].

كما جدد العالم المغربي عبد العزيز بن موسى العبدوسي هذه الطرق بما أضفاه على التعليم من طريقة حيوية وحوار أثار إعجاب الدارسين .

فعندما يشرح "مدونة سحنون" كان يستشهد كل مرة بآراء المالكية التابعين لجميع الأقطار عصرا عصرا دون أن يغفل عن ذكر المختصين في العقود المحررة لدى العدول ولكن تلك الدروس كانت موجهة إلى عدد من المستمعين المطلعين والذين كانوا يجدون مع ذلك صعوبة لمتابعة مثل تلك العروض العلمية الرفيعة فقد كان يجلس على (كرسي) ويبدأ دروسه ببعض الأدعية المعروفة ثم يفسر ببساطة آية من الآيات القرآنية ويخلص بعد ذلك إلى الأحاديث النبوية التي يتوسع فيها.

وقد كان يظهر براعته الفائقة في هذه المادة (مشيرا) بصوت جهوري وواضح إلى جميع التواريخ التقليدية وجميع الروايات القديمة المتعلقة بالموضوع المطروق وقد كان قادرا على الاستشهاد بدون انقطاع بعدد كبير من الأحاديث النبوية يمكن أن يبلغ المائتين قبل أن يرجع إلى تفسير الآية القرآنية المعنية بالأمر.

ويبقى على هذه الحال يجدد ويبتكر في طرق تدريس مختلف المواد كالنحو وغيره إلى أن وافته المنية في عام 837هـ-1434م.

---

[1] تاريخ الدولتين للزركشي .تحقيق محمد ماضور ص:40.

[2] تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر ط:1988م. ج2 ص:379.

وتروي لنا كتب التاريخ التي اهتمت بالعهد الحفصي أن الدروس التي كانت تُعطَي في تلك الفترة يمكن ضبطها بدقة على النحو التالي: فقد كلف الشيخ (محمد الرماح) المدرس بالقيروان أحد تلامذته بإلقاء الدروس التالية على طلابة كل يوم:

في الصباح : ندرس التفسير والحديث والفروع.

وفي الظهيرة والمساء: النحو والفرائض والحساب.

فكانت تلك الدروس في مجملها ستة عشر درسا وهذه طريقة الشيخ عبد الله الشبي في التدريس والإفتاء وعند عودته من صلاة الصبح يجد في بيته عددا كبيرا من الطلبة وهم يستمعون إلى زملائهم المجتهدين يتلون آيات بينات من القرآن الكريم .

وعندها يبدأ الشيخ في تفسير بعض آي الذكر الحكيم مطنبا في الشرح والتعليق متخذا من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وسيرة الأولياء مستعينا في الاستشهاد (بكتاب صحيح مسلم).

ثم تبدأ الحصة الثانية التي تستمر إلى آذان الظهر وتخصص لتلقيه بعض المبادئ الفقهية إلى حوالي خمسة عشر طالبا من الطلاب المبتدئين.

تتلوها حصة مخصصة للطلبة الكبار الذين يبلغ عددهم نحو العشرة.

ثم يصلي الظهر في بيته قبل آذان العصر بقليل وبعد ذلك يتولى تعليم "تجويد القرآن" إلى آذان المغرب وبعدها قد يزور إحدى الزوايا ولا يعود إلى بيته إلا بعد صلاة العشاء.

وبعد فإن عدم وجود برامج مضبوطة فالتقاليد العلمية هي المسيطرة وهي التي يحتكم إليها العلماء و إن كان صلب موضوع الدراسة "هذه الموضوعات" : القرآن/ الحديث/ والفقه/والنحو .

وقد علق ابن خلدون على العملية التعليمية في إفريقية بقوله[1]:

"أما أهل إفريقية فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها إلا أن عنايتهم بالقرآن واستنظار الولدان إياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءة أكثر مما سواه... فطريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس"

كما اهتم ابن خلدون بالقراءات السبع وحفظ المؤلفات الذائعة الصيت في عهده مثل أبي عمرو الداني وابن شريخ المقري.

ومدرسة(الشاطبية) وقصيدة محمد الخراز وكتاب (الكشاف) للزمخشري .

---

[1] المقدمة :عبد الرحمان ابن خلدون .المكتبة التجارية الكبرى . مصر. ص(538-540).

- وأما الحديث فكان يدرس في خمسة دواوين معروفة :

صحيح مسلم وصحيح البخاري وموطأ الإمام مالك أقرب الكتب الفقهية لدى سكان إفريقية.

ويتابع رأيه في عملية التعليم عند أهل إفريقية بقوله :

يجاوزوا حد البلوغ إلى الشبيبة وكذا في الكبير إذا رجَّح مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم وأما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم إلاّ أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصلا في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يخلطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسُّل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد الخط والكتاب ولا تختصُّ عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة وقد شدا بعض الشيئ في العربية والشعر والبصر بهما .

وبالجملة طريقتهم في تعليم القرآن أقرب إلى طريقة أهل الأندلس .

وأما أهل المشرق فيخلطون في التعليم كذلك على ما يبلغنا ولا أدري عنايتهم منها والذي ينقل لنا أن عنايتهم بدراسة القرآن وصحف العلم وقوانينه في زمن الشبيبة ولا يخلطون بتعليم الخط بل لتعليم الخط عندهم قانون ومعلمون له على إنفراده .كما تُتَعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها في مكاتب الصبيان وبعد أن يبين ابن خلدون ميزة التعليم الأولي في المشرق والمغرب، ينتقل بنا إلى الأندلس.

ابن العربي وطريقة التعليم : يقول عنه ابن خلدون[1] .

"ولقد ذهب القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته إلى طريقة غريبة في وجه التعليم وأعاد في ذلك وأبدأ وقدّم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الأندلس " ثم يقول "ويا غفلة أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي بكتاب الله في أوامره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم ما عليه" .ثم قال : "ينظر في أصول الفقه، ثم الجدل ثم الحديث وعلومه، ونهى أن يخلط في التعليم علمان.ثم يثمن ابن خلدون هذا الرأي، ويراه حسن العوائد والفوائد على المتعلمين" .

وكذلك يجب أن يلحق بكتب الحديث (سير) ابن اسحق المتعلقة بحياة الرسول صلى الله عليه وسلم والغزوات الإسلامية. إن هذه المصادر التي ذكرت كانت لها حظوة بالغة عند الحفصيين خاصة ونحن نريد أن نستجلي أهم تلك الحقب التاريخية التي ران عليها الزمن بكلكل من النسيان وقد كان لقول مالك في هذه السيرة أثره البالغ حيث قال :"إن إبن إسحق رجل كذُوب"

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى .مصر.ص: 539.

وكان الفقه الذي يشمل أهم العبادات والشريعة الإسلامية كان يُلقَّن ذلك بفضل "رسالة" [1]ابن أبي زيد القيرواني

ثم ينتقل الطلبة في دراستهم إلى كتب منها:"التفريع" لإبن الحاجب والتلقين لعبد الوهاب (والطلبة الكبار) كانوا يدرسون (المدونة) وتشتمل هذه العلوم الدينية على نوعين أساسين من "الأصول" وهما العقيدة وقواعد الشريعة.

ودون أن نطيل فإن أهم الكتب التي كانت ذائعة الصيت غير التي ذكرنا (الإرشاد) لإمام الحرمين (والإحياء) للإمام الغزالي .

وأمام هذا الاهتمام البالغ بكتب الفقه والسير كان شيوخ المدارس في القيروان وتونس وقسنطينة وبجاية وفي طرابلس تكاد تجمع برامجهم على هذه القواسم المشتركة في تدريس اللغة العربية وفنونها المختلفة من ذلك أنهم اهتموا بالنحو الذي هو عماد فهم القرآن الكريم والمحافظة عليه وعلى جمالية اللغة العربية فكان كتابهم المفضل (الكتاب) لسيبويه ثم "الجمل" الزجاجي أو" المفصَّل" للزمخشري.

ويطول الحديث مع ابن خلدون في هذا الباب الذي يحتاج منا إلى تمعن وتعمق في النظريات والآراء التي إستنتجها خدمة للعملية التعليمية وفي ذلك يقول "ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان معا فأنه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما".

ثم يواصل حديثه قائلا:

"وأعلم أيها المتعلم أني اتحفك بفائدة في تعلمك فإن تلقيتها بالقبول وأمسكتها بيد الصناعة ظفرت بكنز عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعنيك في فهمها وذلك أن الفكر الإنساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر مبتدعاته وهو وِجْدانُ حركةٍ للنفس في البطن الأَوْسَطِ من الدماغ تارةً يكون مبدأ للأفعال الإنسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأ للعلم مالم يكن حاصلا بأن يتوجه إلى المطلوب ".

هذا عن العقلية في الإنسان وهي صفة نظرية لحصول المعرفة أو عملية التعلم كما نعرفها اليوم .

أما القسم الثاني من حديث ابن خلدون فهو الركن الأساس في بناء العملية التعلمية ومعرفة الأشياء وانتسابها على أحسن وجه قوله: "ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطئه...

وربما آثروا على هذه الكتب الأمهات بعض المختصرات الحديثة من مثل : مؤلفات بن الحاجب وابن مالك.

---

[1] هذه الرسالة الفقهية لقيت استحسانا عند أهل المغرب وهي من مقررات التدريس بجامع الزيتونة.

وقد كانت برامج التعليم في هذه المدارس لا تخلو من البلاغة والعروض والأدب وكانت هذه العناوين في برامجهم وحتى في المساجد كجامع الزيتونة رغم طابعها الديني كما ينظر إليها بعض الفقهاء.

وهذه العناوين هي (ديوان الحماسة)(مقامات الحريري) وغيرهما.

ومن بين العلوم العقلية :

التي كان ينظر إليها على أنها مفيدة للدين[1]: الحساب : لقسمه التركات[الفرائض] والمنطق الذي لا مفر منه في علم الأصول وقد كان أهم كتاب يدرس هو "الجمل" للخونجي أكثر من كتب الفارابي وابن سينا

أما بعض فروع الفلسفة الأخرى فإننا نعرف موقف أهل السنة منها وما كان للإمام الغزالي من أثر بالغ في وصم دارسي هذا العلم بالزندقة والكفر وكتابه تهافت الفلاسفة شاهد على ذلك وإن كانت هناك محاولة لرد الاعتبار للفكر ولحرية الرأي وحرية التعبير لإن الفلسفة في نظر ابن رشد محررة للعقل وللإنسان وهي كما قال :

أخت الشريعة "وبنتها الرضيعة" في كتابه الذي رد به على الإمام الغزالي "تهافت التهافت" وخلاصة القول إن الكتب التي كانت رائجة في المدرسة الحفصية هي :

كتب متنوعة للغاية من حيث الزمان والمكان فهذه المصادر موئلها العالم الإسلامي برمته ولم تكن ثابثة فرغم المحافظة فإن سرعان ما ينشر كتاب مدرسي جديد ولو كان آت من بعيد غير أن نقطة سلبية يوجهها ابن خلدون إلى هذه الطريقة التي جرى على استعمالها شيوخ إفريقية في العهد الحفصي مخلة بالتعليم كما يقول.

"... والوقوف على غاياته كثرة التآليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك... وكذلك كتاب إبن الحاجب وما كتب عليه ثم إنه يحتاج إلى تمييز الطريقة القيروانية من القرطبية والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين منهم والإحاطة بذلك كله وحنئيذ يسلم له منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز ما بينهما والعمر ينقضي في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالمتعلمين على المسائل المذهبية فقط لكان الأمر دون ذلك بكثير وكان التعليم سهلا ومأخذه قريبا ولكنه داء لا يرتفع لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقلها ولا تحويلها ...." [2].

---

[1] برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى نهاية القرن الخامس عشر، تعريب:حمادي الساحلي.ط.دار المغرب الإسلامي بيروت -لبنان. ط1. 1988م ج2.ص383.

[2] ابن خلدون، المقدمة. المكتبة التجارية.مصر.ص:535.

- هذه كلمة دالة لعالم خبر المجتمعات والأفراد في كتابه الفريد (تاريخ العرب و البربر).

ومن مقدمته الفذة جئنا برأي حصيف وشاهد على عصره (عبد الرحمن بن خلدون) فإلى هذا الرأي المستنير وإلى هذه الطريقة في التعليم ونقده لها وتحكم العادة والتقاليد في الناس حتى أصبحوا غير قادرين على تركها.

وإذا ما انتقلنا إلى الحديث عن الطرق التعلمية ومقابلة هذه الطرق ببعضها في الأندلس والمغرب ومصر والعراق : تتجلى صورة التعليم في إفريقية للدارسين الذين يبحثون عن هذه الفترة بشغف شديد[1].

حدد معالم هذه الطريقة كتابات: الغبريني، عبد الرحمن الدباغ، والتجاني، وابن خلدون، وابن عرفة، والقابسي وغيرهم.

دور المكتبات العمومية والخاصة في العهد الحفصي:[2]

فقد ذكر لنا التجاني تأسيس زاوية "أولاد سهيل" قرب صرمان في طرابلس، وفي مدينة تونس (في القرن الثالث عشر) أسس الأمير أبو زكرياء ابن أبي إسحاق مدرسة.....["زودها بكتب نفيسة في كل فن من فنون العلم"].

كما يذكر لنا العبدري في رحلته : أن عدة كتب كانت موجودة في الجامع الكبير بالقيروان غير أن المكتبات التي شهدتها تونس العاصمة هي التي كانت أكثر رواجا وشهرة وأكثر كتبا فقد ذكرت لنا كتب التاريخ أن مكتبة العطارين بلغت الكتب بها ثلاثين ألف كتاب، كان يشرف على تنظيمها المحافظ الحسن بن معمر الطرابلسي.

تيمنا بدار الحكمة التي انشأها المأمون ببغداد.

-وبعد ظهور الحفصيين أنشأ أبو زكرياء أول مكتبة جلب إليها زهاء ستة وثلاثين ألف كتاب ومجلد ثم بدأ الأهتمام بالمكتبات العمومية وشاعت في عهد الحفصيين أيام السلطان أبي فارس عبد العزيز (796هــ-837هــ).ونظمها ورصد لها الموظفين الدين يقومون على شوؤنها.

فالمكتبات رافد من روافد التعليم وبها يحصل العلم وينتشر بين الناس، وبقدر انتشارها ينتشر الوعي في مختلف المجالات ولذلك ستشهد هذه المنطقة ظهور مراكز للثقافة في أنحاء مختلفة من نواحي الدولة الحفصية، فاشتهرت هذه المدن بمكتباتها وإنتشار الثقافة وإزدهار التعليم فيها مثل : (بجاية- المسيلة- بسكرة-قسنطينة-طبنة-بونة-تونس –القيروان –المهدية –قفصة –قابس –جربة –توزر –نفطة –طرابلس)

---

[1] الغبريني، عنوان الدراية.

[2] التجاني، الرحلة، تقديم.حسن حسني عبد الوهاب.المطبعة الرسمية.تونس.1958م.ص25.

وقد أسهمت هذه المكتبات في تقدم وتطور التعليم وطرقه في عهد الحفصيين غير أن المقررات التي كانت سائدة في ذلك الزمان هي هي.

- بل في كل عهد من عهود الدول وإتجاهات أصحابها يكون الأهتمام بفرع من فروع المعرفة على حساب معارف أخرى بل والإعراض عن فن من الفنون نهائيا كما حدث في عهد المرابطين والموحدين وقبلهم عند الصنهاجيين نتيجة الصراع السياسي الديني مع الفاطميين الخارجين إلى مصر سنة 362هـ. والذي ترتب عنه صدام عسكري غير وجه المنطقة سياسيا وحتى دينيا[1] وسيكون فيما بعد لتلك الزحفة الهلالية أثر بالغ على الأدب والثقافة وعلى السياسة في المغرب والأندلس .

وفي بجاية كانت أكبر مكتبة أنشئت في عهد الحفصيين كما يذكر ذلك الغبريني[2] كما أضيف إلى المكتبات التي ذكرنا في تونس المكتبة **العبدلية** التي نقلت مخطوطاتها جميعا في عام 1967 إلى دار الكتب الوطنية. ولها جناح خاص بكل فهارسه. إن ذكرنا لهذه المكتبات يندرج في إطار رسم الصورة العامة للحياة الثقافية والفكرية على أيام الدولة الحفصية ودور هذه المكتبات في نوع التعليم الذي عاشته المدرسة الأفريقية في عهد الدولة الحفصية وسأزيد هذا الموضوع تفصيلا تتميما للفائدة لو تسنى لي معرفة بعض فهارس هذه المكتبة .

الإنتاج الفكري: العلوم – الدراسات الدينية والتراجم – التاريخ والجغرافيا – الشعر –النحو والنقد الأدبي.

لقد كان للدراسات الدينية شأن كبير في العصور الوسيطة حيث طغت هذه الأصناف على كل الدراسات والعلوم الحقيقية أو الصحيحة كما ينعتها الدارسون وقد كان للعقائد وعلم التصوف نصيب زهيد في الاهتمام به. إذ لا نكاد نجد أهم من كتاب (إبن إبي الدنيا)"في القياس. " الذي هو امتداد للدراسات التقليدية في باب "الأصول" .

وفي موضوع الجدل مع الديانات الأخرى وخاصة النصرانية نقف على بعض المؤلفات التي كانت في حاجة ماسة للرد على النصارى كما فعل قاضي الجماعة (إبراهيم بن عبد الرفبع) في كتابه "الرد على المنتصِّر" وأهم من هذا التأليف كتاب [عبد الله الترجمان] بعنوان:"تحفة الأريب في الردّ على أهل الصليب".

أما المادة التي عني بها أكثر في هذه الفترة –القرن الرابع عشر- في عهد سادة المذهب المالكي[3] هي: "الفقه" و"فروعه" وأهم الكتب التي ظهرت على مدى قرنين من الزمن يمكن الألماع إليها:

---

[1] أقصد الصراع الديني بين المذاهب الدينية في شمال إفريقية.

[2] الغبريني، أبو العباس احمد، عنوان الدراية..تحقيق:رابح بو نار.طبع ش.و.ن.ت.الجزائر.1970.ص26.

[3] برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ت: حمادي الساحلي، ط.دار الغرب الإسلامي، ج2، ص397.

كانت هذه الكتب ذات أصناف ثلاثة هي :الشروح- الكتب المذهبية والفتاوى.

وفي باب الفتاوى نذكر كتاب "الإكمال" الذي ألفه الأبي سنة 823هـ-1420م تعليقا على "صحيح مسلم" وقد أورد فيه الأبي مقتطفات من أهم آراء قدماء مفسري الحديث كالمازري والقرطبي والنووي والإكمال مضيفا ملاحظات شيخ المفتين الإمام ابن عرفة.

وقد تعددت الشروح حتى بلغت العشرات على أهم الكتب من مثل "المدونة" وعلى بعض الحلول التي استنبطها العلماء في تونس والقيروان وتلك المجموعة المليئة بالآراء الصائبة والأحكام الشرعية توفر للقارئ وثائق مناسبة حول التطور التاريخي لعدد كبير من المسائل ضمن المذهب المالكي.

أما شروح ابن الحاجب: فقد ظهرت بكثرة بسبب اعتماد شرحه في المدارس الحفصية، وقد سارعلى نهجه وطريقته إبن عبد السلام وإبن هارون . وكذلك إبن راشد القفصي وأحمد القلشاني، وقبل هذه الكتب يجب الإشارة إلى كتاب "سيدي خليل" الذي شرحه إبراهيم بن جابر الزواوي القسنطني المتوفى 857هـ-1453م. إن حب الشروح والتنافس فيها لم يوقف حركة الإبداع والتأليف المبتكر خلال هذه الفترة بل ظهرت بحق عدة كتب في عهد الدولة الحفصية يمكن الإشارة إليها ولكن ضيق المقام يجعلنا نشير إلى مظان وجودها فحسب[1].

أما الكتب العقائدية التي تبحث في الأصول فعددها ضئيل نكتفي بذكر أهم الدارسين لهذا الباب مثل: إبن راشد القفصي والإمام محمد بن عرفة. وقد لخص إبن راشد كتابيه الكبيرين وهما :"الفائق" و"المذهب" في مختصر يحمل عنوان "لباب اللباب" وقد بين فيه الجهود الجديدة المبتكرة في هذا الحقل من تصنيف منهجي ميسر لدراسة الأبواب.

ومن هذا النوع كتاب بن عرفة "المختصر الكبير" أو"المبسوط". وله كتاب آخر يمكن من خلاله استشفاف أحكام فقهاء الدولة الحفصية هو كتاب "الحدود" أو"التعاريف" الدي شرحه قاضي جماعة تونس (محمد الرصاع) ولا يمكن أن نحكم على هذه الكتب بالمدرسية إذ فيها ما يؤهلها لأن تكون كتبا قيمة تبحث عن الدقة المتناهية للمفاهيم التي يتعامل معها يوميا، وقد كان لكتابه "الحدود" أثر بالغ في المدرسة الفقهية الحفصية، وعلى الرغم مما ذكر من كتب جديدة إلا أن هذه المدرسة لم توفر تلخيصا فقهيا مهيأ على الدوام وعبر مختلف العصور فإن الدارسين في المغرب العربي لم يستعملوا في العهود اللاحقة بعد "الرسالة " سوى "مختصر سيدي خليل" أو "التحفة" الذي ألفه إبن عاصم الأندلسي مع بداية القرن الخامس عشر وقد وجد الفقه مجاله الحيوي في شكل "الفتاوى" التي من خلالها يعبر الفقهاء عن آرأئهم بالإجابة وإثارة السؤال وقد اعتنى بهذه المهمة عدد كبير من العلماء الحفصين منهم :

1- الفقيه التونسي محمد عبد النور.

---

[1] برنشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، ت: حمادي الساحلي، ط.دار الغرب الإسلامي، ج2، ص398.

الزركشي، تاريخ الدولتين، ص56.

2- الفقيه البجائي عبد الرحمان الوغليسي.

ولكن المكانة التي أحرزها بعدهما البرزلي كانت سابقة في هذا المضمار في كتابه "النوازل[1]". هذا في اختصار بعض الكتب الدينية التي راجت في القرون الوسطى في العهد الحفصي وحسبنا الآن أن نضيف إلى هذا الموضوع بعض الكتب التي مجدت المدن المغربية وفي حالات بعض الشخصيات العلمية مثل: كتاب :"عنوان الدارية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" من تأليف أحمد الغبريني.

وكتاب "معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان" لعبد الرحمان الدباغ، الذي أكمله ابن ناجي في أوائل القرن الخامس العشر الذي كان رجلا دينيا ومفاوضا سياسيا في عهد الأمير (أبي البقاء) مع سلطان الدولة الحفصية في تونس وقد قتل معذبا في عام 704هـ/1304م بأمر من أميره المرتاب بسبب الوشايات والسعايات التي انتشر أمرها في القصر الحفصي.

أما الغبريني فقد استهل كتابه بمدح سيدي أبي مدين وبعض السادة البجائيين في آخر القرن الثاني عشر ثم أعقبها بحوالي مائة ترجمة للذين استقروا ببجاية أو عبروها من العلماء والشعراء والأدباء وختم كتابه بالحديث عن الكتب المقررة في عصره.

أما معالم الإيمان، فهو كتاب أضخم ألفه صاحبه على شرف القيروان وقد رتب كتابه كالتالي :

1- ذكر أشهر رجالات الدين حتى سنة 808هـ-1405م وقد سبق في هذا المضمار من طرف عبد الرحمن الدباغ المتوفى سنة 699هـ .

وقد أضاف المهاجرون الأندلسيون إلى بجاية وتونس تآليف وكتبا قيمة منها كتاب (تكملة الصلة) لابن الأبار وهو تكملة لكتاب لابن بشكوال الشهير " الصلة" وكتاب "القدح المعلى" لابن سعيد الذي بقي في البلاط الحفصي مدة طويلة، وشارك في الحركة الأدبية والنهضة الفكرية في عهد الحفصيين.

وكتاب "المشرق في علماء المغرب والمشرق" وهذا النوع من الكتب لم يكن معروفا لدى علماء إفريقية.

ونضيف إلى ما سبق بعض كتب التاريخ التي ميزت العهد الحفصي وكانت خير شاهد على العهد والدولة ما كتبه العلامة العبقري عبد الرحمن بن خلدون في كتابه الفذ[2] .

هذا الكتاب الذي ملأ الدنيا وأقعدها بما جادت به قريحة ابن خلدون في تلك المقدمة التي استوحى روحها ومعانيها من حَلِّهِ وترحاله في كامل المغرب الإسلامي والأندلس بعدما خبر حياة الناس في الحضر والبادية وبخاصة إقامته في قلعة بني سلامة في الجزائر، ثم إقامته ببجاية ثم بسكرة ومروره وتجواله في المدن المغربية أوحت إليه بهذه الأفكار الجليلة في العمران البشري.

أما التاريخ المطول فقد أضاف فيه ابن خلدون إضافة جديدة في التعامل مع التاريخ وطريقة النقد التاريخي للحضارة الإنسانية، وكان يصوب ما يراه مخالفا للحقائق التاريخية وللمنطق الإنساني !؟.

---

[1] لقد ظهرت في العهد الحفصي كتب كثيرة تبحث في موضوع البدع، وهناك كتاب ثمين هو"المدخل" الذي ألفه الكاتب المغربي ابن الحاج الفاسي سنة 732هـ.

[2] هو التاريخ المعروف ب: العبر وديوان المبتدإ والخبر....

وقد أشار بشيء من التفصيل إلى قيمة كتاب ابن خلدون "برنشفيك"[1] حيث لاحظ وعلق على الصراع الذي دار بين أكبر مفكرين معاصرين في الدولة الحفصية وهما :[عبد الرحمن بن خلدون / والإمام محمد بن عرفة] حيث قال :

« وكما أنه لم يسبقه في هذا الميدان أي أحد من الناطقين بالضاد فإنه لم يظهر في تلك اللغة حتى العهد المعاصر أي منافس أو خليفة له.....».

وبالرغم من هذه المكانة التي يتمتع بها عبد الرحمن بن خلدون، إلا أننا نراه يختلق الحجج لمغادرة بلاط الحفصيين، بعد أن ضاق ذرعا بالوشاة الذين التفوا حوله مدبرين له المكائد عند الخليفة أبي العباس أحمد. غير أنه لم يعرهم أي اهتمام لأنه كان شديد الإعجاب بابن خلدون الذي أذن له بالخروج إلى مصر سنة 784هـ.

وبذلك يخلو الجو لمنافسيه، وتخسر تونس الثقافة ركنا من أركانها وعلما فذا من أعلامها ولكن إشعاع علمه سيستمر متألقا في مصر والشام وفلسطين وغيرها من الأقطار التي زارها.

وقد تبين لي مما جمعت من كتابات ودراسات عن الحياة الاجتماعية في ظل الدولة الحفصية أن عناصر الشعب كما ذكرنا: اثنان بارزان هما البربر والعرب. أما الطبقات الاجتماعية بحسب تفوقها ومكانتها في الدولة فيمكن الإشارة إلى هذه الطبقات:

1- فئة الملوك والأمراء.
2- الولاة، والقادة العسكريون.
3- رؤساء القبائل.
4- أصحاب الجاه.
   أ. من العلماء والفقهاء
   ب. من أصحاب الثروة والغنى.
5- أما سواد الشعب، فكان يعاني من ضيق العيش وشظفه وخاصة إذا لم ينضو تحت هذه الفئات المستحمة في مقدرات الأمة من مال وسلطة.

وهذا التقسيم الذي أفرزه واقع الحكم، جعل الحياة الاجتماعية تشهد هذا الفرق الشاسع بين فئات المجتمع وبين الحواضر والبوادي.

ولذلك عاشت هذه المنطقة كثيرا من الانتقاضات والثورات من بجاية إلى طرابلس الغرب.

---

[1] برينشفيك، تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب. حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ج2 ص406.

الباب الأول: الشعر والشعراء

الفصل الأول: الشعر

موضوعاته وأغراضه

الأغراض الشعرية

1- الحنين إلى الأوطان
2- الإخوانيات
3- المدح
4- الوصف
5- الزهد
6- الرثاء
7- الغزل
8- المولديات

الفصل الثاني: الشعراء

تراجم الأعلام من الشعراء

من شعراء الجزائر :

1- ابن لفكون القسنطيني.
2- ابن الخلوف القسنطيني.

من الشعراء الوافدين:

1- حازم القرطاجني.
2- أبوعبد الله «ابن الأبار»

من شعراء تونس:

1- التجاني أبوعبد الله محمد.
2- أبو الفتح محمد بن عبد السلام التونسي.

الفصل الأول
الشعر

موضوعاته وأغراضه

عندما نتحدث عن هذه الأغراض عند شعراء الدولة الحفصية فإنما نتحدث عن أهم النقاط التي شاعت عندهم وقلت عند غيرهم وما هي الدواعي الموضوعية والفنية لذلك؟.

وقد حاولت في هذه الدراسة أن استعرض ذلك كله عند نخبة من الشعراء. جابوا هذه الأقطار شرقا وغربا، وشاهدوا بأنفسهم أعظم الحوادث التاريخية التي عرفتها المنطقة سواء في شمال إفريقيا أو في الأندلس، وكان أدبهم صدى مدوّيا في تصوير هذه الفجائع المتنوعة التي مست هذه الأمة على مختلف الدهور. فكان الشاعر دائما هو الترجمان الصادق لما يعانيه الناس في مختلف حالاتهم، عند النصر أو عند الهزيمة والانكسار.

وسنتمثل بعينة من هذه الأشعار في مختلف الحقب والأزمان على امتداد الدولة الحفصية من سنة 626-981هـ مع الشعراء الذين ولدوا في هذه المنطقة (في حياة الدولة الحفصية) أو الوافدين عليها والذين عاشوا أحداث هذه الدولة وعبروا عنها بشعرهم.

1) الحنين إلى الأوطان:

لو حاولنا الحديث عن هذا الغرض فإنه يفوق كل الأغراض في اعتقادنا، لو جمعنا كل شعر الشعراء في نكبات أوطانهم ومدنهم، وفي نزوحهم عن الأهل والأحباب، ربما لن نجد مدينة من مدن العالم العربي من الخليج إلى الأندلس، لم تصب بكارثة فجرت في نفوس شعراء هذه المدن نفحات خالدات وربما يصلح هذا العمل كبحث مستقل لنعرف خط سير الأدب الحزين الباكي، المتحسر المتألم، والثائر على الأوضاع وعلى الناس وعلى الحكام وعلى الأقدار التي ظلمتها ظلما من غير ذنب جنته. وكم من مدينة متجبرة عاتية ظالمة لأهلها ولجيرانها لم تلاق ما تلاقيه مدننا ولنتمثل في هذا الغرض قول ابن شرف وهو يتألم لما حل بالقيروان وبأهله إذ يقول:[1]

يا قيروان وددت أني طائر فأرك رؤية باحث متأمل!

ويقول في مكان آخر:

ترى سيئات القيروان تعــاظمت فجلَّت عن الغفــران والله غـــافرُ
تُــراها أصيبت بالكبــائر وحــدَها ألم تك قدمـــا في البـــلاد الكبـــائرُ؟
ترحّل عنهـــا قاطنوهـــا فـــلا ترى سوى سائـــر أو قاطن وهو سائر؟!

---

[1] ابن شرف، محمد، الديوان، تحقيق: حسن ذكرى. نشر مكتبة الكليات الأزهرية ،ص63.

أي حزن أعمق من هذا الذي يبوح به ابن شرف وأي جرح أعمق من جرحه، وأي شتات أكبر من شتات أهله، فلا صريخ لهم، ولا منجد لهم، وحدهم يواجهون المصير المحتوم، وحدهم يواجهون المجهول، وحدهم يعانون، ووحدهم يواجهون عدوا لا قبل لهم به. كانوا آمنين فركبوا اليوم كل حزن تاهوا في الفيافي وركبوا البحر الهائج، لائذين بربّهم. متسائلين عن سبب النكبة والهزيمة في كل الأحوال أهي عقاب من الله أم ذلك بسبب استشراء الظلم والفساد في الناس.

ونتابع الحديث عن الأوطان عند شعراء الدولة الحفصية، لنتتبع حركة سيرهم في التعبير عن هذا الإحساس ومدى تطور هذا اللون فنيا عن غيره من الموضوعات التي طرقها شعراء الأندلس والمشرق. ولكن حزن المغاربة والأندلسيين على فراق أوطانهم ومدنهم ترك في نفوسهم جرحا عميقا. لم تخفف منه روائعهم الشعرية ونفحاتهم السحرية. ولنقرأ للشاعر ابن عميرة المخزومي فقد كتب رسالة لصديقه ابن الأبار وألحق بالرسالة هذه القصيدة علّها تنقل حزنه على أهله ووطنه بلنسية قائلا[1]:

[الطويل]

أقلّوا ملامي أو فقولوا وأكثروا	ملُومكم عمّا به ليس يقصرُ
وهل غير صبٍّ ماتني عبراتُه	إذا صعدت أنفاسُه تتحدرُ
يَحِنُّ وما يجدي عليه حنينُه	إلى أَرْبُعٍ معروفها متنكرُ
ويندب عهدا **بالمشقَّر** فاللِّوى	وأين اللِّوى منه وأين المشقَّر؟**!**
تغير ذاك العهد بعدي وأهله	ومن ذا على الأيام لا يتغير
وأَقْفَر رَسْمُ الدار إلاَّ بقيةً	لسائلها عن مثل حاليَ تُخَبِّرُ
فلم تبق إلا زَفرةً إثرَ زفرةٍ	ضلوعي لها تنقد أو تَتَــفَطَّرُ

فداره لم تعد داره، لا المشقَّر في الأندلس، ولا اللّوى في الحجاز! لقد تغير الحال، وذهبت الأوطان، ومن ذهب وطنه ذهب وطره، فآلام الشاعر متعددة حتى عاد غير قادر على تحديد نوعها فأضلاعه تنقد أو تنكسر أو تنفطر أو تنتشق كما تشققت أمور الناس واندثرت دياهم ودورهم. ويستمر في الحديث عن همومه بعيدا عن مدينته مستحضرا صورها التي علقت بالذاكرة وكتبت بأحرف لا تمحى من قلبه.

قوله[2]:

ألا ليت شعري والأمــــانيُّ ضِلَّة	وقولي ألا يـــا ليت شعري تحيــرُ

---

[1] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلسي الرطيب، منشورات دار صادر.تحقيق: إحسان عباس ج4 ص 490 . ومطلع رسالته قوله: "أيها الأخ الذي دُهِشَ ناظري لكتابه..."

[2] المصدر نفسه، ص.ص(493، 495)

هل النهر عِقْدٌ للجزيـــــرة مثلما عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهــرُ
وهل للصَّبا ذيل عليـــــــه يجره فيزوَرُّ عنه موجـــــــه المتكسِّــرُ
ملاعب أفراس الصَّبابة و الصِّبا تروح إليها تــــــارة وتُبَكِّرُ
وقبليَّ ذاك النـــهر كانت معـــاهدٌ بها العيش مطلول الخميلة أخضــرُ

يلتفت الشاعر قليلا إلى الماضي فيستغرق في ذكرياته : الصِّبا وأيام الشباب ، ثم يصحو على الفاجعة التي ألمت به وبأهله فيقول:

كذاك إلى أن صاح بالقوم صائحٌ وأنذر بالبيـــنِ المشتِّتِ مُنْذِرُ
وفرقَهم أيــــــــدي سبأ وأصابهم على غِرَّةٍ منهم قضاءٌ مُقدرُ

تلك هي رؤى الشاعر في النكبة ...وفي الدهر ومصائبه. ولعل الحديث عن الأوطان والغربة يتقاطع مع الرثاء وتصوير أحزان النفس وهي تعاني الفراق بأنواعه: جسديا وروحيا ونفسيا. فكانت هذه الأشعار خير من مثل أحزان الناس وجراحاتهم في ظل الدولة الحفصية.

ويقول بن الأبار: [1] [البسيط]

وطِّن على الدائبين: الدمعِ والشجنِ يا نادب الذاهبيْن: الأهلِ والوطنِ
واسكن إلى الصبر في إلمامها نوبًا أودَت على عقبِ المسكونِ بالسكنِ
كزعزع الريح صَكَّ الدوْحَ عاصفُها فلم يَدَع من جنىً فيه ولا غُصنِ
ومكرهٌ أنا فيما قلت لا بطلٌ[2] فلا تخلني خليًّـا من جَوَى الحَزَنِ
هذا فؤادي كالبرق الحقوق أسىً وهذه أدمعي كالعارض الهَتِنِ
براحتي رايةُ الأشجانِ أحملُهَا وإن غدا الجسم وهنًا ليس يَحْملني
فكم لقينا على الأمصار من فَنَدٍ[3] وكم تركنا لدى الكفار من فندِ
واهًا وآهًا يموت الصبر بينهمَا مرَّت المحامِدُ بين البخلِ والجُبُنِ
وجنةٍ حلَّ أهل النار ساحتها لم يغن حمل القنا عنها ولا الجُنَنِ
أتيح للرُّوم ما وفَّى مراميَهُم فيها وبؤنا بطول الغَبْنِ والغَبَنِ
كأننا لم نصل تلك الأصائل في شحد القرائح بالآداب والفطن

يقرر ابن الأبار في هذه الأبيات أنه بلغ الرسالة، وكان سراجا منيرا لقومه يحذرهم ويحفزهم، لأخذ الأهبة والاستعداد لمواجهة الأخطار المحدقة بهم.

---

[1] ابن الأبار، الديوان ، تحقيق : د.عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص 320.

[2] هو اقتباس من المثل العربي: "مكره أخاك لابطل"

[3] الفند : هو كفر بالنعمة والعجز. والفند أيضا الخطأ في الرأي.

فهو يبرئ ذمته، مما وقع للإسلام والمسلمين، في بلنسية !.

وقال متشوقا إلى بلده (بلنسية)[1]: [الوافر]

إلى الإلفيْن من أهـــل ودار	تأوَّبَني اشتيـــاقي وادِّكـــاري
وحن القلب، أعشـــارا إليها	حنينَ الوالهاتِ من العِشَـــارِ
فبتُّ كأني تــَوْقـًـا وشوقًـــا	على مثل الأسنة والشِفَـــارِ
وما حَشْوُ الضُّلوع سوى أُوَارٍ	وما نوم الجفون سوى غِرَارِ

وأي شوق هذا إنه انفطار، وانشطار، وهجر للنوم، فمضجعه قتاد ونومه سهاد. وهو بين خفق القلب واضطراب الجوارح.

وقال ابن الأبار يحن إلى وطنه وأهله، وقد أثقلته الهموم، وأرقه السهاد، فيلتفت إلى الأهل والوطن ليسكن جراحه : [الكامل]

غلبت علي لبعدكم أشجاني	وجفا الكرى من بعدكم أجفاني
وتضرمت بين الجوارح لوعة	إطفاؤها أعيا على الطوفان
هيهات يدنو الصبر مني بعدها	وأنا البعيد الأهل والأوطان
لو أن ثهلانا[2] تحمل بعض ما	حُمِّلْتُهُ خَرَّتْ ذُرَى ثَهْلاَنِ
أسرٌ وقسرٌ لا قرارَ عليهما	وتغرب عن أسرتي ومكاني
ويهون ذلك للفراق وطعمه	إن الفراق هو الحِمَامُ الثاني

لقد صور الشاعر البعد عن الأوطان بالموت، فمن فقد وطنه فقد نفسه، وكذلك حال الشاعر في أغلب قصائده التي جادت بها قريحته. وهو إذ يتغنى بوطنه فإنما يدعو الناس والمسلمين خاصة إلى التعلق بأوطانهم، والدفاع عنها، ثم إن هذه الغربة عن الأوطان هي غربة وحرقة لا يعدلها أي ألم أو حزن. ولذلك نراه يرسم هذه الصورة الحزينة بقوله[3]: [الكامل]

إن كان جسمي شطَّ عن مثواكمُ	فالقلب ثاوٍ بينكم لا يبرح
هذي الجوانح بالجوى مملوءة	مما أميل لكم وممـــا أجنح
لاتحسبوا الريح السموم هي التي	هبّت عليكم في الهواجر تلفح
أنفاسي الصُعداء تلكم هاجها	شوق إليكم بالفؤاد مبرِّح

---

[1] ابن الأبار، الديوان ، تحقيق : د.عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص199.

[2] ثهلانا: جبل بالحجاز.

[3] م.ن، ص،130.

ويتحسر على بلنسية موطنه الذي ضاع وأصبح في يد النصارى:[1]

[الكامل]

قد أسلم الإسلام فيه إلى العدى   فأساه بَرْح لا يُتــاح بَرَاحُه
لما تحجب في النوى منصوره   أنحى عليه بسيفه سفاحه

وقال ابن الأبار يصف حنينه وشوقه إلى وطنه[2] [الكامل]

لام المحبوب الفــراق ولمته   لكنهم سئمــوا ولمَّــا أســأم
ظعنوا وهم قد ودعوا أو سلموا   وظعنت غير مودع ومسلِّم
فعلي فلتبك البــواكي إنــني   أُخرجتُ من وطني ولست بمجــرم
وأُضِعْتُ يوم وُضِعْتُ في أرض بها   يغدو الفصيح معظما للأعجم
لا أستريح بغير ليل أليلٍ   أشكــو تطــاوله ويــومٍ أيْــوَمِ

فالشاعر هنا لا يبكي فراق وطنه فحسب بل يبكي نفسه ويرثي حاله. معبرا عن ألم الفراق، فراق الأهل والأوطان وما آلت إليه الأندلس في زمانه مصورا حالته النفسية المضطربة ووطنه الذي نزح عنه العباد مستنجدا بالملوك وبالناس جميعا علهم يعيدون للأندلس ماضيها المجيد وشرفها التليد.

وبعد أن يصور الشاعر حاله وهو يعيش الصمت المطبق وأصبحت حياته تشبه الأموات في قوله:

" إن الفراق موت بالحياة ؟ ".

ويستمر الشاعر في تصوير حاله وتحسره على وطنه وشوقه إلى أهله قائلا[3]: [الوافر]

أيا أسفي على عدم الهجوع   وفقــدان الأحبــة والربــوع
وشملي مزّقته يد الرزايا[4]   لينظم بعدها شمل الدمــوع
إلى من أشتكي صنع الليالي   بنا وتفرق الحي الجميــع
فكم أبكي الديار وساكنها   بطرف مسعــدٍ ودمٍ هَمُــوعِ
وكم أرجو الإياب لها سَفَاهًا   وتَرْكُسُ[5] بالإيــاب وبالرجوع

---

[1] ابن الأبار، الديوان ، تحقيق : د.عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص،131.

[2] م. ن. ص292.

[3] م. ن. ص، 365.

[4] الرزايا. ج رزية. المصيبة.

[5] تركس: أركسه. وأركسه في الشر. وأركس الله العدو. أوقعه فيه. قال تعالى: «وما لكم في المنافقين فئتين واللهُ أَرْكَسَهُمْ بما كسبوا»آية 88 من سورة النساء. أي ردهم إلى الكفر. وقال تعالى في آية أخرى:«كلّ ما رُدُّوا إلى الفتنة أُركسوا فيها» آية 91 من سورة النساء.

وبعد أن يسجل الشاعر أسفه على وطنه وفقدان أهله وتشريدهم في الأوطان. يبكي حظه العاثر المتعثر ولا مقيل له من عثراته ومن غربته ومن هجره، وكلما حاول العودة والرجوع أركسته الأيام والدهور وأعادته إلى الهجر والبعاد.

وفي نفس المعنى الحزين ينقل لنا الشاعر (أبو المطرف ابن عميرة) صديق ابن الأبار في بجاية ثم في تونس.

يقول عن ضياع بلنسية هذه الأبيات التي علق عليها المقري بقوله[1] :

« وما رأيت ولا سمعت مثل هذه الأبيات، في معناها، العالية في مبناها، فإن فيها الإشارة إلى استيلاء النصارى - دمرهم الله- على تلك الديار وثبوت قدَمَهم فيها على طِبَق ما حصل لهم فيه اختيار، مع إدماج حبه لها الذي لا يُشَكُّ فيه ولا يُرتاب واشتمالها على المحاسن التي هي بغية الرائد ونُجْعَةُ[2] المنتاب، ولكل أجل كتاب وإذا نفذ سهم المقدور فلا عِتَّابَ.»

ويقول ابن عميرة بعد ضياع بلنسية :

زدنا على النائين عن أوطانهم	وإن اشتركنا في الصَبَابَةِ والجوى
إنَّا وجدناهم قد استسقوا لها	من بعد أن شَطَّتْ بهم عنها النوى
ويَصُدُّنَا عن ذاك في أوطاننا	مع حبِّها الشِرْكُ الذي فيها ثَوَى
حَسْنَاءُ طاعتُها استقامت بعدنا	لعدونا أَفَيستقيمُ لهـا الهـوى ؟

وإنها لكذلك حسرة وأنين دفين بثه الشاعر في هذه المعاني التي تدخل النفس بسهولة ويسر لتترك حزنا أبديا في القارئ الذي لا يسعه إلا الإحساس بالحسرة، وبالغيظ الذي يمزق النفس على ما ضاع.

وكأن هذه المدينة امرأة صدت صدودا لا عودة بعده، ثم يتساءل الشاعر هل القضاء والقدر وحدهما أصابا بلنسية ؟ أم هناك عجز وخَوَرٌ في أهلها؟ فعندما عجزوا عن حفظها ودوامها انقادت لغيرهم طائعة مستسلمة !.

إن حسرة الشاعر عميقة وحزنه كبير إذ يصور المدينة وقد عمها الشرك، وقد كانت على التوحيد. ثم يتساءل منكرا بقاء (بلنسية) على هذه الحال من الانقياد والانصياع للأجنبي ؟!.

---

[1] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، دار صادر، تحقيق: د. إحسان عباس.ج1، ص310.

[2] النجع: طلب الكلإ ومساقط الغيث. ويقال هو نجعتي: موضع أملي.

إذا كان قد استقام لها القهر وغلبة العدو فإنه لن يستقيم له طاعتها. إن الشاعر هنا يدعو إلى استعادة المدينة وإعادتها إلى عهدها القديم، في ظل الإيمان و التوحيد فهو لا يقر بالهزيمة بل يدعوا الناس إلى الثورة وعدم الإنقياد للعدو. إن الشاعر في هذه الأبيات يسجل موقفين ثابتين:

1- حبه وشوقه للمدينة ككل الشعراء.

2- دعوته إلى الثورة على هذا الواقع وتغييره

ومما جادت به قريحة العالم والشاعر الكبير محمد بن عبد السلام التونسي. والمقيم بدمشق متشوقا إلى بلده ومدينة تونس، وقد عاثت بساحتها جيوش الإسبان، وما لحق بأهلها من ذل وهوان وتبدل حال.

قوله[1]:

سلوا البارق النجدي عن سحب أجفاني وعمـا بقلبي مـن لواعـج نيران
ولا تسألوا غير الصَّبَا عن صَبَابتي وشـدة أشـواقي إليكـم وأشجـاني
فلله ما أذكى شذا نسمة الصَّبَا صباحا إذا مـرت على الرنـد والبان[2]
وسارت مسير الشمس وَهْناً فأصبحت من الشرق نحو الغرب تجري بحسبان[3]

ثم يسترسل في بث شوقه وحنينه إلى تونس الخضراء قائلا:

تحية مشتاق إلى ذلك الحمى وسكانه والنازحين بأظعان

بعد أن يسجل شوقه للنازحين عن الديار، من الأهل والأحباب ولم يجد ما يقدم لهم من عون، ودفع أذى، إلا هذا الدعاء بالسلامة لتلك الرِّباع وأهلها، مستجيرا بالله الذي لا مجير سواه، أما دمعه فيجري كالوديان حسرة على أم الحواضر كما دعاها.

سقى الله هاتيك الديـار وأهلهـا سحائب تحكي صوب مدمعي القاني
هي الحضرة العلـيا مدينة تونس أنيـسة إنسـان رآهـا بإنسـان

وبعد التحية والشوق إليها ، والبكاء لحالها يذكر أمجادها على يد الحفصيين فيقول:

لـقد حل منها آل حفص ملوكهـا مراتب تسمو فوق هـامة كيـوان[4]

---

[1] النيفر، محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب ، المطبعة التونسية، ط 1، 1354هـ. ص،119.

[2] الرند: الآس. البان: ضربٌ من الشجر، لين ورطب، كورق الصفصاف، ويشبه به الحسان في الطول واللين

[3] اقتباس من القرآن الكريم. قوله تعالى: ﴿**الشَمْسُ والقمر بِحُسْبَانٍ**﴾ الآية، 5 سورة الرحمان. والمعنى. بحسبان: ينقادان لله فيما خلقا له.

[4] كيوان: اسم زحل بالفارسية.

وســـادوا بـــها عظم الملوك وشيـــدوا　　　بها من مبانـــــي العز أفخر بنيان

ثم يصف المجد العلمي والازدهار الثقافي الذي عرفته مدينة تونس في العهد الحفصي مبينا المكانة التي كان عليها العلماء في هذه الفترة بقوله:

وكانـــــــــت لطلاب المعارف قبلة　　　لما في حمــــــاها من أئمة عرفان

وكان لأهل العلم فيـــــــــها وجاهة　　　وجاه وعز مجده ليـــــــس بالفاني

وكـــان بواديـــــــــــها المقدس فتية　　　تقدس باريـــــــــــــها بذكر قرآن

ثم عبثت بهذا المجد المشيد جيوش الإسبان، فاستحالت مدينة العلم والعلماء ،ومدينة الأمن والأمان إلى أثر بعد عين فيقول فيها:

فأعظم برزء خص خير مديـــــنة　　　وخير أناس بيـــــن عجم وعربان

وقد عمّنـــا غم بعظيم مصابها　　　وإن خصني منه المضر بجثماني

فصبرا أخي صبرا على المحنة التي　　　رمتك بها الأقدار ما بين إخوان

فما الدهر إلا هكذا فاصطبـــــر له　　　رزيــــــــــة مال أو تفرق خلان[1]

يختم الشاعر قصيدته بأمل في العودة وبنصيحة لأهله. وهي خلاصة تجاربه في الحياة قائلا:

"الدهر لا يجمع إلا قليلا...بل إنه مجبول على الأذى والضرر، فكن صبورا جلدا لمحنه المتتالية..."

- إن هذا اللون من الشعر تعبير عن المشاعر وموقف من الأحداث الكبرى التي لحقت بالأمة الإسلامية في مشارق الأرض ومغاربها.

- وفي هذا اللون بث الشعراء عصارة أفكارهم في دفع البلاء ودرء الخطر عن الإسلام والمسلمين في أوطانهم وفي مدنهم ولكن إذا حصلت النكبة أو الهزيمة، فإنهم على الأقل بُرَآءُ من ذلك فقد آثروا تقديم العون لإخوانهم باللسان، وذلك أضعف الإيمان، ولكنهم لم يكتفوا بالكلمة بل حملوا السيف والقلم من أجل التغيير وتبديل الواقع. وإذا جانبهم النصر فعزاؤهم كما قال المتنبي:

لا تلم كفي إذا السيــــــــف نبا　　　صح مني العزم والدهــــــــر أبى

وفي معنى التشوق إلى البلدان والتحسر على المدن قول الشاعر أبي القاسم الرحوي[2] يشكو حال مدينة تونس بعد دخول جيش المرينيين إليها (747هـ) وما حصل في البلاد من هَرْج ومَرْج ومن اجتماع واختلاف، ومن مبايع ومعارض لأبي الحسن المريني، ويصور أحاسيسه ومشاعره بعد تلك الضائقة قائلا:

---

[1] النيفر، محمد، عنوان الأريب. ص 121.

[2] النيفر، عنوان الأريب. ص 97./ ابن خلدون، عبد الرحمان، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى. مصر، ص523

استغفر الله كــلَّ حين قد ذهب العيش والهناءُ
أُصبحُ في تونسَ وأُمسي والصبــح لله والمســاءُ
الخوف والجوع والمنايا يُحْــدِثُــهَا الهرج والوبــاءُ
والناس في مريــة وحرب ومــا عسى ينــفع المِــراء

عندما افتقد الشاعر أمنه وافتقد أهله وإخوانه، لجأ إلى الله مستغفرا موحدا متعجبا مما يحدث بين المسلمين من تقتيل وتشريد وحرب اشتعل أوارها بين الإخوان؟! فمن يطفئها ومن منهم على حق؟ ومن منهم على باطل؟ تلك استفهامات الشاعر المحيرة التي يستمر في طرحها على القاريء مبينا رأيه وموقفه من هذه الفتنة قائلا:

فبعضهم قــد رأى عليــًا حل به الهُلْــكُ والتَّواءُ
وآخر قــال سوف يأتي به إليكم صبــاً رُخَــاءُ
والله من بــــــعدِ ذا وهذَا يقضي لعبدَيــْه ما يشـــــاءُ

لا نقول هنا إلا كما قال الله تعالى: «ولا يظلم ربك أحدا»

لا شك أن بين الرجلين وبين الدولتين ظالم ومظلوم، والشاعر سجل موقفه من هذا الخلاف قائلا:

يا راصد الخنَّس الجواري مــا فعــلت هذه السمــاءُ
مطلمتونــا وقــد زعمتم أنــكم اليــوم أمليــاءُ[1]
مر خميــس على خميــس وجــاء سبــت وأربعــاءُ
ونصف شهر وعشرُ ثــانٍ وثــالث ضمه القضــاءُ
ولا ترى غير زور قولٍ أذاك جهــل أم ازدراءُ
إنّا إلى الله قــد علمنــا أن ليس يستدفع القضــاءُ
رضيــــت بالله لي إلهــا حسبكم البدر أو ذُكــاءُ[2]

وبعد أن يبين مآل الناس إلى الظلم والقهر والمماطلة والكذب، يؤوب الشاعر إلى خالقه، فيستخلص هذه النتيجة التي أدركها قبله كثير من الحكماء والشعــراء. وهي أن الصراع بن القــدر والإنسان أبدي،

---

1 مالأه على الأمر ممالأةً، ساعده وعاونه.

2 ذُكاء : الشمس، وابن ذكاء :الصبح.

الغالب دائما القدر والمغلوب هذا الانسان؟ وكأنما استخلص الشاعر معاني أبي تمام في قصيدته«فتح عمورية» عندما كثر تخرس المتخرسين وحسابات المنجمين كما قال أبو تمام[1].

أو هو يترجم ما قال الشاعر أبو فراس الحمداني في الزمان[2]، ثم يتابع في وصف أحزانه وهمومه قائلا:

مـــا هذه الأنجـــم السواري	إلا عبـــاديـــد[3] أو إمـــاء
يُقضى عليها وليـــس تقضِي	وما لها في الورى اقتضاء

هذه الأنجم ما هي مخلوقات يُقضى عليها ولا تقضي على أحد، وهو رأي جرئ، إذ شاعت هذه الأفكار والأكاذيب بين الناس حتى قيل في حق المنجمين: « كذب المنجمون ولو صدقوا».

فالشاعر في هذه القصيدة واضح في رؤاه ضد المشعوذين والأفاكين، لا مهادنا لهم ولا مداريا. بل إنه يهاجم هذه الشائعات بكل ما أوتي من قوة البيان وقوة البرهان ليدحض حججهم الواهية.

ويتابع الشاعر حديثه عن المنجمين وتنطُّعهم:

ضـــلّت عقـــول ترى قديمـــا	ما شـــأنه الجُرمُ والفنـــاء
وحكمـــت في الوجـــود طبعـــا	يحدثـــه المـــاءُ والهـــواء
لـــم تـــر حـــلواً إزاء حـــرٍّ	تغـــذُوهم تربـــة ومـــاء

ثم يدلي بهذه الخواطر الفلسفية، وما طرح الناس من أسئلة محيرة على مر الزمان وهي خواطر شاعر لا يمكن أن ترقى إلى رأي فلسفي واضح في العقل الإنساني أو في قضية الوجود والعدم، وما إلى ذلك من أسئلة الفلاسفة ودهشتهم أمام الكون العجيب العظيم!

ثم ينتقل إلى مقطع آخر في نفس الغرض مصرحا بما يرى ويعتقد كشاعر يتفلسف:

الله ربـــي ولـــستُ أدري	ما الجوهر الفرد ما الخَلاَءُ
ولا الهيُولى التي تنادي[4]	مـــا لي عن صورة عَرَاءُ

---

[1] والعلم في شُهُب الأرماح لامعة   بين الخميسين لا في السبعة الشُّهُبِ

والشهب الثانية في بيت أبي تمام هي التي يقصدها المنجمون، وهي السيارات السبع: زحل، المشتري، المريخ، الشمس، الزهرة، عطارد، والقمر. انظر: أدباء العرب، بطرس البستاني، مطبعة دار مارون عبود، ج4، ص55.

[2] وإذا حمّ القضاء بامرئ، فليس له برّ يقيه ولا بحر.

[3] عباديد: والعباديد(بلا واحد)، الفرق من الناس أو الخيل، وعبابيد: من فعل: عبَّد: الرجل أسرع. وتعبدد القوم: تشتتوا.

[4] فيه اختلاف في رواية هذا البيت: انظر المقدمة: ص524./ النيفر، عنوان الأريب، ص102.

ولا وجــود ولا انعــدامٌ ولا ثبــوت ولا انتــقــاءُ
والكسبُ لم أدر فيه إلاّ مــا جــلب البيع والشِّراءُ
وإنَّــمـــا مــذهبي وديني مــا كــان للناس أوليــاءُ
إذ لا فصولٌ ولا أصــولٌ ولا جــدال ولا رِيــَاءُ
مــا تَبِعَ الصَّدرَ واقْتَــفَيْنَا يــا حبَّذا كــان الإقتِفَــاءُ
كــانوا كما يعلمون منهمْ لــمْ يكــن ذلــك الهَــذَاءُ
يــا أشعريَّ الزمان إنِّي أشعرني الصيفُ والشتــاء

إن استكناه الأجرام السماوية، والأفلاك الدائرة: كذب وافتراء.

وفي إصرار ووضوح يقرر الشاعر أن الحقيقة ليست عند المتفيقهين ولا المنجمين ولا المدعين في العلم، بل إن حقيقة العالم تبينها الليالي والأيام، ودورة الزمان... وليس هناك أبلغ من حقيقة الواقع الذي يصدمك بحرِّه وقرِّه كالصيف والشتاء، وأي شيء أبلغ من هذه الصورة، عندما تاه الناس واتبعوا كل السبل، غير سبيل الهدى والرشاد بسبب ما حل بالناس من زيف فكري، أو حكم فقهي فيما جرى للبلاد والعباد. وأي شيء أشد بلاء على الناس من احتكامهم إلى الأوهام، وابتعادهم عن العلم وعن الحق والإيمان؟!.

ثم يسترسل في حديثه مصورا حزنه وموقفه مما يجري بين دولتين شقيقتين هما: (المرينية والحفصية):

لــمْ أُجْزَ بالشرِ غيرَ شرٍ والخيرُ عن مثله جزاءُ[1]
وإنني إن أكنْ مطيعــاً فلستُ أَعْصَى ولي رجاءُ
وإنني تحــت حكم بــارٍ أطاعهُ العرشُ والثراءُ
ليس انتصــار بكم ولكن أتاحه الحكم والقضــاءُ[2]
لو حُدِّث الأشعريُّ عــمَّن لــه إلى رأيــه انتمــاءُ
لــقــال أخبــرهم بــأنِّي ممــا يقولونــه بــراءُ[3]

إن أقوال هؤلاء في النجوم والأجرام السماوية وفي الخير والشر قول هراء وأنا لست منهم فيما يقولون وأنا بريء منهم كما برئ إبراهيم عليه السلام من الأصنام، أو براءة الذئب من دم يوسف عليه السلام.

إن الشاعر الرحوي في هذه القطعة يبلغ الذروة في التعبير عن تلك الأحداث المتتالية مبينا رأيه فيما كان الناس فيه يختلفون في أمر الدنيا والدين وفيما شاع عند الناس من أقوال القدماء في الدهر، وفي القضاء والقدر. وذلك في أسلوب فيه كثير من التأنق والتألق اللغوي في نقل تلك التجارب النفسية، وقد لمسنا في هذه القصيدة وحدة موضوعية ووحدة لغوية ووحدة نفسية، يمكن التدليل عليها من خلال النص.

---

[1] في هذا البيت إشارة لقوله تعالى: ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره.ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾ سورة الزلزلة(الآية: 7، 8)

[2] البيت غير موجود: عند صاحب/ النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص 102.

[3] براء: برؤ: سلم، وخلص النية. وبرآء .ج. برء،: خال من الذنب أو التهمة ،بريء: غير مذنب. وفي قوله تعالى: ﴿ **إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله**﴾ الممتحنة(4) . وقال تعالى: ﴿**براءة من الله ورسوله**﴾ براءة(1) وقال: ﴿ **فبرأه الله مما قالوا**﴾ أي: خلصه ونزهه عن العيب أو الذنب. هذه المعاني القرآنية هي خلاصة رأيه.

فالموضوع من أوله إلى آخره في الحديث عن تونس والخلاف الذي حصل والخراب الذي حدث بين الأهل و الإخوان.

وفي اللغة نجد الشاعر منسجما مع نفسه ومع اللغة التي استخدمها في التعبير عن المحنة التي حلت بأهله في تونس، كل كلماته لا تحمل إلا الأسى، والحزن،والموت، والدمار، والخواء، والفراغ، والقتل والخلاف، والملاء، والضعف، والظلم، والرزء، والخطب، والتحقير والازدراء.

إن هذه اللغة وهذه الألفاظ المنتقاة تجري على لسان شاعر يعرف ما يقول ومن أين يبدأ وإلى أين سينتهي، حزن، وحرب، واختلاف، كما سيصطنع لها ما يناسب من الكلمات. وتلك الوحدة اللغوية في ألفاظها ومعانيها.

أما الوحدة النفسية: فإن الشاعر يبدأ قصيدته متألما متحسرا متفجعا على ما حدث لأهله ولبلاده ولمدينته من أول بيت حتى آخر بيت. إذ يقول في المطلع وهو الخيط النفسي الرفيع الذي يربط هذا العمل في وحدة متكاملة. فلو تأمّلنا استهلاله!

استغفر الله كل حين   قد ذهب العيش والهناءُ

وبحثنا في قصيدة الرحوي هل تجد فرحا أو حبورا، هل تحدث عن نصر، عن عزٍّ، عن شرف هل جاءت بعض معانيه لتدل على أنه ليس حزينا جريحا. إنه متوحد في لغته متوحد في حزنه وحسرته منسجم مع أحزان نفسه.

-إننا لا نجد في هذه القصيدة من مطلعها الراقي في إحالتها إلى ذهاب العيش السهل، وذهاب الأمن، والأمان، وتفرق الأهل والإخوان... وتلك في نظرنا وحدة نفسية حقيقية لا أحد يماري فيها. وهي وحدة نفسية تكاد تطبع شعراء المغرب جميعا، بهذه الظاهرة الحزينة في شعرهم الوطني والحنين إليه.

ويتأكد ذلك بخاتمة قوله من هذه القصيدة:

لو حُدِّث الأشعريُّ عــمَّن   لـــه إلى رأيـــه انتمـــاءُ
لـــقـــال أخبـــرهم بـــأنِّي   عمـــا يقولونـــه بـــراءُ[1]

وهذا يدل على أن الشاعر في المغرب العربي (في عهد الحفصيين)، قد حقق بعض هذه القضايا الأدبية التي يحدثنا عنها النقد منذ أمد بعيد.كما تحققت عند شهاب الدين بن الخلوف الشاعر القسنطيني المولد. والتونسي المسكن والموطن.

---

[1] ابن خلدون،عبد الرحمان، المقدمة، المكتبة التجارية الكبرى. مصر ص 524.

الإخوانيات :

سأعرض في هذا الجانب ل دار بين الأدباء والشعراء، ما فيه من الكلمة الجليلة والفكرة الصائبة العميقة ما يجعلنا نتمثل بها في كل مناسبة أو ظرف مشابه، وتكون عونا لمن يدخل معترك الحياة وبحرها المتلاطم فتكون له نبراسا وضوءا يستضاء به. وهذه لمع من غرر الشعر المغربي. فمن مليح هذا الشعر قول التجاني.[1] أبي العباس أحمد.

وقد بث فيها مشاعره وأحاسيسه:

لأَهْلِ الحمــى أصبو وإن جدّ لائـم ... وإني على ورْدٍ بــه الدَهْــَر حائـــــمُ
ومـــا القلب خـــال من هوى ســاكن اللِّوى ... وإن أقفــرتْ منهــم وأَقوتْ معالــمُ
علــي لهــم جفــن مــن الدمــع مُــتْرَعُ ... وقلــب على حكــم الصَّبابة هائــمُ
يَحِــنُّ اشتياقـــًا أو يحــن صَبَابــةً ... إذا لاَحَ ضحَّاكْ مــن البــرق باسـمُ
وإن غرَّدت ورقــاء فــي غســق الــدجى ... يميل بها غُصْنٌ مــن الأَيْكِ ناعــم[2]
تذكّر عــهــدًا قــد تقـضى نعيمــه ... كــأن لياليــه المواضـــي مــواســمُ
وبـــالنــفــس أفــْدِي جيــرَةً قَــدْ تحمَّلـُوا ... فلا القلبُ مُرتاحٌ ولا الجَفْنُ نائـــمُ
ويـــا قـــاتــلَ اللــه المــطــيَّ وإنمـــــا ... نَــأَتْ بأحبائي المطــيُّ الرّواسـم[3]
لقــد خلَّفــوا مــن بــعدهــم ذا صَبَابَــةٍ ... يَــرُوحُ ويغدو وهــو بــانٍ وهـــادمُ
إذا مـــا جَــرَى ذِكْـــر العقيق جَــرت لـــه ... دمـــوعٌ حَكَتْ لون العقيــقِ سواجــمُ

ثم يبرح به الشوق والحنين إلى أخيه (عبد الله) وهو في رحلته إلى جنوب تونس فيقول:

لقد طـــال هذا البعد واشتطَّتِ النَّوى ... وجَـــارَ علينا الدهرُ والدهرُ ظالمُ
ومـــا طلبـــي سقيـــاه إلا رعـــايـــةً ... لمن حلَّه والدهـــرُ مُعْطٍ وحـــارِمُ
ومن أجل من حلَّ الحِمى يُذْكر الحِمى ... وإلا فما تجدي الربوع الطواســمُ
فيا نائيًــا عني ومثـــواه فـــي الحشا ... ومن أعجب الأشياء نـــاءٍ مـــلازمُ

---

[1] التجاني، الرحلة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية 1958م. تونس ص142. هو: أبو العباس أحمد (شقيق صاحب الرحلة).

[2] هذا المعنى مأخوذ من قول: ابن الدمينة: في قصيدته: (صبا نجد):

أَلاَ يا صَبَا نَجْدٍ متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجدا على وجد.
أئن هتفت ورقاء في رَوْنَق الضحى ... على فَنَنٍ غَضِ النبـــات من الرند.

[3] الرواسم: الناقة حملها على سير سريع.

هذه المعاني التي بثها في قصيدته هي معانٍ معادة، عرفت في شعرنا القديم وهو يتشوق إلى أخيه وكأنما يبث أحزانه وأشواقه لمن هاجر وابتعد، وبرغم بعد الأخ عن أخيه في هذه الرحلة الطويلة، فإن القرب ملازم لروحيهما، وإن شطت بهما النوى، وأبعدت.

وكتب الأديب الشاعر: الهواري[1] يتشوق إلى صاحب الرحلة في سفريته المشهورة... قوله:

كتابكم أهدى من الوجد ما أهــدى   فلا تحسبوا أني نقضت لكم عهدَا
سَرَى لي بسرٍّ منه عَرْفَ مُعَــرَّفٍ   أَفَــادَ بمسْــرَاهُ الصَّبَابَــةَ والوجــدَا
حبـانـــي بحـــبٍّ سيـــد فيه ماجـــدٍ   بـــه شـــرَّف الله السيـــَّادة والمجـــدا
نسيـــم الصَّبَـــا بـــاللـــه سِرْ بتحيـــةٍ   فَضَضْتُ بها من شكره المسك والنـــدَّا
وحَيِّ بهـــا عبد الإلـــه على النَّـــوى   وأدرج لـــه أثناءهـــا الشكر والحمـــدَا
كأني به لمّـــا جـــرى البَيــْنُ بيننـــا   ومَـــدَّ حجـــابَ البعـــد ما بيننا مُـــدَّا
يقول: جفـــا أو مـــال أو مَلَّ أو سَـــلاَ   أو حال عن الإخلاص أو نسيَّ الـــوُدَّا
غرامي غرامي بالحبيـــب وإن نـــأى   وحبـــّي لـــه حبّي دنـــا لي أو صـــدَّا
وإنـــى لمشتـــاق إليـــك وصـــابـــر   إذا لـــم أجـــد ممـــا أكـــابـــده بـــُـدَّا
وإنـــي لأســـتجـــدي ودادك إنّـــــه   أجَـــلُّ نفيـــس والأفاضـــلُ تُسْتَجْـــدَى
وإنـــى لأستدعـــي جوابـــك راغبًـــا   ليفتح بـــاب القرب من بعد ما سُـــدَّا
لقد ضيعَ الأصحاب عهدي ولا نَـــوَى   وأنت بظهـــر الغيب تحفظ لي الـــوُدَّا
سأشكرُكُم شُكْر الرِّيـــاض بسُحْبِهَــــا   وأنظم فيكم من حُلَى مجدِكـــم عِقْـــدَا

لقد ضمت هذه القصيدة غرر المعاني في الوفاء والثبات على العهد. فلا الأيام تبدل أو تغير من أصحاب العزائم والعهود الصادقة مهما كانت الأحوال... قربت الدار أو باعدت بينهم الأقدار...

وكتب أبو عبد الله التجاني (صاحب الرحلة) إلى صديقه: (ابراهيم بن حسينة)[2] يقول:

يا نسمة الروض الذي حاكت لـــه   أيدي الغمام ملابس الإيـــراق
سِيرِي مُبَلِّغَةً على شَحْطِ النَّـــوَى   طيب السلام إلى عُلاَ إِسحـــــق
وبعثت هذا الطِرْسَ نحوك قاصدًا   تقرير وُدٍّ مُبْـــرَم الـــــميثاق
فـــأتى يُبِينُ إليك صِـــدْقَ مَوَّدتـــي   إنَّ الخطابَ على البعـــادِ تلاقي

---

[1] التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الرحلة ، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية 1958م. تونس ص165.

[2] م.ن، ص 166.

هذه المشاعر لا تصدر إلا بين أصدقاء، جمعتهم الكلمة الصادقة والمجالس الأدبية التي زهت بها فترة الحفصيين فقد اجتمع من الشعراء والأدباء والعلماء في هذه الفترة ما يندر أن تشهد مثله هذه المنطقة قديما وحديثا.

فرَدّ عليه (ابن حسينة) بقوله:[1]

أعبد الله قد حُزْتَ المعالي وفُقْتَ كبار أعلامِ الرجـــال
ملئتَ نباهةً ومُلئتَ علمًـــــا وأكثرُ مَنْ ترى من ذَاكَ خالِي

ثم يذكر حاله بعد أن افترقا قائلا:

فحالي كلها غمٌّ وكـــربٌ فَوَا أَسفي لِماَ قَضَتِ اللّــيالي
فدمع العين لا يرقـــا وقلبـــي له وجد حكى وَخْزَ النِّـــبَالِ
وكنت أظن أمر الصبر هَيْناً و أنَّ الوَجْدَ عَنَّا ذُو انفصـــال
وأن فـــراقكم يَبْلَى فيُنْسَـــى سِوَى ذِكْرَى إذا خَطَرَتْ ببالِ

إنه يعالج حالات الجفاء والنسيان بين الأصدقاء والإخوان لكثرة هموم الزمان، يتغير الناس فينسون ويسلون في أكثر الأحيان!

ولكن ابن حسينة، يثبت عكس الذي نرى ونعرف، من تغير الناس وتبدل الإخوان ويدعو إلى دوام العهد، وصفاء الود.

وإذا كان الحديث رفيعًا بين الأحباب والإخوان، فإنه يصلح أن يبقى عبرة لمن يعتبر، وذخرًا للناس، لأن هذا الحديث يمثل بحق عصارة فكر الشعراء وتجاربهم في الحياة وفي الفن... ومن ثمة فإن هذه النصوص تستحق منا قراءتها وتجديد النظر فيها لأنها تراث لنا أولاً وللناس كافة. وكم أعجبتني هذه القصيدة (الوصية). من ابن سعيد الأب: إلى ابنه علي بن سعيد (صاحب كتاب المُغرب في حُلَى المَغرب) كتب له هذه الوصية وهو بالإسكندرية بعد خروجه من تونس. لتكون له ذخرا في غربته[2]

يقول ابن سعيد الوالد. لابنه علي في هذه **الدرة**[3]:

---

[1] التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد، رحلة التجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية 1958م. تونس ص165.. ص 167.

[2] المقري التلمساني، أحمد بن محمد .نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب.دار صادر. بيروت. لبنان. 1968م.ج2: ص353.

[3] النفح، ج 2، ص353.

أُودِعُكَ الرحمنَ في غربتكْ مُرتقباً رُحمــاهُ في أوْبتكْ
وما اختياري كان طوع النوى لكنني أجري على بُغْيَتِك
فلا يَطُل حبل النَّوى إنـــني والله أشتاق إلى طلعتِــك
من كان مفتونا بأبنائـــه فإنني أمعنت في خبرتــك
فاختصر التوديع أخذا فــما لي ناظر يقوى على فُرقتكْ
واجعل وَصاتي نُصْبَ عَيْنٍ ولا تَبْرَحْ مَدى الأيام من فِكْرَتِك

بعد هذا الاستهلال الرائع، حيث يجعل ولده وديعة في يد خالقه يدعوه إلى أخذ هذه الوصية نصب عينيه فإنها خلاصة تجاربه في الحياة! ثم ينتقل لتفصيل نظرته في الأصحاب والخلان فيقول:

ولا تُجالسْ مَنْ فَشَا جَهلُه واقْصِدْ لمَنْ يَرْغَب في صنعتِك

ثم يقول في آداب السلوك والجلوس مع الكبار:

أَفْشِ التحيات إلـــى أهلــها ونبّه الناس على رُتْبَتِــك
وانطِق بحيثُ العَيُّ مُستقْبَحٌ وَاصمُتْ بحيثُ الخيرُ في سَكْتَتِكْ

ثم يعرج على ذكر الزمان وهمومه. وبين لابنه كيف يواجه الرزايا والخطوب... فيقول من القصيدة نفسها:

وللرزايــا وثبـــةٌ مــالهــا إلاَّ الــــذي تَذْخَــرُ مــن عدَّتكْ
ولا تقــل أسلــم لـــي وحدتي فقد تقاسي الذُّلَّ في وحدتِك
واعتبر النـــاس بـــألفــاظهــم واصحَبْ أخاً يرْغَبُ في صحبتِك
و إن نَبــَا دهرٌ فَــوَطِّــنْ لــه جَـــأْشَكَ وانظِره إلـــى مُـــدَّتِـــكْ

وذلك هو عين الصواب، وسداد الرأي في مصاحبة الناس والتجلد أمام محن الزمن. ويختم هذه القصيدة (الوصية) بقوله:

و الشرُّ مَهمَا اسطَعْت لاَ تَأتِهِ فــإِنَّهُ حَوْبٌ[1] عَلَى مُهجَتِك

ثم يعقب على نصيحته لابنه علي، معتقدا الخير كله إذا حفظ هذه الوصايا وعمل بها، ثم يذكره بقول الأوائل في الرجل الغريب :

يَزِينُ الغريبَ إذَا مَا اغتَرَبْ ثلاثٌ فمنهنَّ حُسنُ الأدَبْ
وثَـــانيـــةٌ حســـن أخلاقِــهِ وثالثـــة اجتناب الرِّيَـــبْ

---

[1] الحوب: الإثم والذنب والظلم. وفي التنزيل: ﴿**وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنّه كان حُوباً كبيراً**﴾. آية رقم2 سورة النساء.

ثم يأتى له بأقوال القدماء ورأيهم في الحياة، ولنقف معه في هذه الخاتمة:

مـــا كُلٌّ مَا فَـــوقَ البَسِيطَة كَافِيًـــا   فـــإِذَا اقتَنَـــعتَ فكُـــلٌّ شَـــيءٍ كَافِـــــي[1]

ويختم وصيته بقوله:

والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم[2] ، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم، والفَطِنُ يقنع بالقليل، ويستدل باليسير، والله سبحانه خليفتي عليك، لا رَبَّ سواه.

وكتب صاحب الرحلة أبو عبد الله محمد التجاني يطلب إدامة الودّ، متبرما من امتداد أَمَدِ البعد قوله[3]:

حُبُّكم في الحَشَا مقيـــم   فما يَرُوم الذي يلـــوم
أما درى العاذِلون جهلا   أنَّ عذاب الهوى نعيم

ثم يقول منها :

إيه نِداءٌ حواه قلبٌ   مازجـــه ودّك الصميم
هل ترتجي للزمان عدلاً   فإنه في النَّوَى ظلوم
قد عَلِم الله من ودادي   ما أنـــــا راع له مُديمُ
وإنْ تَحُلْ بيننا فيافٍ   يقصر عن جوبها الرسيمُ
فإنّ ذكـــــراك كل حين   في الفـــم و القلب لا تَرِيمُ
فقد تدانت لنـــا قلوب   و إن تنـــــاءت لنا جسوم

وكتب إليه صديقه الشاعر الأديب (محمد بن يعيش[4]) و هو غائب في رحلته إلى جنوب البلاد قائلا:

شجاك الربع إذْ ظَعَنَ الحبيبُ   فأنت وإن نشأتَ به غريب
إذا بَعُـــدَ الأحبـــة عـــن محلٍّ   فمـــا عَيْشٌ بساحته يطيب
و كيف يطيب عيشٌ بعد خِلٍّ   نـــأى فجميعنا صَـــبٌّ كئيبُ
بقرب أبـــي محمـــد المُفَـــدَّى   وأَوبَتِهِ السُرُورُ لنـــا يؤوب

[1] هذا البيت لابي الفراس الحمداني.

[2] القول: ليزيد بن الحكم ابن العاص يعظ ابنه بدرا: يا بدر والأمثال يضربها لذي اللب الحكيم.

[3] التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد، رحلة التجاني، تحقيق: ح.ح. عبد الوهاب. المطبعة الرسمية. تونس، 1958م. ص205.

[4] النيفر، محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب. ط1. المطبعة التونسية. 1351هـ.ص 94.

فأجابه التجاني بقوله :

عَسَى الزَّمَنُ الذي ولَّى يؤوب   فَقَد سَئِمَتْ من الشوق القلوبُ
إذا ما قــلت قد قرب اجتماعٌ   قضى بتفرقٍ خَطْبٌ ينوب
وأعظم من تَرَى أسفًا وحزنًا   حبيبٌ قد نأى عنه حبيب

- فالأدباء في هذه الفترة أسلاك متماسكة، ومراسلات و كتابات وأشعار، تملأ الدنيا، و قصائد في المجالس يرددها الأدباء و الشعراء وكأننا في سوق من أسواق العرب الشعرية. وهذا يبين لنا مدى الترابط و التآخي بين أدباء الدولة الحفصية إلا في النادر القليل، و الأشعار التي جاد بها التجاني في رحلته خير دليل على ذلك.

وسأعرض إلى شعر المناسبات الأدبية في العهد الحفصي لنتبين مدى اهتمام الناس بهذه المجالس الأدبية و ما تتركه من أثر ثقافي يغني الساحة الأدبية في المغرب والمشرق. فالمراسلات بين الشعراء دائمة و مستمرة، وهي من عيون الأدب العربي في هذه الفترة. ولو تتبعنا هذه المجالس لجمعنا منها الشعر الكثير[1].

لقد كان سوق الأدب نافقا في بداية عهد الدولة الحفصية وفي عهد أبي زكرياء – الأمير الشاعر[2] فقد كان قصره مفتوحا للشعراء، يتنافسون، في مختلف الفنون الأدبية، و كل يريد إظهار قدرته وبراعته الفنية وقد اجتمع له من كبار الشعراء أربعة سيذكرهم في الأبيات مبينا أفضالهم وفضائلهم على الدولة والأدب فيقول بعد وصية رفيعة المستوى تركها لولي عهده[3] وهي من درر الأدب والسياسة في تربية الملوك وأبنائهم وتخلقهم بهذه الأخلاق العالية في الحكم والسياسة. استهلها بقوله:

"اعلم سددك الله تعالى وأرشدك، وهداك لما يرضيه وأسعدك...".

أما رأيه في شعراء قصره فقد سبق الحديث عنه وقصيدته هي هذه:

---

[1] التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد، رحلة التجاني، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية. تونس، 1958م. ص 28 وما بعدها.

[2] النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص 62. ولد بمراكش سنة 90هــ/595م. وتولى الحكم في الدولة الحفصية عندما استقلت عن الموحدين من سنة 625إلى 647هــ. وقد يطول الحديث عن هذا الأمير الألمعي، العادل، ويهمنا من سيرته الجانب الأدبي.

[3] النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص 63.

ألا إن مضمار القريض لممتد ... به شعراء الغرب أربعة لدُّ
فأما المجلي[1] فهو شاعر جَمَّة ... أتى أولا والناس كلهم بعد
وأما المصلي[2] فهو حبر قضاعة ... بآدابه تزهو الخلافة والمجد
وأما المسلي[3] فالمعاوي أنه ... أتى ثالثا لكن يلين ويشتد
وبعدهم الكومي أقبل تاليا[4] ... وكم جاء سباقا مسومه النَّهد
هم علماء الناس ما عنهم غنىً ... وهم شعراء الملك ما منهم بد

إن الحكم على هذه الأبيات لأمير شاعر، يدل دلالة واضحة على أن الأيام الأولى للدولة الحفصية قد زهت سماؤها بشعراء كبار، ثم توالت على: بجاية، قسنطينة وتونس، القيروان، والمهدية، أدباء وشعراء من الأندلس، سنذكر بعضهم في حديثنا عن الشعر وتطوره في عهد الدولة الحفصية.

- إن هذا الحكم النقدي يكاد يكون صائبا في المفاضلة بين الشعراء الأربعة وإن كان النقاد يبجلون ابن الأبار على غيره، ولكننا إذا نظرنا إلى شاعر (جمة) فإننا نراه يستحق هذه المكانة التي وسمها به الأمير أبو زكرياء.

وللشاعر والكاتب ابن أبي الحسين، المتوفى سنة 671هـ بتونس والذي خدم الدولة الحفصية بقلمه في الكتابة، يقول مخاطبا (عنان بن جابر) وقد هرب إلى الجزائر يدعوه إلى الرجوع إلى تونس فيقول بصفته صديقا وفيا له، وينصحه بهذه الأبيات[5]:

سلوا دمنة بين الغضا والسواجر ... هل اسْتَنَّ فيها واكفاتُ المواطر[6]
ودونكــم يــا للرجــال تحيــة ... يخص بها عنِّي عنان بن جابر
فتى ما دعته زَلَّةٌ فأجابها ... فكيف طوى كشْحًا على نفس غادر
وقد كان بيني يا عنان وبينكم وفي ... بواطن صنَّاها بحفظ الظَّواهر
كل عام كان للجيش وَقْعَةٌ ... نَجُرُّ بها أذيالنا جَرَّ سادِرِ[7]

على كل حَوْرَاء القنان كأنه ... ربيبُ سعالٍ لاح في شكل طائر[8]
يريك على عطفيه مسحة مؤمن ... ويكتم في جنبيه أضغان كافر

---

[1] المجلي: كلمة يراد بها، مراتب الخيل في السباق. وهي أسماء الخيل في الحلبة عشرة: وهو السابق، سمي بذلك لأنه يجلي عن وجه صاحب الكرب.

[2] المصلي: يأتي بعد المجلي، ويسمى قطاة.

[3] المسلي: ثالث: سمي بذلك لأنه يسلي عن صاحبه بعض همه.

[4] التالي: سمي بذلك لأنه تلى المسلي.

[5] عبد الوهاب، حسن حسني، المنتخب المدرسي في الأدب التونسي. المطبعة الأميرية. القاهرة، 1944م. ص 104.

[6] دمنة: آثار الديارالباقية. الغضا: شجرمن الأثل، خشبه صلب واحدته غضاة وأهل الغضى: أهل نجد والمعنى: اسألوا أهل الغضى ومجاري المياه التي نزلت بها الأمطار لتعيد لها الحياة كما كانت. السواجر: السيل. –واكفات:سائلات

[7] السادر: الذي لا يبالي.

[8] حوراء : بيضاء. القنان: الأعالي، قمة الجبل.

قُـــدَّ لها سُمْـــرُ القَنَا فتخالها   كلين القنا ما بين أذن وحافر
نشاوى على خيلٍ نَشَاوَى كأننا   وأسيافنا لم تستفق من تساكر

ويستمر الشاعر يستميل صديقه بالحسنى كي يعود إلى جادة الصواب فيخاطبه بهذه الكلمات المشحونة بالعاطفة الصادقة والخوف على صديقه من الاستمرار في العناد فيقول:

عزيزٌ علينا يا عنانُ ضلالة   حدت بك لا تلوي على زجر زاجر
تبصَّر ولا تحْمِل على النفس غَيَّها   أعيذُك من كـرَّات دهر جواسر
فديتك لا تــَشْرِ الضلالة بالهدى   فديتك لا تشرِ العَمَى بالبصائر
فكم حفظت من ذمة قوس حاجب   وكم مثل أبقى السموأل سائر
كذلك كان الناس يوفون فاتبعوا   سبيل الوفاء كابـرا إثر كابر
ومن تنفع الذكرى تلافَى تلافَهُ   وكشف عن وجهٍ من الرُّشْدِ سافر
هدتك الهوادي يا عنان وأمطرت   ذَرَاكَ الغوادي بين بادٍ وحاضرِ[1]

هذه لمعٌ من الإخوانيات، صِدْقٌ في القول، وصِدْقٌ في الفن ودعوة إلى توحد في الرؤى، وبذل النصيحة للإخوان، فكانت هذه القصيدة (لابن أبي الحسين) سببا في رد الثائر (عنان بن جابر) إلى أهله وذويه بعد أن وقعت جفوة بين قبيلة عنان بن جابر. وأبي زكرياء الأول فخرج عنان إلى الجزائر مغاضبا للدولة الحفصية. فأجاب عنان بن جابر[2]: صديقه الشاعر بن أبي الحسين بهذه الأبيات[3]:

خليليَ عوجَا بين سِلع وحاجرٍ   بعُوجٍ عناجيجٍ نواجٍ ضوامرِ[4]
قِلاصٍ خِماصٍ شازباتٍ عرامسٍ   مـواضٍ نواضٍ مرقلات عوابرِ[5]

طوال الهوادي عند كل تَنُوفَةٍ   هَمَلَعَةِ الأطراف هَـدْلِ المشافرِ[6]
وعوجا على دار لنـا في جنابها   أَفَانينَ لَهْـوٍ دائـمٍ غيـرِ داثـرِ

[1] الهوادي: الطليعة من الخيل أو الإبل-والغوادي: ج غادية، السحابة التي تنشأ غدوة أي رائحة ممطرة.

[2] عنان بن جابر :هو زعيم قبيلة مرداس من بني سليم.

[3] عبد الوهاب، حسن حسني، المنتخب المدرسي في الأدب التونسي. المطبعة الأميرية. القاهرة، 1944م. ص 105.

[4] سلع وحاجر: السلع: الصدع في الجبل.حاجر:منزل للحُجَّاج في البادية. عوج: الناقة الضامرة- العناجيج: الإبل المختارة – النواجي: السريعة في السير، والتي تنجو براكبها.

[5] القلاص: ج. قلوص وهي الصغيرة من الإبل. الخماص: الضوامر، والشوازب: ج.شازبة: الضامرة أيضا.
العرامس: ج.عرمس: الناقة الشديدة الصلبة. وأصل العرمس: القطعة من الجبل فسميت به الناقة على وجه التشبيه.
المواضي : المسرعات في سيرهن وكذلك النواضي. المرقلات: التي ترقل إذا مشيت، والإرقال هو ضرب من السير الحثيث والعوابر: النوق التي تعبر براكبها البر كما تعبر السفن البحر.

[6] طوال الهوادي : طوال الأعناق، التنوفة: المفازة. هملعة الأطراف: سريعة حركة الأطراف ، ويريد يديها ورجليها. هدل المشافر : مسترخيات الشفاه لطولها، وهي صفة تمدح بها الإبل عند العرب.

ياصديقي أعبر بي أحياء سلع وحاجر، فوق نوق ضوامر مسرعات قويات على تحمل القيظ والظمأ منجية لأصحابها في أوقات الشدة، وأعبر على حيِّنا الذي جنَيْنا فيه النعيم ألوانا، لا نخاف عليه النقص ولا التكدير.

ومنها يقول:

ولمَّا رأيتُ الوُّد قد بان وانقضى   دعوتُ ونار الشوق تغزو ضمائري
ألا أيُّها الغادي على متن ضامرٍ   سليم القَرى عَبْلِ الذَرَا غير فاطر[1]
يزفُّ زفيف الخاضباتِ وينثنـــي   كحقف لحتها لافحات الهواجـــر[2]
عليه غلام لا يمل من السُّـــرَى   عليمٌ خبيرٌ بالصُوَى والمخاطـــر[3]

إنه فارس عارف بالفروسية وركوب الخيل متمرس، خبر الحياة، في أمرها السهل والصعب. مجرب للطريق الوعر المملوء بالحجارة، وبكل خطر. وهو كناية عن تمرسه بصعب الحياة وسهلها، وبمرها وحلوها، ثم يبعث بحنينه وأشواقه إلى أحبابه وأهله بتونس فيقول :

تحمل إلى ترشيش عني تحية   كما سلّم الاحباب عند التزاور[4]
بلاد بها نيطت على تمائمي   وفيها نما عقلي ولبيّ وخاطري
وَبَلّغْ لِنَدْبِ أريحيٍّ سَمَيْدَعِ   سلاما يؤدَّى عن عنان بن جابر[5]

ومنها يخاطب ابن أبي الحسين:

بعثت أبا عبد الإله بدائعا   مُحبَّرة منظـومة كـالجواهر

تُذكرني الوُدَّ الذي كان بيننا   وتزعم أني سالٍ غير ذاكر
ليال وأيام نعمنا بوصلها   على كرم منا وحفظ سرائر
وكنا إذا ما الجيش صَفَّت جنوده   ترانا على خيل عتاق ضوامر

---

[1] القَرَى: الظهر، والفاطر: البعير الذي فطر نابه أي طلع.

[2] يزف: يسرع- الخاضبات : الظلمان التي أكلت الربيع فاحمرت سوقها، وهي ذكور النعام، والحقف: ج.أحقف: حمار الوحش. لجتها : كشطت جلدها، لافحات الهواجر: شمس النهار الحارة، ولحا: قشر.

[3] الصوى: الحجارة العالية، واحدتها صوة، المخاطر : موضع الخطر. أي أنه عارف بوعورة الطريق وحزونه- أي أنه عليم بسهل الحياة وصعبها، لأنه فارس متمرس بالحياة.

[4] ترشيش: بلدة وموطن عنان بن جابر./ وقيل: اسم لمدينة بتونس في القديم.

[5] الندب: السريع الإجابة لما يندب إليه. أريحي : مرتاح لفعل الخير. سميدع: من فعل (سَمَدَ)، الشجاع، الشريف الكريم.

عِرابٍ طِرَابٍ صافنات سلاهب خفاف التوالي مدمجاتُ الحوافر[1]
نمد القنا المِرَّان فوق خدودها نقدمها للطعن لا عن تحاسر[2]
نخوض وَغَاهَا والقنا تقرع القنا بكلِّ حسام مشرفـــــيٍّ وبـــاترِ

فالشاعر هنا يتكئ على معاني سابقيه، والمعنى مأخوذ ومستلهما من قول المتنبي[3]. والشاعر رجل ثائر وفارس، لذا نراه يستعين بالقدماء في باب الفخر بالنفس، قائلا :

فلما بدا لي بعض ما كنت أتقي وحانت أمور ضيقات المصادر
وعادت علي الأرض حلقة خاتم بلا ذلة مني سوى طوع آمر
رأيت رجالا من رياح ومالك وعوف ودباب وزغب وهاجر
لهم مرقب دوني وقد كنت قبلهم بسيفي ورمحي في الوغى وعشائري
تبينت حالا لا أطيق احتمالها فَحِدْتُ بنفسي عن عدو وجائر
وسلمت أرض الشرق لا عن مذلة ويممت أرض الغرب لا عن تَخَايُر
إلى بلد لا يعرف الذل أهله كرام العشايا من هلال بن عامر[4]

هؤلاء هم الأبطال، و هم سادة في قومهم، بمواقفهم في الحرب وفي السلم، وفي هذه الحادثة التي أحس فيها عنان بن جابر بشيء من ظلم الأمير أبي زكرياء الحفصي، فخرج مغاضبا للحفصيين قاصدا أهله وعشيرته من قبائل رياح، وعوف في الجزائر.

ثم يفخر بنفسه وبقومه فيقول:

فمن كان منا نال عزا ورفعة ومن حاد دسنا أرضه بالحوافر
فلا لوم يا ذا الجود فيما فعلته فللموت أحلى في الحشا والحناجر
من الذل إن الذل عنا بمعـــزل وما شأننا غير اكتساب المفاخـــــر

---

[1] عراب: خيل كريمة، أو إبل كرائم

[2] ديوان المتنبي: شرح البرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت.لبنان .198 م.ج4، ص421.

[3] وجردا مددنا بين آدانها القنا فبتن خفافا يتبّعن العواليا

ديوان المتنبي،شرح البرقوقي ،دار الكتاب العربي: بيروت، لبنان 1980م. ج4 ص421.

[4] العشي: وقت العشاء. وهي العتمة بين المغرب والعشاء: العشاءان والمعنى: أن من قصدهم الشاعر كرماء، لمن يقصدهم، ولا يتيه ولا يضيع من يقصدهم. (أناس فيهم إباء وقوة ونصرة).

وعنان بن جابر مازال يستلهم معاني المتنبي في كل صغيرة وكبيرة، حتى ليكاد بيت المتنبي يظهر للعيان[1]، في الأبيات التالية:

وفي الأرض أوطان ومأوى ومسرح وفي الناس من يرجى لدفع الضرائر
وسيفي ورمحي واعتزائي وســـابقي ودرعي وقومي كالأسود الهزابر
وعز يصون النفس عن طارق الأذى ويحمي الفتى عن جور باد وحاضر

هذه القصيدة من شعر الإخوانيات بذل كل منهما النصح لصاحبه، حتى تسلم حياته ويسلم له أخوه في هذه الحياة، وينجو من كبوتها أو عثرة الشباب وطيشه، فكان الجواب وكان الرد ملؤه الحكمة والبصيرة النافذة، فإذا ضاقت الدنيا على الإنسان، فالأرض واسعة والخيرون لا يعدَمون في هذه الدنيا .

فجابر قصد أهله في الجزائر، وبين الأهل والإخوان لن يرى الذل ولا الهوان.

لقد لمسنا في هتين القصيدتين : معاني كريمة، ونصائح جليلة، وحكما بالغة، تدل على عمق الصداقة والحب والوفاء بين رجلين شاعرين، عبر كل منهما عن صدق رؤاه، وعمق تجربته في الحياة وفي الفن. فقد استمتعنا بفنهما الرفيع في نقل تجربتيهما وإسداء النصح إلى الآخر، في ثوب أدبي قشيب، فيه من الصور البارعة والأخيلة الجامحة.... ما يجعل المتعة الفنية مضاعفة عند القارئ.

وهذا ما نطلبه في النص ونبحث عنه بين السطور والكلمات علنا نظفر بحكمة بالغة أو بتعبير فني رفيع يملأ النفس ويطربها، فيحصل الأثر الجميل في النفس من متعة فنية، هي غاية من غايات النص الأدبي.

وإذا كان هذان النصان يحملان من جمال الصياغة وقوة التعبير فان الملاحظة التي تبدو ظاهرة هي ميل الشاعرين إلى القاموس الشعري القديم ،حتى نكاد نجزم أن هذا النص قيل في صحراء قاحلة، وأن لا علم للناس بما حوته طبيعة المغرب العربي من آيات الفن والجمال، من بحار ووديان، وجبال وغابات، سهول ومرتفعات.

---

[1] ح.ح. عبد الوهاب، المنتخب، ص 119.

المدح

من غرر قصائد المدح عند ابن الآبار ، قصيدته السينية التي مطلعها[1]

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا

طرح فيها من المعاني التي يمكن أن نوجزها فيما يلي بالرغم من طول القصيدة ومحاولة الشاعر أن يأت بكل ما عنده من حجج وبراهين ليبين عن أحاسيسه وأوجاعه، وقلقه، وخوفه...متفننا في ذلك مستندا على ثقافته وحسن أدبه وقوة حافظته وقوة بيانه وحسن ديباجته مختفيا تارة تحت لون من ألوان الفن أو قناع من أقنعته، وظاهرا للعيان يجهر برغبته وأمنيته في إنقاذ وطنه ومدينته وبذلك يكون الشاعر قد باح بما في نفسه من حبه الكبير وسعيه المستمر في شحذ همم المسلمين في جميع أنحاء العالم الإسلامي لإنقاذ الأندلس وإنقاذ المسلمين والإسلام. ذلك هو أمله ورجاؤه،وإن لم يتحقق رأيه ومطلبه فعزاؤه فيما قال من شعر وما عبر به في هذه القصيدة من صدق المشاعر، وإسداء النصيحة داعيا الجماعات والأفراد إلى نصرة الإسلام والمسلمين وحسبه ذلك؟!

وقد حاولت الإحاطة بهذه المعاني الراقية التي حوتها هذه القصيدة في معناها ومبناها وأن أحصرها فيما يلي:

1)1-2 (دعوة صريخ)

2)3-7 (توالي الخطوب)

3)8-19 (تبدل حال المسلمين: من العز إلى الهوان ومن الإيمان إلى الكفر)

4)20-23 (غلبة الطاغية على بلنسية)

5)24-34 (دعوة لإحياء فكرة الجهاد، و تجبيش الجيوش) أو هي دعوة إلى: تبديد الكفر ولإحلال الإيمان

6)35-60 (مدح لأبي زكرياء وآل حفص الأخيار، حماة الإسلام)

7)60-64 (كن لها منقذا ؟!... يا أيها الملك)

8)64- 67 (تَرقبٌ وأملٌ في النصر)

لقد كان من حسن الحظ ابن الأبار في مسعاه إلى تلك الدولة الحفصية بتونس أن استجاب له إخوانه في الضفة الأخرى وهيأوا له حملة بحرية وصلت إلى الأندلس ولكن بعد سقوط (بلنسية) غير أنها حملة

---

[1] ابن الآبار، الديوان، تحقيق:عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر،تونس،1985م،ص395(وهي من البسيط) ولم يلحق هذه القصيدة شاعر لا في معناها ولا في مبناها.

توجهت لنصرة المسلمين وذلك بفضل وساطة ابن الأبار لدى الحفصيين ومسعاه الناجح في شحذ الهمم ومؤازرة أهل المغرب لإخوانهم في الأندلس.

ومنذ بداية هذه الحادثة، بدأ نجم الشاعر يسطع في سماء الأندلس والمغرب، فقد قصد بجاية وأقام بها مدة ثم انتقل إلى تونس حيث أصبح كاتبا لعلامة السلطان الحفصي (أبي زكرياء). وأصبحت سينية ابن الآبار من غرر الشعر العربي ،عارضه الكثير من الشعراء ، فلم يلحقوا،بمعانيها الرائعة وأفكارها الصائبة وبقيت حتى اليوم تنعت بسينية ابن الآبار لا يماثلها في جمال الأسلوب ورونقه وحسن تصويره،غير سينية **البحتري** في وصف إيوان كسرى.

وله من قصيدة أخرى يمدح فيها[1] أبا زكرياء ويعارض فيها قصيدة الصابوني (يشيد بخصال الحق)

إمام أجار الحقَ لمَّا استجاره	وقد رسخ الإذعان للغَمْطِ والغَمْصِ[2]
وهب هبـــوب المشرفيِّ مصمما	لتأمين ما يخشى من الوَقْم والوَقْص[3]

الشجاعة والإقدام[4]:

بنو الكر والإقدام شبوا عليهما	وشابوا فمن ليثٍ هَصُورٍ ومن حَفْصِ
سراجُ الهدى الوهَّاجُ ألفى شعاعه	على من نمى والفرع من طينة الأصِّ[5]

دولة الأدب والعلم[6]: [الطويل]

أيا دولة الآداب والعلم سامحي	بليغا إذا أفضى لتلك الحلى أفصى
فكل تمام ليـــس يأمن نقصه	وهـــذا تمام باهر يَـــأْمَنُ النقصـــا

مدح دولة (الإسلام)[7]:

حريصا على الدين الحنيف ونصره	وليس على الدنيا بمستبطن حرصا
برايته الحمـــراء يصطلـــم العدى	لملتِـــه البيضـــاء غضبـــانَ مقتصًّا

---

[1] ابن الأبار، الديوان ، تحقيق : د.عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص 332.

[2] الغمط: الازدراء والتحقير، والجحود./ الغمص: مثله، والمعنى : إمام يجير المظلومين وقد انتشر نكران النعمة وحجودها

[3] الوقم : القهر. الوقص: العيب.

[4] الأبار، الديوان ، تحقيق : د.عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص ص(335، 336).

[5] الأصِّ: الأصل.

[6] م. ن، ص342.

[7] ابن الأبار، الديوان ، تحقيق : د.عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص 342.

وقال ابن الأبار يشيد ببيعة إشبيلية وسبتة[1]

لأندلس البشرى وحضرتها "حِمْصِ"	لقد كُسيَت للأَمن فضفاضةُ القُمصِ

وقال في بيعة سبتة:

قضى صادق الآثار في أمرك الأرض	بأن تملك الدنيا وأن تَرِثَ الأرضا
وأجرى إلى إسعادك المـــاء والثرَّى	فدونك بسطا للبسيطيْن أو قبضَا
كأنَّـــك على الآفـــاق نـــذرا بوقفهـــا	عليك فبـــعضٌ في الوفاء تلا بعضا
أطـــاعتـــك إفـــريقيـــة فكـــفـــيتَهـــا	عصاةً على إتلافها ائتلفوا هُضَّا[2]
ولمـــا أجَبْتَ النـــاصـــرِيةَ نـــاصرًا	وجبت إلى البطحاء بيداءها ركضا[3]
دعتـــك تلمســـان فلـــبيت صـــوتَهـــا	مجيرا وناب الجوْرِ يوسعهـــا عضا

ثم يستمر الشاعر في ذكر بيعات المدن والبلدان فيقول[4]:

بفَتْح "رباطِ الفَتْح" ترتبط المنى	ويحظى بها من بات نار الوغى يحظى
وأَجدر "بِفَاسٍ" أن تراجع رشدها	وقد رَحَضَتْ "مَرَّاكشٌ" غيها رحضا[5]
تشيعت الأمصار فيك فزحزحت	عُـــدَاتَكَ عن أعلى منابرهـــا رمضـــا[6]
مناقبه غنى القريض بوصفهـــا	وهيهـــات جلَّت أن يوفيهـــا قرضـــا

ويشيد الشاعر ابن الأبار بمشايعة دعوة العباسيين دون سواهم متكئا على معاني سابقيه كالفرزدق وجرير ومقتبسا قول لبيد:

"وما المال والأهلون إلا ودائع	ولابد يوما أن ترد الودائع"

فيقول[7]:

---

[1] ابن الأبار، الديوان ، تحقيق : د.عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص 343.

[2] هضا: انكسر، والمعنى ائتلفوا مذعنين طائعين.

[3] الناصرية: بجاية. البطحاء: اسم لقابس: وقد دخلها أبو زكريا، بعد انتقاضها.

[4] م. ن، ص 348.

[5] رحض: غسل، أي مراكش قد أقلعت عن غيها، وجاءت مبايعة لدولة الحفصيين.

[6] رمض: قتل وإحراق

[7] [7] ابن الأبار، الديوان ، تحقيق : د.عبد السلام الهراس، الدار التونسية للنشر والتوزيع، ص359.

تناضــل عن دين الهــدى وتدافع — كأنك في الهيجا أبوك (مدافع)
وتثبت يوم الروع في حومة الوغى — كأنك "ثهلانٌ" بها أو "مُتالــع"
وتغزو العــدى في عقرها متتابعا — وحسبك غزو في العدى مُتَتَابع
فتلفي ديــار المشركين ولم تَزَلْ — أَواهلَ قد أصبحن وهي بلاقع
وما هم ولا البلدان إلا ودائع يمينا — وعمــا قريبٍ تُستَرَدُ الودائــع
بمـــا قدمت من حســن لــقد — حَمَيْتَ ذَمارَ الدين والدينُ ضائعُ
وقمت بأعبــاء الإمــارة ناهضــا — تُجَــالِدُ عنها من عتــا وتقارع
فلا صامت إلا بشكرك ناطق — ولا خــالع إلا لأمــرك خانــع
عُنيتَ بما يُعنى به كــل خاشــع — فــللّه بــرٌّ منــك لله خــاشــع
صلاة وصوم واحتساب وخشية — وعدل وإحسان لها الغزو سابع

تأمل قول الشاعر، فحيثما ذهب به الحديث، لابد أنه راجع إلى الثورة والجهاد التي يرى فيها سبيل الخلاص.

وأنــك أُرْيٌّ[1] للمحالف نافــع — وأنك شَرْيٌّ[2] للمخالف ناقع
فأعينهم بعد الهجوع سواهد — وأعيننا بعد السهاد هواجــع

هذا أمله في تبدل حال المسلمين ويمدح هذا الأمير الذي كان حربا على الكفر في هذا الثغر من أرض الأندلس لا يَكَلُ ولا يَجْفُلُ...فيقول فيه قبل سقوط بلنسية:

تحفُّ بزيَّــان الأميــر كــأنّه — فؤاد وهــم فوق الفؤاد أضالع
أمير سموه بالجميــل لأنــه — جميل حميد كل ما هــو صانع
بإمرته ازدان الزمان وأصبحت — مُودَّعة الآمــال وَهْيَ رواجــع
ثغورُ ثغورِ المسلمين بواســمٌ — به ورقــاب المشركين خواضع
ودُمْ رحمة للعالمين وعصمــةً — عدُّوك مصروع وبأسك صارع[3]

هذه هي قيم المادحين والممدوحين حماية للثغور الإسلامية والذَّود عن الشرف، بتلك الخصال وحدها يمدح الأمراء ويحثهم على ذلك. لقد سخر ابن الأبار شعره، وفنه في الكتابة العامة كرئيس لديوان الكتاب في تونس وفي بجايةخدمة لهذه الدولة الفتية بكلمته الطنانة، وبشعره الرقيق، ونثره الذي لا يضاهيه إلا نثر الكتاب الكبار من أمثال القاضي الفاضل وابن العميد، وبعده ابن خلدون.

---

[1] أريٌ: عسل.

[2] شري: حنظل.

[3] م. ن، ص361.

فكتب في الاعتذاريات وفي الإخوانيات يمجد القيم الإسلامية والروح الوحدوية بين المسلمين معتقدا اعتقادا راسخاأن طريق النصر لن يكون إلا عبر الإخلاص لهذه الأمة في سرائها وضرائها، بالذود عن حياض الإسلام، وإعداد العدة للمتربصين بالمسلمين في المشرق والمغرب.

وقال حازم القرطاجني يمدح (أبا زكرياء) معددا محامده وأفضاله على المسلمين في المغرب والأندلس قصيدة منها[1]:

منى النفس تدني منكم والنَّوى تُقصي ... فكم ذا يطيع الدهر فيكم! وكم يَعصي!
يقرِّب في حال التنائي مزاركم ... فيدنـــو وينـــأى بالخيـــال وبالشخص
وكم رُمْت أُحصي من نواكم فلم أُطِقْ ... خُطُوبا، خطايا الدهر فيهن لا أُحْصِي
أرادت وحيدا في الملوك فلم تجد ... كيحيى ابن عبد الواحد بن أبي حفص
لآل أبـــي حفص مـــآثـــرُ لـــم تـــكـــن ... لتُحْصِي بطول البحث عنها ولا الفحص
بـــه أصبـــح المهديُّ قـــد شُـــدَّ أَزْرُهُ ... كما شـــدَّ أَزْر المصطفى بأبي حفص
وكـــم فئةٍ ضلَّت هَديتَ إليهـــمْ ... هـــواديَ خيلٍ ذَلَّلَت كـــل مستعص!
عـــسى الله أن ينتـــاش أندلســـا بهـــا ... ويأخذ غيَّها للهدى أخذ مُقْتَصِّ
فيُضْحِي بها شرق الجزيرة مشرقا ... وتطلع أنوار البشائر في حمص[2]
أمير الهدى من يدنو منك فإنَّه ... بقربك من صرف الحوادث قد أُقصي
إليكم سَـــرَت بي أَيْنُقٌ خَمص السُّـــرى ... وجوْبُ الفلا أنضاءها أيَّما خمص[3]
قِـــلاصٌ كخيطانٍ من النبـــع لـــم تـــزل ... لهـــا البيد في هَصْرٍ عنيف وفي رهص
تَشَكَّى السُّرى والشهبُ للصبح تشتكي ... سُرَى الغُمضِ عنها وهي:كالأعين الغُمْص[4]

ويستمر الشاعر في ذكر مناقبهم ومآثرهم ويزهو بنفسه وهو يعارض قصيدة الصابوني[5]:

فقـــال لها الإحسان حُولِي وللَّتي ... غدت وهي في الأمداح ضرَّتها غَصِّي[6]
شفاء لمن والاكم وهي في العِدَى ... سَقَامٌ مُمِض القَرْح مُستأَلِم القَرصِ

---

[1] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م. ص146. (من البسيط).

[2] حمص: اسم عدة مواقع منها: حمص مدينة بسوريا تقع على نهر العاصي ...وقد سميت بهذا الاسم مدينة أندلسية

[3] خمص والمخمصة: الجوع. الأنضاء: القليل من الماء والتعب. سرت بي أينقي تقصدكم في ليال لم تعرف فيها غمض جفن. تقطع الفيافي وقد نالنا التعب وقلة الماء وأخذ منا الجوع والعياء كل مأخذ.

[4] سُرى الغمض: أي ما اكتحلت عينه غمضا أي نوما. أو ما غمض لي جفن

[5] بيت الصابوني : شخصت لعزم البين فاخترمت شخصي زيادة وجد تَنْهَكُ الجسمَ بالنَّغص

[6] غصِّي: الغص : احتباس الماء في الحلق.

بقـــــاؤك للإســــــلام أعظم نعمة من الله قد جلت عن الغَمْطِ والغَمْصِ
فــلا أمضت الأيـــام مـــا شئت قربه ولا قَرَّبَـــَتْ ما أنتَ مُنْءٍ لـــه مُقْصِ
فمـــا تمطـــُلُ الدنيا بديْـــن من المُـــنَى سعـــودك تستـــقضيـــه منها فتَسْتَقْصِي

إنه في هذه "الصادية" يحلق عاليا بمعانيه الراقية مبديا شيئا من العبقرية والتفوق على قصيدة الصابوني بما حبا قصيدته من جليل المعاني والصور الرائقة والأساليب البارعة والمعاني الصائبة. فنافس بها شعراء عصره وخلد مآثر بني حفص في رائعته هذه وما أكثر روائع القرطاجني في أمراء وسلاطين الدولة الحفصية. فقد أوقف أغلب شعره على بني حفص يمجدهم لأنهم حماة الإسلام والأوطان أو كان يأمل الشاعر فقال فيهم أجمل القول وأحسنه ولم يمدحهم إلا بما فيهم أو بما يؤمن به الشاعر من نخوة وعزة ونصرة وكرامة وإيمان فكان يشبههم بآل الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وبصحابته. وبذلك فهو يدفعهم إلى المزيد من البذل والعطاء لهذه الأمة التي بدأت الأخطار تحدق بثغورها وأطرافها من المشرق إلى المغرب.

ثم يعرض إلى معاني الذود عن الإسلام والأوطان فيقول[1]:

إلى ملك تُحيي المنى نفحاته وتُردِي العِـــدى هَبَّـــاته وعَزائمُه
أمير الهدى نجل الهداة الذي به غَـــدَا الدين مُرساة طوالا دعائمه
سلالة عبد الواحد الأوحد الذي أبَّرت على غرٍّ الغوادي مكارمُه
سليلُ أبي حفصٍ سِراجِ الهدى الذي به ظُلَمُ الأرض انجلت ومظالمه
هُمَامٌ إذا ما الخَطْبٌ أَعْضَل داؤه له غدَا بالحسام المنتضى وهو حاسمه
يوم بأس مشرق الجو مظلم ويوم سماح مشمس الأفق غائمه
ببيت تتـــــاغي خيـــله بصهيلهـــا صرير العوالي فـــوقها وتتـــاغمه
وتقرأ في هامِ العِدَى أَسْطُرَ الرَّدى ظُبَاهُ وفي طيِّ الضلوع لَهَاذِمُه[2]

ويجهد في رعي الرعايا جفونَه سُهَـــادًا وكـــل نائم الجفن ناعمُه
فما واصَلَتْ نومًا غِرَاراً جُفُونُه ولا بَـــرِحَتْ منه الجفونُ تصارمه
يُزير الأعادي كلَّ جيشٍ أمامه إذا ســـار نَصْرُ الله والفتح قادمُه

---

[1] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م ، ص 200./ القرطاجني، أبو الحسن حازم، الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1964م، ص 109.

[2] اللهذم: ج. لهاذم وهو الطرف الحاد في الرمح.

وجُرْداً أثارتهـا العزائـم فانبرت   كخيط نعام قد أثيرت جواثمُه[1]
نرى كلَّ معقـود أعـالي عِـذَارِه   بمُستشرف الهادي أَسيلٍ ملاطمُه

فالشاعر يمجد فيهم الحرص والسهر الدائم على حفظ مصالح الناس ويقول من نفس القصيدة: فليلهم صلاة وتعبد ونهارهم مجاهدة واصطبار؟!

ولَـوْ لـم تُطهِّـر نفسُه بمتابها   مآثِمـه قَـامَت عـليـه مـآتِمُه
إذا مـا قَبيلٌ لـم تُطِعْـك قـلوبُه   أطَاعَتْ فلم تَعْصِ السيوفَ جماجمُه
ولو لم تَذُدْ بالسيف عن حَرَمِ الهدى   أُبِيـحَ حِمـاه واسْتُـحِلَتْ محـارمه
فأنت الذي يُحيي الهداية أَمْرُهُ   ويصرم أعمار الضلالة صارمُه
وتروي ظُبـاه كل هامة منزل   من الثغر تستسقي السيوف طواسمه[2]

ويخلص الشاعر إلى رضى النفس عن آل حفص الذين نذروا أنفسهم حماة دعاة منافحين عن الناس ومدافعين عن الدين، يؤرقهم ذلك ويجعلهم مجندين لا يعرفون طعم النوم حتى يعود الأمن والأمان للناس والأوطان فيقول:

وتَحْنُو على تلك الربُّوع كما حَنَتْ   عـلى رَبْـعِ أَظْـآرُه ورَوائمُـه
إلى مثل هذا اليوم سـرت لياليا   كمـا اسودَّ من ليل الشبيبة فَاحِمه
فـدام لكـم دَرُّ الفتـوح ودُرُّهـا   على سِلْكِكُمْ أيدي الليالي نَواظِمه
ولازال مُلكٌ أنتَ طَـالـعُ سعـدِهِ   عن اليُمْنِ والإقبال يَفْتَرُ بَاسِمه

ويستمر حازم يشحذ همم أمراء بني حفص للدفاع عن الإسلام في الأندلس ورد النصارى عنها ويمجد تلك القيم التي يراها هي وحدها كفيلة برد الاعتبار، متمنيا دوام هذا الملك الذي به يحمى الدين وتصان الأوطان. ويقول في قصيدة أخرى يعزف على نفس الوتر[3]:

يا إماما أصبح الدين   إليه وهـو راكـن
والذي حزب الهدى لا   ق بـه للفتح لاقـن

---

[1] جردا: خيلا.

[2] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 201.
طَسَمَ، الشيء طمَسَه ومحاه، والطَّسَم الظلام، والغبرة.

[3] القرطاجني، أبو الحسن حازم، الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1964م، ص 201. (مجزوء الرمل)

مَنْ لمَلْـكٍ لـم يَـدِنْ   فهو لعليـائك دائن
فـلـك الأيــــام أمٍ   وبــــك الإسلام آمن
فبلاد الغرب وعـد ال   فتـح منهـا لك آين
بَيْعَـةٌ قـد عقدوهـا   لك بالطير الأيامن
فذراها بـك هـاد   في ظلال الأمن هادن
فـي حِمَى مَلْكٍ مطاعٍ   عن حِمَى الدِّينِ مُطاعِن
فـمـنى أنـدلسٍ قـد   نُثِلَتْ عنهـا الكنـائن
تَرَكـت آمـالهـم إذْ   أصبحت وهي سواكن
فادَّرِكـــها بالــجياد   اللاحقيَّات الصوافن[1]
فمغاني غربهـا قـد   أوحشت منها المساكن
ومغاني الشرق داجٍ   أُفْقُهَا بالنقع داجن[2]
أَصبَحَتْ وهي مــواطٍ   للعِدى تلك المواطن
يـا ربوعا أقفرت من   ناطق فيها وقاطن
كم حديث عن قديمٍ   مِنْكَ شاجٍ لِيَ شاجِن!
آهٍ مِن رشـدِ مفاتٍ   فيك عن غيّ مفاتن
ولحـاء بالمـواضي   جالب حَيْنًا لحائن
علَّ يَحيَى مِنك يُحيي   ما أمـاتته الضغائنْ
بخميسٍ ضـاقت الآ   فاق عـنه والأماكنْ
لا تـزل محفـوفـةً   منك البـرايا بالمآمنْ
مِن أمـامٍ ووراءٍ   وشِمـــالٍ ومَيـَامِنْ
فـتُـرَوَّى مـن أوامٍ   وتُـرَى وهي أوامنْ

هذا هو الصوت الذي يحرك الملوك ويحثها على بذل المزيد وكانت خواتم قصائده كاستهلاله مبينة للمقصد دالة عليه وهو إذ يختم رأيه في آخر بيت فإنما يحكم الإغلاق والقفل على هذه المعاني واللآليء التي لا يرضى لها إلا أن تسكن القلوب فيبقى أثرها في النفس عالقا.

---

[1] الصوافن: الجياد الكريمة، وهي التي تقف على ثلاث قوائم، وطرف حافر الرابعة، كناية عن السرعة.

[2] النقعك الغبار، الدجن: مظلم قاتم.

ولعل الشاعر حازما كان يراهن على فن المدح لتحقيق غايته في نجدة الأندلس وإحياء فكرة الجهاد، والاتحاد، للذود عن حياض الإسلام. فلم يعد للشاعر طريق آخر يدعو إلى سلكه...فقد فقدت كل الوسائل ولا محرك لها إلا هذه الصرخات التي أرسلها الشاعر، لعل الناس يستفيقون من رقدتهم؟!

ومن شعره في مدح آل حفص قوله[1]:

خلافة الله صارت من إمام هدى   إلى إمام هدى بالعدل أحيانا
جاءت إليه بميقات وجاء لـــــها   كما لميقاته جاء ابن عمرانا[2]

ثم يصفه بالعدل وبمصارعة الأعداء فيقول:

علما وعدلا وبأسا في العدى وندى   سحًّا، وصفحا عن الجاني وغفرانا[3]
ومنصبا عُمَرِيًّا قد سمت شرفا   به عــدي إلى عليــاء عدنـــانـــا
خليفة الله دم مستبشرا أبدا   بالنصر والفتح مسرورا وجــذلانا

ويستمر الشاعر يمجد هذه الخصال عند الحفصيين ويسمو بهم إلى الدرجات العلى قائلا:

لك الحمد بعد الحمد لله واجب   فمِن عنده تُرجَى ومنكَ المَواهب
أمطلع أنوار الهدايــة بعدمـــا   توارى سناها وادْلَهَمَتْ غياهِب
سَمِيُّ رسول الله لازلت ساميا   ولا زِلْتَ منصورا على من تحارب
ولا زال أمر الله أمرك تعتلي   له درجات في العلا ومراتب

ويقول في المعنى نفسه [4] (يمدح المستنصر الحفصي):

دامت لك البشرى ودامت للورى   بكمُ ودُمْتَ على العُداةِ مُظَفَّرَا
ملئت صدورهم هوى وأمانيًا   ورأوا حميدا وِرْدَهُمْ والمصدرا

ورَجوا لأندلسٍ وأهليها بكم   نصرا يدوم على الزمان مُؤزرا
فعد الجزيرةَ نُصرةً تَقْرِي بها   أشلاء طاغية النصارى الأنسُرا
أنت الحَقِيقُ بأن تُلبي صَوتَها   وبأن تريق لنصرها كأس الكرى

---

[1] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 212.

[2] مقتبس من سورة آل عمران: ﴿**إنّ الله اصطفىَ ءادم ونوحًا وءال إبراهيمَ وءال عِمْرَانَ على العالمين**﴾ الآية 33. ومن قوله تعالى : ﴿**ولما جاء موسى لميقاتنا وكلَّمَه ربُّهُ قال ربِّ أرني انظر إليك قال لن تراني...** ﴾ سورة الأعراف، آية 143.

[3] سحًّا: تتابعاً، ومنه قولهم:« استنشدته قصيدة فسحّها علي سحًّا» أي نشدها في تتابع.

[4] م. ن، ص ص(130، 131).

وبأن تفوق مجيب صوت زِبَطْرَةٍ[1] ويفوق عَصْرُ هُداكَ تِلكَ الأعْصُرا
بشِّر بني حفص وأندلسٍ بما سيعيد منها عامرا ما أقفرا
قــد بذَّ إدراكــه ثــأر الهدى سيفا، وفي عزماته الإسْكَنْدَرا
سِبْطُ الرِّضى الهادي أبي حفص الذي أضحى به صبح الهداية مسفرا[2]
نجل الإمام أبي محمد الذي أضحى به روض المكارم مزهرا
مَلكٌ إذا يَغزو العِدى مَلأَ المَلاَ سُمْرًا مُثَقَفَةً، وجُرْدًا ضُمَرًّا
عُرُبًا وعُجبا ما عجمتْ بنبعهم غرب العدى إلا انثنى مُتَكَسِّرَا
ملكٌ نَمَتْهُ أَرُومــةٌ حفصية طابت فروعا حين طابت عُنْصرا[3]

ويستمر الشاعر في حشد تلك الصفات المتتالية الممجدة لهم. ولعل الشاعر يرى من هذه الدولة نصرا قريبا مؤزرا في نجدة الأندلس التي سلبت منها مدن وحصون وقلاع...كانت سدا أمام الشرك في الغرب الإسلامي...ثم هوت وهوى معها كل مجد بناه المسلمون. فيتوجه الشاعر إلى المستنصر الحفصي يحثه على النصر والنصرة بقوله[4]:

مَدَحتْك أفعالٌ زَكَتْ ومكارمٌ فُقْنَ الكلامَ منظمــاَ ومُفَقــرَا
خَطبتْك أبكارُ الفُتوحِ وكم لها من خاطب وَلَتْه عطفًا أَزْوَرَا
فلِمَنْ أطاعك أن ينامَ مؤمنا ولمن عصاكم أن يَخافَ ويَحْذَرَا
يزداد مُلْكُــك كــلَّ يوم بَسطةً ويطاول الدنيا مَدًى والأَدْهُرا

ويقول في المستنصر الحفصي[5] [الطويل]

أصاخت لداعي هديِّكم أنفس الورى وأُشْعِرَتِ الإخلاص في السِّر والجهر

---

[1] زبطرة: هي المدينة التي استصرخت الخليفة المعتصم على لسان امرأة بقولها:" وا معتصماه! " فأنجدها وحررها. وقد مدحه أبو تمام في هذه المعركة بقوله: السيف أصدق أنباءا من الكتب في حده الحد بين الجِد واللَّعب

[2] السِّبْطُ: ج.أسباط.ولد الولد. ويغلب ولد البنت، مقابل الحفيد، الذي هو ولد الإبن. وهو مشتق من السَّبَطِ وهو الشجرة.

[3] أرومة: الأصل.

[4] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 136.

[5] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 136.

قَضَى اللهُ إذ ولاَّك أَمرَ عباده بتخليد هذا الأمر فيكم إلى الحشرِ
فقد ضَمِنَتْ تمكين ما اللهُ مُرتضٍ من الدِّين باستخلافكم عدة الذكر
إمامَ الهدى دُمْ للديانة والدُّنى ولا زلت محفوفا بأنْجُمِك الزُّهر
ولا برحتْ غُرُّ الفتـــوح بسعــدكم تــوالى اتِّساقــًا مثل مُنْتَظِــمِ الــدُّرّ

فحازم هنا لا يمدح الشخص بقدر ما يمدح الخصال الإسلامية الثابتة التي ترفع الشخص إلى أعلى مكانة عند الناس، وتلك هي أمنية الشاعر في ممدوحه. وهو الشاعر والناقد العارف بغرض المدح والمادحين فقد قنن لتلك الأغراض وأسس لها في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء[1].

ومن روائع حازم قصيدته "الكافية" التي يشيد فيها بالحفصيين وبملكهم المستنصر حتى نافسها الشعراء وجروا مجرى حازم علهم يظفروا بجميل معناها وحسن مبناها.

يقول حازم[2]: [الكامل]

لم تدر إذ سألتك ما أسلاكها أبكتْ أسىً أم قطعت أسلاكها
ملك الهدى يحيى الذي فاق الحيا بمواهبٍ والتْ يدايَ دراكها
صَادَ القُلوبَ وقادها حباً وقد جَعَلَ الهِبَاتِ قيودَها وشِبَاكها
لا زال صنعُ الله في مستقبلٍ يُنسيك كلَّ صنيعة أولاكَهَا
ما قلتَ للأيامِ: هاتِ تقاضياً عِدَةَ المُنَى إلاَّ وقالتْ: هاكَها

أي سحرٍ ينفثه حازم في هذه الألفاظ فيستقيم أمرها وتسهل معانيها وترتقي في نظامٍ فنيٍ أخاذ لا يملك القارئ إلا الإذعان لحسن بيانه وحسن صياغته، وحسن بداية الحديث وحسن الختام.

فالله يمدهم بعونه والأيام مواتية لهم وما ذلك إلا لأنهم أهل لذلك قولا وعملا حتى غدا ملكهم يزهو على جميع الدول والممالك.

ويهنئ المستنصر بعيد الأضحى ويضفي عليه هذه الشمائل الإسلامية بقوله[3]:

---

[1] القرطاجني ،أبي الحسن حازم، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، ت684هـ،دار الكتب الشرقية، تونس 1966م. ص 349. قوله: «معلم دال على طرق العلم بما يجب اعتماده في كل غرض من أغراض الشعر...»

[2] القرطاجني، أبو الحسن حازم، الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1964م ، ص 178.

[3] القرطاجني، أبو الحسن حازم، الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1964م ، ص41.

يا ناصر الدين الذي آراؤه في نصرة الإسلام توري أزندا[1]
إن المؤيد دينه بك قد قضى لك أن تكـــون مظفـــرا ومؤيـــدا

وهذا النصر الذي يباركه الشاعر ويفاخر به، ويدعو إلى تحقيقه في كل آن وفي مكان من أرض الإسلام. وعندما تصل بيعة المدن والأقطار يقف الشاعر مؤيدا ومباركا ذلك بقوله[2]:

دعوتَ فلبَّى أمرَك الشرق والغرب وأصغت لداعي هديك العُجْمُ والعُربُ
وجاءت ملوك الأرض نحوك خُضَّعا يقـــودهمُ رُعبٌ ويحـــدو بهم رَغْـــبُ
كـــأنَّ جميعَ الخَلْـــقِ جســـمٌ مدبَّر ورأيـــــك فيه الروحُ والنفسُ والقلبُ

وكلما انقادت مدينة لبني حفص سجل شعراء الدولة ذلك في أشعارهم ملحين في تحقيق المزيد من النصر والإعانة للمسلمين، في مختلف المناطق وبخاصة في الأندلس، وفي بلنسية خاصة التي أخذها النصارى واستنجد أهلها بالحفصيين فأنجدوهم بأسطول بحري، ولكن الأمر قد فات!

ومن الشعراء المجيدين في عهد الحفصيين الشاعر الرحوي الذي كلن شاهدا على عصره بحق.ومن مليح المدح عنده قوله[3]:

أجَابَكَ مشرقٌ إذ دعوتَ ومغرب فمكةُ هَشَتْ للقاء ويَثْرِبُ
وناداك مصر والعراق وشامه بِدَارا، فصدع الدّين عندك يُشْعَبُ
وحيَّتك أو كادت تحيي منابر عليها دعاة الحق باسمك تخْطُبُ
فسارع منَّا كل دانٍ وشاسعٍ إلى طاعة من طاعة الله تُحْسَبُ
وتاقت لك الأرواح حبًا ورغبة وأنت على الآمال تنأى وتقرب
ففي البلدة البيضاء لِبَاكٍ معشرٌ وأنت بأفق الناصرية ترقبُ
ووافتك من ذات النخيلِ وُفودها فلقاهم أهل لديك ومَرحَبُ
ولم تتلكأ عن إباءٍ بجايةٌ ولكن يُرَاضُ الصعبُ ثَمَتَ يُركب
وما تونس إلا كمصرٍ مروَّع وفي حرمٍ أمست لديك تَسْرب

في هذه الأبيات يشيد أبو القاسم الرحوي بدعوة أبي الحسن المريني ويمدحه بانقياد المدن والدول تباعاً، لأن في دعوته نصرا للمسلمين ولأوطانهم، لذلك يرى الشاعر أن تأييد المريني في استيلائه على تونس. هو خلاص من بعض الهرج والقلاقل التي كانت تعرفها البلاد. ولكن سرعان ما يبدل الشاعر رأيه في

---

[1] أزندا: ج.زند، ما تقدح به النار

[2] م. ن، ص 87.

[3] النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص 96. قالها بمناسبة دخول أبي الحسن المريني إلى تونس 747هـــ متوسما فيه نصرة الإسلام والمسلمين في المغرب والأندلس.

أحوال تونس وكيف أصبح حال الناس، من ظلم وجور لا يطاق، فيصور ذلك في قصيدته الرائعة التي أوردناها في موضوع الحنين إلى الأوطان.

ويخلص إلى مدح أبي الحسن المريني ويشيد بخصاله التي تميز بها كالعلم والعدل والزهد والنسك والتقوى فيقول[1]:

وجيش من الإحسان والعدل والتُّقى	وذاك لعَمْرُ الله أَغْلَى وأغلبُ
شرعت من الإحسان فينا شريعة	فتساوى بها ناءٍ ومَنْ يَتَقربُ
وأَسْميتَ أهلَ النُّسْكِ إذ كنت منهم	فمنك أخو التقوى قريبٌ مقرَّبُ
وأعليت قدر العلم إذ كنت عالما	ففيه وفي طلابه لك مَأْربُ
فمدحك محتومٌ على كل قائلٍ	ومن ذا الذي يُحْصِي الرِّمالَ ويَحْسِبُ
فلله كم تُعْطي وتُمْطي وتَجْتَبي	فللبحر من كفيك قد صحَّ مَنْسَبُ
فلا بَرحتَ كفّاك في الأرض مُزْنَةٌ	يطيب بها للخلق مَرْعَى ومَشْربُ[2]
ولا زِلتَ في علياءِ مجدك راقيا	وشانِئَك المدحوضُ يَبكي ويَنْكَبُ
توافي على أقصى أمانيك آمِنًا	فلا بَرٌّ يُسْتَعْصَى ولا يَتعصَّب

هذه الخصال هي التي امتدحها الشاعر، وتمنى أن يتخلق بها (أبو الحسن المريني)، وقد كان يتفرس فيه الخير والعدل ولذلك ناصره، وأيده بشعره ولأنه تأكد من حسن نيته وحركته من أجل جمع شمل المسلمين. كان له هذا الموقف!

---

[1] النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص 100.

[2] مزنة : سحابة ممطرة.

الوصف:

إذا كان غرض الوصف من الأغراض الثانوية في الشعر العربي القديم، ولم يعط هذه الأهمية الكبرى إلا في القرون اللاحقة وخاصة في الأندلس والمغرب. إذ أصبح هذا اللون الأدبي من الأغراض الهامة التي يتنافس من أجلها الشعراء، حتى عقدوا الشهرة وبايعوا لأساطين هذا الفن الرقيق فبرز في الأندلس والمغرب شعراء كبار، نذكر منهم: ابن خفاجة،ابن الزقاق البلنسي، ابن زيدون، ابن عمار، حازم القرطاجني، ابن حمديس الصقلي(البجائي،الأندلسي)، محمد ابن شرف القيرواني، ابن خميس التلمساني،ابن لفكون القسنطيني، وغيرهم كثير.

وسنعرض لأهم الشعراء الذين ذاع صيتهم في عهد الدولة الحفصية ونتتبع سيرتهم في مواكبة الحياة ووصف ما يطرأ على المدن من عمران أو بناء حصون أو قلاع أو قصور أو حدائق، أو برك اصطناعية أو طبيعية، أو أنهار أو بحار والطبيعة بمختلف أشكالها وألوانها لنرى مسيرتهم الفنية وإضافاتهم لشعر الوصف في منطقة المغرب العربي عامة وفي عهد الدولة الحفصية تحديدا. [امتداد الدولة الحفصية من طرابلس شرقا حتى بجاية غربا]. تلك هي حدود الدولة الحفصية كما يصورها صاحب الفارسية[1] وكذلك برينشفيك [2] وغيرهما.

وسأقف على نماذج، تعطي صورة واضحة عن سير هذا الغرض الشعري عند الحفصيين.

الوصف عند ابن الأبار :

قال يصف حدائق في قصر أبي فهر الذي بناه المستنصر بتونس وقد أقيمت فيه مأدبة حضرها الشاعر ، فأنشأ هذه القصيدة يصف هذا البستان وما حوى من أشجار وثمار وماء يندفع كالسيل العرم في وفد عظيم إلى بركة القصر، يشبه حديثه حديث البحتري في وصف بركة المتوكل.

أما ابن الأبار فإنه يقول معبرا عما شاهد ورأى: [3]

---

[1] ابن القنفد القسنطيني، محمد بن حسين بن علي، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي. الدار التونسية للنشر. تونس، 1968م. (293) خريطة للدولة الحفصية وحدودها السياسية والجغرافية.

[2] برينشفيك، روبار (Robert, Brunschvig)، تاريخ افريقيا في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، ترجمة: حمادي الساحلي. دار المغرب الإسلامي. ط1. بيروت. لبنان، 1988م. ج2، ص426.

[3] ابن الآبار، الديوان، تحقيق:عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر،تونس،1985م ، ص ص(147، 150) . وقديما قال البحتري:

يا من رأى البركة الحسناء رؤيتها والآنسات إذا لاحت مغانيها

[الطويل]

ورَوْضٌ نضيرٌ جَادَه الجود والنَّدى	فليس يبالي بعدما صنع العهد
نَمَت صُعُدا في جِدَّةٍ غُرُفاتُه	على عَمَدٍ مما استجاد لها الجدُّ
تُخُيِّلن قاماتٍ وهُــنَّ عقائــل	سوى أنها لا ناطقات ولا ملدُ[1]
قدود كساها ضافي الحسن عريها	فأمعن في تنعيمها النحت والقدُّ
فأسحارها تهدي لها الطيب "منبج"	وآصالها تهدي الصَّبا نحوها نجدُ
أناف على شمِّ القصور فلم تزل	تنهَّد وجرا للقصور وتنهدُّ
رحيب المعاني لا يضيق بوفده	ولو أن أهل الأرض كلَّهم وفدُ
تلاقى لديه النُّور والنَّوْر فانجلَت	تفاريق عن ساحته الظلم الرُّبدُ
وحفَّ بأعناب ونخلٍ نــواعم	تكـــاد فـــروعا بالنــواسم تنقدُّ
تناهت جمالا أو جلالاً فأصبحت	تندُّ على الأوصاف إذ ما لها ندُّ

ثم يصف الوليمة التي أقيمت لهم في هذا القصر العظيم، وفي هذه الحديقة الغناء فيقول:

جنينا بها الإسعاد من مغرس المُنى	وحفَّ بنا أثناءها الرِّفْهُ والرِّفدُ
وذاب لنا منها النعيم فلا ترى	سوى ذائب هزلا وشيمته الجدُّ[2]
أفانين شتىً والفواكه شنعت	بأطعمة يعيا بها الشكر والحمدُ
على مائدات (ضافيات) غضارة	تروح بأصناف النعيم كما تغدو

وقال يصف جنات "أبي فهر" في تونس:

نأت ومزارها صدد	فهــل لك بالمعاديد
مهاة من بني أســد	فريسة لحظها الأسد

وهي قصيدة في وصف قصر أبي فهر. ثم يمدح الخليفة "أبا زكريا"، ثم ينتقل إلى حدائق أبي فهر وما حوت من برك وأشجار فيقول[3]:

قد شاد سلطان ما شاء مخترعا	والدهر ثاوٍ على الإسعاد معتكف
مصانعا ضلَّت الأملاك صَنْعَتَها	لا القصد وافٍ بها وصفاً ولا السَّرَفُ
وضَّاحة حلَّت الأنوار ساحتها	فأوضعتْ رحلةً عن أفقها السدف
تجمّعت وهي أشتات محاسنها	هذا الغدير وهذي الروضة الأنفُ
حيث القصور عليها الحسن مقتصرا	فوق البحيرة منها البحر مغترف

[1] الملد: الشيء مده، كما يطلق على الغصن الناعم المتمايل ..وغيره.

[2] ذاب: ذاب الرجل: إذا حمق بعد عقل

[3] ابن الآبار، الديوان، تحقيق:عبد السلام الهراس،الدار التونسية للنشر،تونس،1985م، ص 375.

ويدخل الشاعر إلى الحديقة فيفتنه رونق الأشجار وتناغم الأطيار فيصدح بما ملأ عينه، وسرَّ نفسه، فيطربه هذا المؤتلف المختلف، أطعمة وأشربة، ومياه متدفقة، وأطيار فوق أغصان تصدح بخرير الماء... فيقول:

والزهر منشقة عنه كمائمه ... كالجوهر انشق عن شفافه الصدَّفُ
يضاحي النَّوْر فيها النُّور عن كثب ... مهما بكت للغوادي أعين ذُرْفُ
خُضر خمائلها زرق جداولها ... فالحسن مؤتلف فيها ومختلف
دوح وظلٌّ يلذُّ العيش بينهما ... هذا يرفُّ كما تهوى وذا يَرِفُ
يجري النسيم على أرجائها دنِفًا ... وملؤه أرجٌ يشفى به الدَّنفُ
حاك الربيع لها من صوبه حبراً ... كأنها الحلل الأفواف والصُّحفُ
غريرة من نبات الروض ناعمة ... يثنى معاطفها في السندس التَّرفُ
صافَ الجنى الغضُّ في أدواحها وشتا ... فتجتني اليد ما شاءت وتقتطفُ[1]
بكر الحـــدائق والأحــداق شاهدة ... لا عانس جهمة المرأى ولا نَصَفُ
تندى أصائلها صُفْــراً غــلائـلـها ... كأنَّ ماء نُضَارٍ فوقها يكفُ
في حبرةٍ وأمـــان مَنْ تبرأها ... كجنة الخلدِ لا روع ولا أسفُ
تظل من تحتها الأنهار جارية ... يروق منعرجٌ منها ومنعطفُ
أصحتْ إلى غرفِ الرِّضوان داعية ... تلك المحاريب والأبيات والغرفُ
تلهيك عن زخرف الدنيا زخارفها ... وعن أغاني الغواني وُرْقُها الهتفُ

ثم يصف ماء القصر وكأنه النهر بل البحر فيقول:

ملء الفضاء طَموح الموج مُزْبِدُه ... يعبُّ منفرة منه ومرتدف
يمدُّه للفرات العذب مطَّرد ... خُضرُ البحار إذا قيست به نُطَفُ[2]
كأن أمواجه الأبطال مدّرعة ... كرَّت تلاقي ولا بيض ولا جحفُ[3]
وحبّذا القبّة العلياء شامخة ... بأنفها يزدهيها العزُّ والأنفُ
حفّت بحافتها الأشجار تكلؤها ... كما تقوم على ساداتها الوُصُفُ
كأن من وشي صنعاء بها شيّة ... فللعيون بصنع زانها شغفُ

---

[1] صاف: وقت الصيف

[2] نطف: قليل.

[3] مدرعة: متقاتلة، وتناول القوم بعضهم بعضا بالسيوف. الجَحَافُ: الموت.

كأنهن العذارى الغيد ناضية شفوفها عن قدودٍ كلُّها هَيَفُ
مطالع للنجوم السَّعد يكنفها قصر الإمارة نعم القصرُ والكَنَفُ
لو تهتدي الشمس أن تختارها فَلكاً لسيرها لم تكن تخفَى وتنكشفُ
ما خُذُ بغداد أو زهراء أندلسٍ والمُلْكُ مقتبل فيها ومؤتنفُ
وأين ايوان كسرى من سرارتهاً وكالأكاليل في هاماته الشُّرفُ
تحدثوا برهة عنها ولو عرفوا تبانِيَ المرتضى يحيى لما هرفوا
وهذه خلفت تلك التي سلفت وليس منها ولا من حسنها خلفُ

ويختم وصفه لهذا القصر وما حوى من جنات معروشات وغير معروشات ومن برك ملئت حسنا وبهاءا فيقول:

جلت ودق بيان أن يعددهـــا والبحر ليس من الأوشال[1] ينتزفُ
أين الإجادة إلا أن يحاد بها من معجمات توافٍ دونـــها تقفُ

في هذه الأوصاف، وفي هذه الصور التي حشدها الشاعر في قصائده، مشيدا بما نمنمته يد الفنان البارع، حتى غدا قصر أبي فهر في "تونس" يزري بغيرة في بغداد وغرناطة ودمشق. وذلك في أسلوب ممتع ولغة ميسرة متخيرة، تأنق فيها ابن الأبار كما تتأنق يد الفنان المبدع في صنع تلك الأطيار، والأشجار والأعمدة المرصعة بالفضة والنضار.

فتشد القارئ إليها بما حوت من آيات الإبداع صنعا وقولا يسري في النفوس كالسحر، فيأخذها أخذا ويأسرها أسرا، ستعذبه النفس الإنسانية في حالات الضيق والانقباض ...بل إن ابن الأبار قد جعل هذه القصور وهذا العمران وتلك الحدائق والأشجار فوقها الطيور تحاكي الطبيعة في مزحها وسرورها، وكأنما هذه قطعة فنية أمام القارئ. بل هي فتنة للسمع وللبصر، تذكرك هذه الصورة بما مضى من ذكريات علقت بذهن القارئ ولكنها تنسيه ما قرأ وما سمع فيصغي لقول ابن الأبار وهو يعزف هذا اللحن الخالد لجنان ملئت حسنا وبهاء فكأنها جنات الخلد.

حنين إلى جبل زغوان

ويقول حازم القرطاجني في وصف جبل زغوان والماء المنحدر في الحنايا حتى يبلغ العاصمة تونس، ويتدفق الماء في قصر المستنصر [قصر أبي فهر] الذي زها على جميع قصور الدنيا في نظر شعراء الدولة الحفصية، فيقول فيه[2]:

[1] الأوشال: الماء القليل. يتحلب من جبل أو صخرة ولا يتصل قطره.

[2] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 78.

وطود زغوان دعوت ماءَه		فلم يزغ عن طاعة ولا وَنَى
بل رأى نقيض تقطيع اسمه		في جوبه الأرض مجيبا من دعا
وأذعن الطود لطودٍ باذخ		أشَّـمَ يُستـذرى به ويحتـمى
وكفَّـرت طـاعته لمؤمن		طاعته لكـافر فيـمـا مضى

إن انسياب الماء في هذه الحنايا التي كانت من قبل تجري، لغير المسلمين أصبحت اليوم وقد أعيدت إلى سابق عهدها، يصف تدفق الماء واستجابته للخليفة المستنصر بالكافر الذي زاغ وضل ثم عاد واهتدى في مقابلة بين حالتين في غاية الحسن والإجادة.

أبو الحسن بن الفكون(القسنطيني)[1]:

وفي بجاية نلتقي بالشاعر القسنطيني في العهد الحفصي وهو يصور قصور بجاية بهذا التصوير الرائع، فيقول:

دع العراق وبغداد وشامهما		فالناصرية ما إن مثلها بلد

وقال في قصيدة ثانية يصف أمسية راق فيها الجو واعتدل، وقد طلب منهم الأمير أن يرتجلوا بعض أشعارهم في هذا المساء فبادرهم ابن لفكون بقوله:

وليل مسَّرة مازلتُ منها		أمرُّ منها على صراط مستقيم
لبست ثيابه عزا إلى أن		تحدّرتْ الرُّجوم من النُّجوم
فنهر كالسَّجنجل قد تراءت		على شطَّيه جنَّات النعيم

وقد اشتهر هذا الشاعر برحلته التي نظمها من قسنطينة إلى مراكش[2]، تلكم القصيدة الطنانة، التي لقيت استحسانا كبيرا من الدارسين للأدب ومن النقاد. وعندما مر العبدري –الرحالة الشهير- على قسنطينة سنة 688هـ عرض لقصيدة ابن لفكون وعلق عليها في رحلته، فعلق على بعض معاني القصيدة التي يراها العبدري غير مناسبة في القصيدة ورغم ذلك فهي وثيقة فنية وتاريخية هامة في الأدب المغربي القديم وتبين هذه القصيدة مدى الروابط الثقافية ووشائج القربى بين أهل المغرب العربي[الجزائر،وتونس والمغرب الأقصى].

---

[1] الغبريبي، أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. رابح بونار. ش.و.ن.ت.الجزائر. الجزائر، 1970م. ص 280 (7 أبيات).

[2] مطلع القصيدة		أيا معنى السيادة والمعالي		ويا بحر النّدى بدر الندى

فقد أجاد أيما إجادة في حديثه عن بجاية ورفعها إلى أعلى مراتب الجمال، فقد حباها الله طبيعة خلابة، وازدانت على مر العصور بمآثرها وقصورها وبمساجدها وقلاعها وبمدارسها التي يؤمها الطلاب من كل جهات الوطن. حتى أصبحت منارة العلم بحق.

وله من قصيدة يصف قصر الرفيع[1]، وهو قصر منيف وقد ذكر الشاعر باسم الربيع قوله:

عشونا إلى نار الربيع وإنما	عشونا إلى نار النّدى والمحلِّق
ركبنا بواديه جياد زوارق	نزلنا إليها عن ضوامر سُبَّق
وخضنا حشاه والأصيل كأنه	بصفحته تبدي مروّق زئبق[2]
فقلت وطرفي يجتلي كل عبرةٍ	وزورقه يهوي به ثم يرتقي
أيا عجباً للبحر عبَّ عبابه	تجمَّع حتى صار في بطن زورق
فيا حسن ذاك القصر لازال آهلا	ويا طيب ويا نشره المتنشَّق
رتعنا به في روضة الأنس بعدما	هصرنا به، غصن المسرة مورق
ويضحكنا طول الوصال وربما	يمرُّ على الأوهام ذكر التفرق
فتضحي موصونات الدموع هدالة	ونحن على طرف من الدهر أبلق[3]
لمثلها في منزف ونزاهة	يجر ذيول الذل كل موفق
فلله ساعات مضَيْنَ صوالح	عليهن من زي الصِّبا أيُّ رونق[4]
خلعنا عليها النسك إلا أقله	وإن عاودت نخلع عليها الذي بقي

ففي هذه الأبيات يسجل "ابن الفكون" إعجابه بالقصر وبحدائقه وبركه وأطياره وأشجاره في لغة سهلة بسيطة، متكئا على صور من صنع خياله المبدع، فيجعلك تحس كأنك تركب البحر وتتمتع بمنظره الرائق في إحدى عشيات بجاية الساحرة كما يراها الشاعر، ذهب فيها كل ما يعكر الصَّفو وما يبقي للناس من حشمة ووقار كما يقول:

خلعنا عليها النسك إلا أقله   وإن عاودت نخلع عليها الذي بقي

ولو قُدِّر للشاعر أن يحي أمسية أخرى مشابهة لنزع لباس الجد والوقار، وارتدى مع أترابه ولدَّاته ثوب العربدة والشباب، فكل ما حوله يدعوه إلى اللهو والاستمتاع بهذا الجمال الذي تهيأت ظلاله وأفياؤه.

---

[1] الرفيع: قصر بناه الموحدون ببجاية. عنوان الدراية ص 28.

[2] ورد العجز هكذا في كتاب الشهب المحرقة : بصفحته تبرٌ جرى فوق زئبق

[3] أبلق: بلق السيل الأحجار: جرفها، والباب: فتحها، والمعنى ونحن في زمن مفتوح على المسرات والأفراح.

[4] رونق: رونق السيف: صفاؤه، ورونق الضحى: أوله، ورونق الشباب: أوله وطراءته.

ونمضي مع شعراء الدولة الحفصية وهم يستلهمون من ذخائر المغرب العربي هذه الآثار القائمة، وتلك المناظر الأخاذة ،فتوقفهم بحسنها وجمالها فيجودن بهذه النفحات الخالدة.

وسنعرض إلى شاعر آخر هو حازم القرطاجني[1] إذ يصف قصر "أبي فهر" في تونس. الذي بناه المستنصر فيقول[2]:

إن ذكرت مدن الدُّنى هي التي يختتـــم الفخـــــر بهـــــا ويبتدا
كجنة الخلد تسر من رأى فيزدري الخلد و"سُرَّ من رأى"[3]
حسن البلاد كلها مجتمع لها و «كلُّ الصَّيد في جوف الفرا»[4]

ويصف هذا القصر بأنه طود من أطواد الأرض التي خلقها الله وكذلك حال قصر "أبي فهر" وقد زرى هذا القصر بكل قصور عصره في الشرق والغرب.

وقد استعمل الشاعر في وصفه الارتكاز على الموروث الثقافي لديه فتارة يأخذ الشعر القديم وتارة من حضارة الأمم الأخرى، وتارة تضمن حديثا نبويا شريفا أو مقتبسا معنى من معاني القرآن الكريم، ليبرهن عن مدى ثقافته وسعة اطلاعه ليرسم في الأخير صورة رائقة في معناها ومبناها لهذا القصر وما حوى من حدائق وبرك جرى فيها الماء وغردت الأطيار على فنن الأشجار الطبيعية والاصطناعية فيقول:

وانساب في قصر«أبي فهر»الذي بكل قصر في الجمال قد زرى
قصر تراءى بين بحر سلسلٍ وسجسج من الظلال قد ضفا
بحيرةٍ أعلى الإلهُ قَدْرَها قد عذب الماء بها وقد رها[5]
ومفعم الأرجاء كم من ناظر سافر فيه من رجاً إلى رجا
كأنه ملك جبى نسيمه من زهر الروض له ما قد جبى
فقيّد الغصن بقيد فضة قد دار حول الساق منه والتوى
حدائق للمـــــاء فيهـــــا كوثـــر وكوثر للماء مـــــروٍ من عفا

ثم ينقل لنا هذا المعنى الرائع والأغصان قد لانت مضمنا قوله تعالى: "ودانية عليهم ظلالها ودللت قطوفها"

---

[1] القرطاجني، أبو الحسن حازم، الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، دار الثقافة، بيروت، لبنان 1964م / القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 22.

[2] المقصودة البيت (84- 100).

[3] قصر الخلد بناه أبو جعفر المنصور، بغداد. سرّ من رأى: مدينة بطاهر بغداد، تبعد حوالي 70 ميلا عن شمال بغداد.

[4] مثل عربي قديم(قبل الإسلام) ورد في حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام لأبي سفيان حين أسلم.

[5] رها : يرهو البحر: سكن، ويقال جاءت الخيل رهوا: تسير سيرا سهلا متتابعا. الرَّها، المكان الواسع.

فيقول :

سرّ الغصون ريّها حتى انثنت وسرّ لمرآها الحمام فشدا

ويستمر الشاعر في وصف قصر "أبي فهر" مشخصا مجسدا له، فكأنه الطود العظيم فالقصر عنده قلعة، والقصر ملجأ يعصمه من كل الأخطار، فهو ملجأ للناس جميعا المتعبدين والثائرين، والناسكين...

طود رست على الدُّنى أركانه قــد ركن الــدين إليه وانضوى
يمتــنع الجيش بـــه ويحتمي إذا امرؤ بالجيش والجند احتمى

وحازم ممتع دقيق التصوير مشخصا ومجسدا لما يصف، فتكاد تتلمس الأشياء وكأنها أمامك تراها وتحاول لمسها. وهنا يرتقي فنيا في الصور التي يقدمها وفي اللغة التي يُركّب منها هذه الصورة الحية. وإذا ما تتبعنا(حازم) في روائعه الوصفية نذكر جيميته التي فاقت سابقاتها ولاحقاتها، ويكفي أن تقرأ له هذه الأبيات وهو يسبح بخياله في جنان الدنيا، مبديا ما عنده من حكم وآراء في الحياة قوله[1]:

أدر المداحة فالنسيم مؤرج والروض مرقــوم البرود ومدبج
والأرض لابسة برود محاسن فكــأنما هــي كــاعب تتبرج
من لم يهِّيج قلبه هذا فما للقلب منه محــرِّك ومهيِّج
طربت جمادات وأفصح أعجم فرحا وأصبح من ســرور يهزج
يا صاح، ما قلبي بصاح عن هوى شيئين بينهــمـــا المنى تستنتج
أفيفضُل الحي الجماد مسرة والحيُّ للسّـــــراء منه أحوج

ثم يقرر أنّ حاجة الإنسان إلى الفرح والسرور آكد وأبلغ، وما أشد حاجة الإنسان إليها، فما بال الجماد أصبح يفضل الكائن الحي فهذه الجمادات التي يصفها حازم منتشية مسرورة بجمالها وكان الأجدر أن يفضل الإنسان الجماد،فهذه أصنام وجمادات هي فتنة نهواها ولا نتعبدها كما قال الشاعر: «صنمُ للفتنة أهواه ولا أتعبده». ثم يختم الشاعر هذه القصيدة الرائعة بعد أن يعرج على غرض الغزل يروّح به عن نفسه، وقد أحس بذاته أمام هذا الجمال الأخاذ وهو في موج من الحيرة ومن الرغبة في الملذات، فيقرر أن يعب وينزع كأسه في شبابه قبل شيبه وفي صغره قبل كبره. ثم يبكي كما الوليد لأن الذي رأى وشاهد كان للآخر وليس له فيذرف الدمع هتانا، بل يمطر الدنيا دموعا فتستحيل بحارا أو قل: بحران امتزجا –

---

[1] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات.تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 105، انظر البيت 31

فترقب السراء من دهر شجــا فالدهر من ضدٍّ لضدٍّ يخــــرج
وتـــرج فرجة كل همٍّ طــارق فلكلِّ همٍّ في الزمان تفــــــرج

بحر من الدموع وبحر من الماء – ليتشكل منهما بحر من الأحزان والآلام الدفينة. لفت نظرنا الشاعر إلى حاله، وانصرف معكرا ذاكرته وفكره ليتفجر حكمة بالغة... تنسيه الهم والتسهيد. فيقول:

فترقب السراء من دهر شجـــا فالدهر من ضدٍّ لضدّ يخرج

وترجَّ مزجة كلِّ همٍّ طـــارق فلكلّ همٍّ في الزمان تفـــرُّج

هكذا يخلص الشاعر من غرض الوصف والغزل إلى الحكمة البالغة التي يحمل فيها رأيه في الزمان، وأن دوام الحال من المحال. وأن مع العسر يسرا. ومهما طالت نوائب الدهر وتكاثرت عوادي الزمن ففسحة الأمل أكبر والانفراج من الكرب آت، ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق.

وإذا ما اتبعنا هذا الموضوع الشعري عند شعراء المغرب وجدناه متناميا متكاثرا أكثر من غيره، ربما يرجع ذلك إلى مفاتن الطبيعة وإلى المظاهر العمرانية التي امتلأت بها منطقة المغرب العربي.

ولأن الوصف موضوع متعلق بالذات وبالدهشة والإعجاب مما قد يقع على نظر الشاعر أو يسمع به أو يخبر هذه الآثار، فيحاول تسجيل براعته الفنية في وصفها، وإظهار قدرته التصويرية والتخيلية في ذلك. ولأن هذا الموضوع –الوصف- ليس فيه تزلف إلى الحكام ولا من ورائه مال أو الباعث عليه الكذب والرياء.

لذلك مال إليه الشعراء في كل قطر وأمعنوا في نقل صور فنية خالدة محاولين إظهار البراعة الفنية وحسن تذوق كل ما هو جميل والإشادة به.

أما الشاعر أبو إبراهيم إسحاق بن حسينة، فقد نقل لنا تجربة ذاتية في هذه القصيدة التي يصف فيها [سبخة تاكمرت] وكان معه الأديب أبو عبد الله محمد التجاني صاحب الرحلة والأمير السلطان أبو زكريا يحي الحفصي في رحلته إلى جربة. حيث قال:

قطعنا التاكمرت سرًى وسِرْنا صبيحة يومنا حتى الزوال

فلا تسأل لما قاسيت فيها[1] من الأهوال والكرب الثقال

عناء ليس <u>شبيهه</u> عنـــــاء يضيق له متسع المقال[2]

وليل لا تنير به نجوم كأن نيطت إلى بعض الجبال

وأرياح تُصَمُّ الأذن منها تهبُّ على اليمين مع الشّمال

---

[1] التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الرحلة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية. تونس، 1958م.

ورد صدر البيت: فلا تسأل لما قاسيت فيه

[2] م. ن: يشبه.

تصدُّ عن طريق القصد قصدي وتضرب حر وجهي بالرمال
ولا أستطيع فتح العين منها لبعض الأمر إلا باحتيال
وأجهد في دفاع النوم عني لخوفي من سقوط أو ضلال
وما زلنا نكابد في سرانا مهالك لا تقابل بالمِحال[1]
إلى أن لاحت الغابات ظهرا بظاهر - توزر- مثل الخيال
فهنأ بعضنا بعضا سرورا ونلنا راحة بعد الكلال

فالشاعر هنا ينقل لنا معاناته وتعبه في سفريته مع عِلْيَة القوم، وبالرغم من ذلك كانت المعاناة والتعب الشديد.

وقد أحسن تصوير الحالة النفسية التي كان عليها الشاعر في أثناء مواجهته للرمال والحر الشديد، وللرياح وهي تذرو الرمال وتسفيها، فتمنع النظر وتسد الآفاق أمام القافلة التي عبرت سبخة (التاكمرت) المقفرة، التي أذهبت عنه النوم وطعمه، وسكنه الفزع والخوف خشية التيه والضياع في الصحراء وقد صاغ الشاعر قصيدته في أسلوب فني ممتع، وبخاصة عندما يبلغ البيت السابع: فيقدم لنا صورة في غاية الدقة والتأثير فلكأن القارئ عندما يعيد قراءة البيت يغمض عينيه من خطر الرمال، وعجاج الصراء الذي يحبس الأنفاس، فلا يستطيع النظر ، ولا السير، وذلك هو الذي كان يخشاه الشاعر من ضياعه وتيهه في الصحراء الشاسعة. ثم يبزغ الأمل ويرى الشاعر الخضرة، وتظهر الأشجار باسقة، فيتنفس الصعداء، وتعم الفرحة، ويلقي المسافر عصا الترحال لينال نصيبا من الراحة.

إن الشاعر في هذه القصيدة يصف أمرا صعبا ومنظرا مخيفا ومفزعا، عندما تعصف الرياح ويمر عليها المور يسحب رداءه القاتم، وتمتلئ الدنيا غبارا ونقيعا فتتقبض النفس، وتغمض العين، فماذا يصف وماذا يقول؟ وهو لا يعرف طريقه، فحاله في هذه السبخة كحال(أبي المخشي[2]) الشاعر الضرير مشيه في الأرض مَسّ بالعصا. وتلمسٌ بها.

---

[1] المَحَال: محل بالأمر: رامه بالحيلة، والمِحال: الكيد والقوة والعقاب من الله عز وجل.

[2] أبو المخشي: شاعر أندلسي اشتهر بقصيدته في وصف (داء العمى). الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة، الدكتور أحمد هيكل، دار المعارف، مصر، 1982م.ص86. يقول واصفا داء العمى:

ورأت أعمى ضريرا إنما مشيه في الأرض لمس بالعصا
بالعصا إن لم يقده قائـــد وسؤال الناس يمشي إن مشى

قلت كلمة عن صعوبة الوصف في الفيافي والصحاري الخالية ، إن وصف واحة في يوم عاصف أهوج لهو أعسر على الإنسان وأصعب وحاله في الوصف هنا كحال الضرير الذي يحاول وصف شيء يدركه ولا يراه، ويحسه ولا يعانيه.

ماهي القيم التي يهدف إليها الشاعر في هذه الفترة، وبماذا يتغنى هذا الشاعر، إن الشاعر صاحب موقف في الحياة وخير الشعر ما دخل القلوب، و قبلته الأذواق ورددته الأجيال لأن هذا الشعر حتما سيتغنى بآمالها وبأحلامها. يتغنى بالصورة الجميلة التي يراها ولكن يصعب عليه أن يضعها في إطار فني رفيع(كالشعر). فتصبح لذلك هذه القصائد تسابيح وترانيم يتغنى بها الإنسان العادي حيثما كان.

والشاعر هنا حاول أن ينقل هذه التجربة إلينا بهذه الصورة الرائعة. صورة فيها الخوف والترقب والإقدام، والمغالبة والصراع بين قويٍّ وضعيف. أو قل الصراع الأبدي بين الإنسان وقَدَرِه المقدور مع الطبيعة. التي ذللت له أحيانا واستعصت عليه في كثير من الأحيان، فهو دائم الصراع يغلب أحيانا ويُغلب أحايين، ولكنها متعة الحياة!

أبو الفضل محمد بن علي التجاني[1]، قال يصف إحدى عشياته، أو روحاته، وبواكره في مرابع الصِّبا والشباب بتونس.

أذكر عشيتنا بساحة عنبر	والجو يتحفنا بنكهة عنبر
حيث النخيل عرائس بسط الحيا	بُسُطا لها من أقصر أو أصغر
والشمس تستحي فتستر وجهها	عنَّا بستر للعروس محبَّر
والنُّور بين مفضضٍ ومذهَّب	والنَّوْر بين مدرهم ومدنَّر
والبحر يرمقنا بمقلة أزرق	والبَرُّ يرمقنا بمقلة أَعْفَرِ
في جنة لو نلت من خلدٍ بها	قصدي بلغت إلى النعيم الأكبر

أعجب الشاعر بهذه الحدائق وبهذه المنتزهات التي ترتاح النفس لرؤية خضرة الأشجار وزرقة ماء البحر بها، فيشكل من ذلك عند الشاعر منظر لا مثل له، فهو كالجنة لو دام له هذا النعيم وصفا له هذا الجو المؤنس، ولكن من أين وأين للشاعر أن يدوم له ذلك، ويصفو له الجو؟ فهو معجب بما شاهد حوله ورأى ولكنه خائف وجِلٍ من ضياع جنة دخلها، ولم يدم مقامه بها، ولو دام له ذلك لكان أسعد الناس.

وقال أحد شعراء تونس كما يذكر ذلك التجاني في رحلته التي قادته إلى الجنوب التونسي يصف مدينة (توزر):

---

[1] التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد، الرحلة، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية. تونس، 1958م. ص ص(63، 64).

زُرْ تُوزَرَا، إن شئت روضة جنةٍ تجري بها من تحتك الأنهار
نهرٌ على رمل يسير كأنه ورق يُماعُ على النُضَّار يُمارُ[1]
أبًّا وفاكهةً حَوَتْ وحدائقًا غُلباً يغرد فوقها الأطيار[2]
جنَّاتها مثل الجِنان فأرضُها مسك ونشر نسيمها مِعطار

إنها حدائق غناء، ونسمات عليلات تشفي الجوى، وأطيار تملأ الرحب غناء وحبورا، وعطر يتضوع من شوارعها الغرقى بالمسك والريحان.

ثم ينتقل الشاعر في شغف كبير ليصف النخيل الذي حُفَّتْ به المدينة وامتلأت به الحدائق فيقول:

والنخل مثل عرائس مَجلوَّة تبدي بديع حلوها الأطـيار
وإذا هززت بجذعهن تساقطت رطبـاً جنيـاً نثرهن نثـارُ[3]
قطر من الأقطار أشرق حسنُهُ فكأنمـا الليـل البهيم نهـار
كم فيه من مغنى جميل رائق تصبو لرؤية حسنه الأبصـار

لا شك أن مدينة أو حيا بهذا الوصف لتهفو إليه النفس، وترتاح لرؤيته القلوب والخواطر. وكأنما يتمثل جنة من جنات الخلد...فراح يقتبس من القرآن الكريم، آية من آيات الله في خلقه، هي معجزة مريم العذراء. وكيف كان يأتيها رزقها رغدا، بغير حساب.

ثم ينادي أهل الربع والحي الذي ضمه أيام الصغر والشباب قائلا:

يا أيها الثاوي به من أهله أو غيرهم ممن حوت الـــدار
لا تَصبْوَنَّ إلى سواه فإنه للدّين والدنيا هدى ومنـــار
يا جنة لولا شوائب صفوها تمَّ النعيم بها وعزَّ الجــار
أيامنا مصقـــولة أطـــرافها بك والليالي كلهـا أسحـــارُ

فالطبيعة فاتنة وملهمة الشعراء، وفي بعض الأحيان تبلغ يد الإنسان من الصنعة والإتقان ما يعجب ويدهش، كما وصف ذلك الشاعر هيئة النخيل وهي في منظر بهيج. فالبهجة والفرح بفضل الأهل والأحبة الذين دعاهم لعدم مغادرة الدار والمدينة، بها كمل الحسن وتم الهناء.

---

[1] ورق: فضة مذابة على الذهب. يماع: الشيء يسيل. حرّ النار وشدة الجوع.

[2] اقتباس من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وحدائق غلبا وفاكهة وأبًّا**﴾ سورة عبس آية (31/30). غلبا: بساتين كثيفة الأشجار. أبًّا: كلأً وعشبًا.

[3] إذا هززت بجذعهن تساقطت رطبا : مقتبس من القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَهُزِّي إليكِ بجذع النَّخلةِ تُساقط عليكِ رُطَبًا جنيا**﴾ سورة مريم الآية 25.

إذا ما تتبعنا شعراء الدولة الحفصية فإننا سنجد عند آخر شعرائها الشهاب بن الخلوف هذه الأبيات[1] :

[الطويل]

رأى البرق تَعْبِيس الدُّجَى فتبسما   وصافح أزهار الرُّبَا فتنسما
ورق لواء البرق لما تَلاعبت   سوابقُ خَيْلِ الريح في السَّمَا
وأوْتَر رامي البرق قَوْسَ سحابه   وأرسلَ نحو الأرض بالقَطْر أسهُمَا
وقد بلّ أردانَ الثرى دمع مُزْنِه   تنــاثر مــن أســلاكــها فتنظَّمــا
وجرّ على هام الرُّبا ذيل وبلِهِ   فدبَّج أثواب الرُّبُوع وسَهَّمَا[2]

عندما عبس الجو وأظلمت الدنيا، سطع البرق يبدد الدياجر ويمحو الظلام، ثم أبرقت السماء وأرعدت وأنشأت سحابا متراكما، ثم أقطرت قطرا على الروابي كأنه اللآلئ المنثورة، فاستقبلت الأرض هذا الغيث ضاحكة باسمة، متزينة، كما تتزين الغادة الحسناء.

ثم يواصل وصفه لقطرات الطل على أوراق الزهر، كيف أصبحت تُرَى وكأنها قطرات من فضة ذائبة فيقول:

وشابَ لُجَيْنَ الطلِّ عَسْجَدُ بارقٍ   فدثَّر أزهار الربيع ودرهما
وشمر كف الروض أكمام نوره   ووشح أعطاف الغُصون وعمما
ودار بساق الغُصْنِ خلخالَ جدول   كما سوَّر التجعيد للنَّهر مِعْصَمَا[3]

إنه يحشد الصور المتتالية، مجسدا له ومشخصا فكأنه: وشاح امرأة أو سوار في يد حسناء أو خلخال في رجلي امرأة، فتكاد تلمس تلك الصور، وكأنما هذا الروض حسناء قد تجملت وتزينت بأجمل زينة.

ومنها يصف فارسا متمرسا بالفروسية، شجاعا هماما، فيقول:

إلى أن أماط الفجرُ فضْل لثامه   ونوّر بالإسفار ما كان أظلما
ونبهَ داعي الصبح إذْ هبَّتِ الصَّــبَا   لواحظ زهر كنَّ في الليل نوَّما
فأصبحت أعلوه أغر محجَّلا   كحيل أديم المَتْنِ أَلْمَظَ أَرْثَمَا[4]
أراعي انشقاق الفجر في أبرق اللِّوى   وأرعى طلوع الشمس من جانب الحمى

---

[1] ح.ح.عبد الوهاب، المنتخب، ص 118 ،(ديوان مطبوع)./ ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين، تحقيق: العربي دحو. منشورات اتحاد الكتاب الجزائري. الجزائر، 2004م./ وعنوان القصيدة : «روضة الأزاهر ولجة الجواهر» : ص 373.

[2] سهَّما: خطط ولون وجمل.

[3] ح.ح. عبد الوهاب، المنتخب، ص 118 ،(ديوان مطبوع)./ ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين : ص 374. وهي من غرر المدح النبوي وهذه مقدمة في الوصف.

[4] ألمظ: الألمظ من الخيل ما كان بجحفلته السفلى بياض. وأرثم :بياض في طرف أنف الفرس

وأعطف أعناق المطي معرجاً وأنشق أنفاس النسيم ميمّما
ولم أنتدب إلا سهاما مفوقا وعوجا ومرانا وقلبا مصمّما[1]
وأبيض بسَّام الزند مجوهرا وأسمر مصقول السنان مقوما
وأشهب يعْبوبًا طُمَّرا مضمَّرًا طموحا مروحا أعوجيا مُطَهَّما[2]

ثم ينتقل من وصف الخيل ووصف الرماح والقسي، إلى حشد صور متتالية لفرسه. وهو بذلك يلمح إلى الفارس الذي امتطى فرسا أصيلا وقاده إلى غرضه وغايته دون كلل أو نصب، لأنه تمثل قولهم"الفرس من الفارس" وإشادته بالفرس إشادة بفروسيته وفُتُوَتِهِ وتمرسه بركوب الخيل.

وابن الخلوف في هذه الأبيات يصف نفسه وحصانه بالقوة والصلابة وكأنه قد عزم على خوض معركة. مستعملا لغة مناسبة للمقام، من ألفاظ حربية، وبيئة صحراوية، وكأنه يجوب فيافي صحراء نجد، أو هو في نفسه قد عقد العزم على بلوغ مرماه وغايته في طيبة وما جاورها من الأراضي الطاهرة لزيارة ضريح النبي الكريم صلى الله عليه وسلم. لا يثنيه عن عزمه حرّ أو قر فسلك طريقه فوق فرسه وكان فارس من الفرسان المشهورين، وقد امتطى حصانا أصيلا، ليبلغ به إلى غايته. وقد نسج قصيدته على طريقة القدماء لغة وأسلوبا، ولم يتحرر من تقاليد القدماء في أوصافهم شكلا ومضمونا، فلو كان له الانعتاق من ربقة التقاليد القديمة للقصيدة العربية لرأيناه يغوص في تحليل المظاهر الطبيعية يسبغ عليها من نفسه ومن أحاسيسه وربما شخصها أو أنطقها على لسان الطير أو الصديق الذي ينتحله من خياله، ليخاطبه مخاطبة الحاضر... ليبثه أشجانه وأحزانه أو أفراحه ومسراته.

ويقول في القصيدة نفسها [3]:

جَرَى هازئا بالبرقِ والريحِ مسرعا فأدرك ما عن نيل أَدناه أَحْجَمَا
تضمَّح بالكافور والمسك وارتدى رداءَ ظلامٍ بالصباح تسهَّما
أشمَّ لجيبُ المتْن أعينُ سابحا أقبُّ غليظُ السَّاق أجرد صلْدَمَا[4]

---

[1] عوجا: قسي ج. قوس/ مرانا: رماحا لينة في صلابة الواحدة مرّانة.

[2] أشهب يعبوبا: هو الفرس السريع . طُمَّرا: طويلا، طموحا: رافع اليدين، مرتفعا، عاليا. مروحا: منفرج الرجلين.

أعوجيا: ومنه الناقة العوجاء، ج.عوج وهي الضامرة. مطهَّما: سمينا، متناهيا في الحسن.

[3] ابن الخلوف، المنتخب، ص 119./ ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين، تحقيق: العربي دحو. منشورات اتحاد الكتاب الجزائري. الجزائر، 2004م.ص 373.

[4] أعين: عيونه واسعة. ونقول امرأة عيناء: واسعة العينين وفي القرآن الكريم: «حور عين» ومنه أخذ كلمة (أعين)، أجرد: طويل السير.

صلدم: شديد الحافر

قصير المطا والرسغ أتلع صافناً طويلُ الشَّوَى والذيل أغْذَفُ شِيظما[1]
تخيل سرحانا وساير كوكباً ولاحظ يعفوراً ولاعبَ أرقماَ[2]
فأسرج لما أن توثب جارحا وألجم لما أن تثوب ضيغما
فلم أر بدرا مسرجا ذا محاسن سواه، برقا بالثريا ملجما
وأورق ضخم الكفِّ أعوج بازلاً وشبرق رحْبُ الباعِ أفود أبهماَ[3]
ذلولا لعوبا شدقميا مكلثماً أحونا صموتا أرجلياً حَثَمْثَما[4]
إذا خبَّ عاينتَ الحَرُون وداحسًا وإن سار أنساك الجديل وشدْقماَ[5]
فَرَيْتُ به فود الفلاة ولم أزل أرُوح وأغدو طائراً ومحوِّما[6]

لعلنا ندرك بسهولة وصف الشاعر لفرسه بفرس امرئ القيس، لقد اقتبس معانيه وصاغها في هذا الأسلوب الشيق، مع ميله إلى لغة عمد فيها إلى اختيار الألفاظ الصعبة المعبرة عن حال الفارس الذي يقطع الفيافي ويواجه الصعاب، ولكن فرسه ذّلل له تلك الصعاب، وبلغ به إلى غايته التي يقصد في يسر، وهو بذلك يشيد كما لاحظنا في الأبيات السابقة بفروسيته، وبفرسه. مع ميله إلى الألفاظ الخشنة، ربما لإظهار مقدرته في تمكنه من قاموس اللغة، أو أنه مضطر لوصف الفرس بلغة مناسبة. وما يلحق به من وصف للسير السريع، والإقبال والإدبار وكل ذلك في مواجهة القفار والمفاوز الخالية وبرغم ذلك فهو وفرسه، لا يعتريهما تعب ولا يصيبهما كلل لأن قصدهما شريف وغايتهما تهون في سبيلها كل الصعاب. إنه يصف رحلته نحو الحبيب، والبلد الأمين نحو طيبة نحو يثرب، حيث ضريح النبي الأكرم صلى الله عليه وسلم، هذا تمهيد من الشاعر قبل أن يصل إلى مدح الرسول عليه أفضل صلاة وأزكى تسليم.

---

[1] الرسغ: موضع مستدق بين الحافر وموصل الوظيف من اليد والرجل. أتلع: طويل العنق. الصافن: من الخيل الذي قلب أحد حوافره، وقام على ثلاث قوائم.وهو الفرس الأصيل: وقد ورد وصف الخيل كما في قوله تعالى:« والصافنات الجياد» .طويل الشوى: طويل الأعطاف.شيظم: فرس ضخم.أغذف: غير أكول.

[2] السرحان : الذئب، اليعفور: الغزال. الأرقم: من الحيات الخبيثة ،ج أراقم.

[3] شبرق: باعدت الدابة في خطوها. والشبراق: شدة تباعد ما بين القوائم.

[4] حثمثما: حث: حثا: أعجله إعجالا متصلا. ويقال جواد المحثة : إذا حث تابع الجري وولاه. الجري المتتابع.

[5] الحرون : اسم فرس كانت لباهلة، إليه تنسب الخيل الحرونية/ داحس اسم فرس مشهور عند العرب كان لقيس بن زهير العبسي. تسابق مع فرس آخر لبعض الذبيانيين فجرت بذلك حرب بين القبيلتين ، عبس وذبيان دامت أربعين سنة. وتعرف بيوم داحس والغبراء. الجديل وشدقم: فحلان من الابل كانا للنعمان بن المنذر اللخمي،ملك الحيرة.

[6] فود الفلاة: قطعت به الفلوات. والفود جانب الرأس مما يلي الأذن ويقال قعد بين الفودين:أي العدلين كما يقال جعل الصحيفة فودين طوى أعلاها على أسفلها.

الزهد:

بقدر ما يقبل الناس على الحياة، ويتسابقون في نيل وطر من أوطارها، بقدر ما كان يعزَف عن هذه الدنيا آخرون، لا يرون فيها غير حطام زائل فلا مطمح لهم فيها ولا غاية إلا القناعة، وربما الزهد في كل مغرياتها... ومما رصدته من أشعار. لشعراء الدولة الحفصية قول الشاعر والعالم الجليل أبو العباس بن الغماز [1] الذي أنشد هذه الأبيات، في الحض على فعل الخير والإقلاع عن الآثام والمعاصي قائلا:

هو الموت فاحذَر أن يَجيئك بغْتَةً ... وأنت على سوءٍ من الفعلِ عاكفُ
وإيَّاك أن تمضي من الدَّهر ساعةً ... ولا لحظة إلاّ وقلبك واجفُ
وبادر بأعمال تسرُّك أن تُرَى ... إذا نشرتْ يوم الحساب الصَّحائفُ
ولا تيأسن من رحمة الله إنـــه ... لرّب العبادِ بالعبادِ لطائف

و يلوم نفسه، ومن كان مثله وقد أشرف على الثمانين من عمره، فقال:

أَمَا آنَ للنَّفسِ أن تخشَعَا ... أَمَا آنَ للقلْب أن يُقْلِعَا؟
أليس الثمانـــون قد أقبلَتْ؟ ... فلم تُبْقِ في لَـــذَّةٍ مَطْمَعَا
تَقَضَّى الزَّمَانُ ولا مطمعٌ ... لِمَا قَدْ مَضَى منه أَنْ يَرْجِعَا
تَقَضَّلّى الزمَان فَوَاحَسْرَتي ... لِمَا فَاتَ منه وما ضَيَّعَا
ويـــا وَيْـــلَتَـــاهُ لذي شَيْبَةٍ ... يُطِيعُ هَوَى النَّفْسِ مَهْمَا دَعَا
وَبُعْدًا وسُحقًا له إذْ غَدَا ... يُسَمَّعُ وَعْظًا ولن يَسْمَعَا

هنا يلوم الشاعر من لا يقلع عن غيّه وضلاله وبخاصة إذا كان شيخا هرما، ولم يتب عن غيه وضلاله فحسرته أكبر على نفسه وعلى أمثاله، وإنه يدعو الناس إلى الإقلاع عن الضلال ، والعودة إلى الاستقامة فهي وحدها طريق النجاة. وربما كانت دعوته وحسرته على حاله تشبه قول زهير عن غي وضلال الفتى وغي وضلال الشيخ:

يقول زهير بن أبي سلمى:

وإن سفاه الشيخ لا حِلْمَ بعده ... وأن الفتى بعد السفاهة يحلَم

---

[1] الغبريبي، أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. رابح بونار. ش.و.ن.ت.الجزائر. الجزائر، 1970م. ص 129.

وفي هذا المعنى يقول حازم القرطاجني، من قصيدة نعنونها « بالتسبيح »[1]

[البسيط]

لَسُبْحانَ مَنْ سَبَّحَته الشُّهب والفَلَكُ ... والشمسُ والبدر و الإصْبَاحُ والمُلْكُ
يَا رَبنَا اغْفِرْ لَنَا اللَّهُمَّ واقْضِ لَنا ... بالخَيْرِ عِنْدك يَا رَحْمَانُ يَا مَلِكُ
نُنْهَى فَلاَ نَنْتَهِي عَنْ غَيٍّ أنفُسِنَا ... بل نَنْتَهي الغَايَةَ القُصوى ونَنْتَهِكُ
عَجِبتُ ممَّن بدتْ للشيب ضاحكةٌ ... في فُوده كَيْفَ يُلْهِي نَفْسه الضَّحِكُ
العُمْرُ مرحلةٌ والمرءُ في سَفَرٍ ... في كل حين إلى الأخرى له رَتَكُ[2]
دنياك تفنىَ ومـــا الأخرى بفانيةٍ ... فانظر لنفسك ما تُعْطِي وتَمْلِكُ
والحَقْ بطائفة بالحق طائفة ... واسلكْ سَبيلَهُمُ في كُلِّ ما سَلَكُوا

ويعبر عن حال الزهاد وعدم اكتراثهم بالمال وبالحرث أو الخيل المسومة غير أن بما يغري الناس ويرديهم ويهلكم هي هذه المغريات. فيقول:

كَأَنَّـــما الدَّمعُ فـــي عينيه منسكبـــاً ... عين بنـــــار زفير القــلبِ يَنْسبكُ
يضئ في هالة المحراب بدرَ هُدًى ... وتَنْجلي عنه إشراق الدُّجى الملَـــكُ
فاسلك سبيل أولي التقوى وخذ معهم ... في كل ما أخذوا وانسك كما نَسَكوا
وارغب إلى الله واســـأل منه مغفرة ... لعلـــه لــــك بـــالغفـــران مـــدَّرك

إنها دعوة شاعر زاهد متضرع إلى الله ملتجئ إليه، بدعائه في الصلاة. لينال رضاه وغفرانه، وفي نفس المعنى يقول حازم في قصيدته الطويلة يذكر فيها الذين سبقوه إلى الحج وإلى الضريح النبوي مسبحا لله. مستشفعا بالرسول الكريم قائلا[3]:

[البسيط]

يـــا ربنــــا هب لنــــا عفـــوا ومغفرة ... ورحمة منك يَا ذَا الطَّوْلِ والكرم
وجـــل عنــــا بأصباح لمغفرة ... ظـــلام ليل من الآثام مرتكم
وامنُنْ بما تَرْتجيه منكَ أنفسُنَا ... وانفعْ بما قلتُ من نظْمٍ ومن كَلِمِ
وافتح لنا باب رحماك التي وَسِعَتْ ... أهل الخطايا وبالحسنى لنا اختَتِمِ

---

[1] القرطاجني، الديوان، تحقيق: عثمان الكعاك. نشر دار الثقافة- بيروت- لبنان. ص10./ القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات. د/محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 174.

[2] رَتَكُ: مشي فيه اهتزاز، وترنح.

[3] القرطاجني، الديوان، تحقيق: عثمان الكعاك. نشر دار الثقافة- بيروت- لبنان.ص 98. وهي في التسبيح لله ومدح النبي صلى الله عليه وسلم.

هذا زهد المؤمن وزهد التقي الذي لا يريد إلا تطهير نفسه، من ذنوب علقت بها وأمله في الله كبير، أن ينال عنده العتبى والرضى، ولكن زهد العارفين الذين لم يميلوا كل الميل مع أهوائهم أو غرائزهم ودوافعهم في الحياة، كما لم يكن الرجل زاهدا في هذه الحياة التي يعلم علم اليقين أن الله جعلها للناس دار اختبار واعتبار وكذلك كان زهده . لا هو عازف عن الدنيا ولا هو مقبل على الأخرى وحدها. فقد اختار الدعوة إلى طريق الوسط والاعتدال والاستقامة. قبل فوات الأوان. تلك هي رسالته وخبرته التي صاغها في الثوب القشيب، ليقدمها إلى طلاب العلم، تجربة ملئت بالمشاعر عامرة بالعبر.

ومما قاله أبو عبد الله الأريسي الجزائري[1]، متضرعا إلى العلي الدير قوله:

يا من على جوده المعهود أتكل ويا ملاذي إذا ضاقت بي الحِيَلُ
غرقت في بحر آثامي فخذ بيدي وامنُنْ بعفو فإني خائف وجِلُ

هذا التفرغ وهذا الاحتماء بالله منبعه الإيمان اليقين وهو مضمن لقوله تعالى:

﴿ **وعلى الثلاثة الذين خُلِّفُوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رَحُبَتْ وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التَّوَّابُ الرحيم** ﴾ [2]

ومن زهديات ونسك أبي عبد الله بن الأبار القضاعي[3] هذه الأبيات:

تَجَافَتْ عن مضاجعها جُنُوبُ تُدَافِعُ بِالإِنَابَة مَا يَنُوبُ
وَهَبَّتْ أَعْيُنٌ في الله تَبْكِي خَطَيَاهَا وقدْ عُدِمَ الهُبُوبُ
يغازلُها الكَرَى فَتَصُدُّ عَنْهُ كما صدَّتْ عَنِ الفَرَجِ الكُرُوبُ
عليهم منْ شُحُوبِهِمُ سِمَاتٌ كَذَا سِيمَا المُحِبِّين الشُّحُوبُ

يبدأ الشاعر بوصف هؤلاء النساك المتعبدين بوصف من القرآن الكريم، قال تعالى:

﴿ **تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربَّهم خوفا وطمَعًا ومما رزقناهم ينفقون**﴾[4] تأبى النوم ويؤرقها التفكير في مصيرها، وفي خطاياها وفي يومها وفي غدها، أعين لا تعرف طعم النوم، تذرف دمعها غزيرا، حتى نحلت أجسامهم ومسها الشحوب، راجية أن ينالها رضى الله، ورحمته.

ويقول ابن الأبار في الزهد: هذه الأبيات المنتقاة:

---

[1] الغبريبي، أبو العباس أحمد بن أحمد، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. رابح بونار. ش.و.ن.ت.الجزائر. الجزائر، 1970م، ص287.

[2] سورة التوبة :الآية 118.

[3] ابن الأبار، الديوان: تعليق: د. عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر. 1985م. ص، 437.

[4] سورة السجدة، الآية 16.

دُنْيَاكِ للأُخرى سبيل سابلُ   فاعمل لها إن الموفق عامل[1]
واحْرِصْ على نيل السعادة جَاهِدًا   بالبرِّ والتَّقْوى فَنِعْمَ النَّـــائِلُ

وبعد أن يقدم في هذا المدخل وجهة نظره. وأنَّ الدنيا دار اختبار والفائز فيها من سلك طريق التقوى، والاستقامة. يصف الزّهاد في الدنيا وصنيعهم بالليل والنهار فيقول:

قُلْ لِلْمُنَاجِي في الدياجي ربّهُ   وَعَلَيهِ من غُلَلِ الِّصيَامِ غلائل[2]
يَتْلُو كِتَابَ اللهِ في أَوْرَادِهِ   فَرَحًا بِهِ وهو الحَزِينُ الثَّاكِلُ
أَبْشِرْ بِفرْدَوْسِ الجِنَانِ فإنَّهَا   لِلنَّـــــاسِكِينَ مسَــــاكِنٌ ومَنَازِلُ

من تعبد وأخلص في عبادته فالجنة هي المأوى، ونذكر هنا حادثة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، أنه كان يأخذ الدرة في يده ويضرب المتنسكين، المتمسكنين ويقول لهم « أمتم علينا ديننا أماتكم الله» وكان يقول: "المسلم القوي خير من المسلم الضعيف" إنما كان يريد عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) في المتنسكين أن يكونوا متعبدين بل عاملين متعبدين، لا منقطعين عن العمل متفرغين للعبادة وحدها.

ويقول محمد الظريف[3] في الوعظ والإرشاد:

قم من منامك واسل العجز والكسلا   وانظر لنعمة خلاَّق ومـــــا فعلا
النوم موتٌ فلا تعبأ بلذته   واحفظ حياتك لا تبغي بها بدلا
إن المنام يتقسي القلب سكرته   ويكسب الجسم من إفراطه عللا
ويذهب العمر مجانا لكثرته   ويورث الفقر للإنسان والكســـلا

وهي دعوة صادقة، فيها دعوة إلى العمل وترك الكسل. لأن الكسل مميت للنفس والنوم لا يأتي منه خير، بل يورث الفقر والكسل. إنها حكم صادقة تؤيدها التجارب في الحياة وهي دعوة من الشاعر إلى الإقبال على الحياة ، لا العزوف عنها بالنوم أو التعبد والتنسك حتى ينطبق علينا عمل الرهبان في أديرتهم وانقطاعهم عن الحياة. والقرآن الكريم يحذرنا من كل بدعة ابتدعها الناس ومنها الرهبنة[4].

---

[1] ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الديوان. تحقيق د/ عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر. تونس، 1985م، ص، 252.

[2] غلائل: الغليل: شدة العطش- الغيط-يقال شفي فلان غيضه، أو غليله. ج: غلائل.

[3] ح.ح.عبد الوهاب، المنتخب المدرسي في الأدب التونسي، المطبعة الأميرية، القاهرة 1944، ص110.

[4] قال تعالى: ﴿**وجعلنا في قلوب الذين اتَّبَعُوه رَأْفَةً ورَحْمَةً، ورهبانيَّةً ابْتَدَعُوها**.....﴾ سورة الحديد، الآية 27.

وفي المعنى نفسه يقول: محمد الظريف التونسي[1]:

كن واثقا بجميل الصبر وارض بما　　يقضي الإله، فحال الدهر ضِدَّان

لا الحزن يبقى ولا الأفراح دائمـــة　　فمشرب الدهــر لا يصفو لإنسان

تلك هي نظرة الشاعر للزمن بأنه لا يصفو لإنسان فالدهر من فرح إلى حزن أو هو هكذا متقلب، متبدل، متغير، لا تصفو مشاربه، وهذا قريب من قول المتنبي[2].

فالشاعر يستلهم أقوال الشعراء القدامى ويضمن حكمهم ومواقفهم في الحياة، فيصدر عن حكمة بالغة، وإن كانت مغلفة في ثوب الواعظ لا في ثوب الفنان! وربما قصد بالدهر قول الشاعر المتنبي:

ربما تحسن الصنيع لياليه　　ولكن تكدر الإحسانا

وفي القناعة: يقول الخطيب أبو عبد الله محمد بن صالح الكتاني، نزيل بجاية[3]:

جعلت كتاب ربي لي بضاعة　　فكيف أخاف فقرا أو إضاعة

وأعددت القناعة رأس مـــال　　وهل شيء أعــز من القناعة؟

إذا كان الخطيب الكتاني يرى في القناعة رأس مال لا يعوضه التهافت على الدنيا والحرص عليها، والجري وراء حب الاقتناء وحب التملك واستظهاره أمام الناس، بما يملك كل واحد في هذه الدنيا[4].

وإن كان بعضهم يرى في القناعة دعوة إلى الخمول، والرضى باليسير القليل وهو مسلك العاجزين الذين لم يقدروا على مواجهة الحياة، ليحققوا لأنفسهم الرفعة والمكانة الاجتماعية بين الناس.

ومهما يكن فإن في الأمر، تضارب آراء.

وأن القناعة ليست محمودة في كل الأحوال وإذا كان الخطيب يلخص معنى قرآنيا، وهو قوله تعالى:

﴿ولا تقتلوا أولادَكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئا كبيرا﴾.[5]

﴿...ولا تقتلو أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ... ﴾[6]

وفي آية أخرى يدعونا القرآن الكريم إلى السعي في الحياة وعدم الاتكال والتواكل فيقول عز من قائل:

---

[1] النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص، 103.

[2] قال: صحب الناس قبلنا ذا الزمانا　　وعناهم من شأنه ما عنانا.

[3] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د/ إحسان عباس. دار صادر. (ج 1-8).

ج 4. ص316.

[4] قيل قديما: « القناعة كنز لا يفنى ». قول مأثور.

[5] سورة الاسراء، الآية 31.

[6] سورة الأنعام الآية 151.

﴿**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور**﴾[1]، ﴿ **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**﴾.[2]

وقال تعالى: ﴿**وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون**﴾[3]. وقال أيضا: ﴿**فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره**﴾[4].

وقل تعالى: ﴿**من كان يُريد حرْثَ الآخرةِ نزِد لَهُ في حرثه ومن يُريدُ حَرْثَ الدنيا نؤته منها وما له في الأخرة من نصيبٍ**﴾[5].

علما أن لكل آية معنى مرادا به ومناسبة في نزول هذه الآيات وإن كان المعنى العام هو المشار إليه آنفا.

ومما قيل في غرض الزهد والرجاء في الظفر بعفو ومغفرة من الله قول ابن الغماز[6]:

وقالوا أما تخشى ذنوبا أَتَيْتَها ... ولم تكُ ذا جهل فتعذر بالجهل
فقلت لهم هبني كما ذكرتُمُ ... تجاوزت في قولي وأسرفت في فعلي
أما في رضى مولى الموالي وصَفْحِهِ ... رجاءٌ ومَسْلاةٌ لِمُقْتَرِفٍ مثلي

ومما قاله في آخر يوم من حياته[7]:

أدعوك يا رب مضطرا على ثقة ... بما وعدت كما المضطرُّ يدعوكا
داركْ بعفوك عبدا لم يزل أبدا ... في كل حال من الأحوال يرجوكا
طالت حياتي ولمّا اتَخِذْ عملا ... إلا محبة أقـــــوام أحبُّـــوكا

فالشاعر اختار النبيّ الحبيب ومن يحبه، طمعا في مغفرة ذنوبه ومن يغفر الذنوب إلا الله.

---

[1] سورة الملك الآية 15.

[2] سورة الجمعة آية 10

[3] سورة التوبة 105.

[4] سورة الزلزلة الآيتين (7، 8)

[5] سورة الشورى ، الآية 20.

[6] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس. دار صادر، ج 4. ص 239.

[7] م. ن، ص 240.

الرثاء :

هذا أصدق الفنون والأغراض الشعرية، وأكثرها تعبيرًا عن النفس الإنسانية في حالات حزنها وخوفها وفزعها... من المصير... مصير الموت الآتي... ففي الموت عظة، وفي الموت تأسي، وفي الموت... الشعور بالضعف والعجز، والموت عندنا - كمسلمين - أبرز حقيقة الخلود والفناء... وأصبح الشاعر معبرًا عن هذه الفكرة العميقة عمق التاريخ ووجود الإنسان، ومواجهته لمصيره المحتوم هل الموت إلى قرار أم إلى فناء، أم إلى بعث ونشور؟. عندنا كمسلمين حسمت القضية وأن الموت حق ولا خوف منه ولا فزع، فإن الحياة هي الفانية... وأن الموت يفضي إلى خلود ما بعده موت... وفي هذه القيم الإنسانية سار الشاعر والشعر العربيين في سبر أغوار النفس الإنسانية في حالات فزعها ومواجهتها للموت... فمنهم من صبر واعتبر ومنهم من تأسى وحزن حزنا أفضى به إلى الشك والحزن الأبدي... متبرما من الدنيا وما فيها من مباهج... إذا ما فكر في أجله... وفي مصيره... ومنهم من اعتبر الموت، حقًا، وآية من آيات الله في الكون يواجهه الإنسان بصبر، ورباطة جأش، غير أنه لا أحد يقوى على مسك دمعه وانفطار قلبه، أو مسك مشاعر حزنه وخوفه وقلقه.

وكان العزاء الوحيد هو: الإشادة بخصال الراحلين والذاهبين إلى العالم العلوي حتى يخفف الشاعر على نفسه، وعلى القارئ علَّهُ يبدل حالاً بحال.. بل هو مضطر لأن يخرج من كآبته ومن حسرته ومن حزنه إلى عالم ينسيه الموت وفجيعته، فيشيد بتلك القيم الإنسانية والإسلامية للميت، لأن تلك القيم ستبقي الناس وتبقي ذكراهم على مر الأزمان.

وبخاصة في جليل أعمالهم، التي تخلدهم وتجعل منهم أبطالاً، أو أساطير لا تفنى ولا تذهب وذلك ما كان يصنعه الشعراء في أشعارهم.. فالخيط الذي يمسكون به هو الأمل، والتغني بتلك الخصال، وحث الناس على التحلِّي بها.

والرثاء في الشعر نوعان:

1 - رثاء الناس.

2 - رثاء الأوطان والمدن، والممالك.

فأما النوع الأول:

فمن أمثـــلته قول الشاعر:

شهاب الدين بن الخلوف.[1]«القسنطيني المولد»:التونسي الدار والمسكن.

---

[1] حسن حسني، عبد الوهاب، المنتخب المدرسي في الأدب التونسي. المطبعة الأميرية. القاهرة، 1944م، ص110.وهي من (البسيط)

وقدمات له ابن صغير[1]

أَصَبْت عيْنَ المَهَا يا مَوْتُ بالرَمَــد   وقد أَهَضْتَ[2] جَنَاحَ المجد فاتَّئدِ
ناجزت في صرف آجال قد اقْتَرَبَتْ   إذْ لم تُسَلِّمْها إلا يدًا بيَـــــدِ
كمْ زِدُتَ في نقصك العَلْيَا جَوَى كَبدٍ   حَرَّى، فيا ليتَ لم تَنْقُصْ ولَمْ تَزِدِ
وَكَمْ قَطَعْتَ غصونا غيرة فَــــذَوَتْ   كأنكَ القَلْبُ مجبولٌ على الحَسَدِ
وكم تركتَ أبًا يبكي على ولـــــدٍ   أَذَقْتَهُ طَعْمَ ثُكلِ الأُمِّ للولَدِ
لا تحسبنَّ سرورًا دائما أبـــــدًا   من سرَّه اليومَ وافاهُ اكتئابُ غد[3]
والعمر ميدانُ سَبْقٍ والحِمامُ مَدَى   وكل جارٍ سيلْقَى غايةَ الأَمَـــــدِ
يـــا ليلة باعتلاج البرق قد عـــلقت   جوزاؤها كاعتلاق القلب بالكبـــد
وَكَمْ تَصَبَّرْتُ حتى لاَتَ مَصْطَبَـــرِ   فالآن أجْهَدُ حَتَّى لاَتَ مُجتَهَـــدِ
عمري لقد غالنا الرزء الذي طرقت   به الليالي وجل الخطب من جلدي
هي المقادير فاقبل ما حبتك بـــــه   من آجلٍ نَضِرٍ أو عاجلٍ نَكِـــدِ
فـــللأمور مواقيتٌ مقــــدَّرة   مـــا بين مُنعكسٍ منـــها ومطَّــرد
لَهَفِي! وهـــل نافعي لهفي على ولدٍ   إذا لَجَأْتُ لـــصبرٍ فيه لـــم أجـــد
وكـــم طلبت الليالي أن تغيبــــه   عن المنايا فلم تفعل ولـــم تَكِــــدِ
بُنيَّ لَيْتَكَ لم تُخلق لِوَرْيِ بلًـــى   يَا لَيْتَنِي لَمْ أُسَمْ بِالصَّبْرِ عَن شَهَدِ[4]
ما كان أقصر ساعاتٍ بك ارْتُصِدَتْ   فليتنى كنت موقوفًا على الرَّصدِ[5]
سقى الحَيَا قبرك الزاكي وواصلـــهُ   سحَابُ عفوٍ وغفرانٍ مدى الأبـــدِ
وصبَّر الله قلبَ الوالدين علَى   منْ حرك الوجْدُ فيه ساكن الجلَدِ

---

[1] ابن الخلوف، الديوان: تحقيق: هشام بوقمرة، ص250.

[2] أهضت: كَسَرْتَ، طائر مهيض الجناح، مقصوص.. وكسير جناحه.

[3] اقتبس من قول الشاعر : أبي البقاء الرندي:

هي الأمور كما شاهدتها دول   من سره زمن ساءته أزمان

[4] لِوَرْيِ بلى: ليتك لم تخلق لهذا العالم، البلي، لهذا العالم الغاني - ومنه بلى الدَّارِ أَدِفَنَتْ البلى: القدم والفناء. والفساد. والثوب الخَلِقُ. البلى القديم، الذي فنى...

[5] رَصَدَ: قعد لهم على الطريق يرقبه. الرصد: الرقيب والمراقبة. قال تعالى: « فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدًا » سورة الجن(7). وقال تعالي: «فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا» الجن (27). وقال تعالي: «إن ربك لبالمرصاد» الفجر (14). أي يرقبك ولا تفوته. وقال تعالي: «وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلَّ مَرْصَدٍ» التوبة (5). كما يطلق على الموضع الذي تعين فيه حركات الكواكب. ج: مراصد.

يبدأ بالحديث عن الألم الذي يعاني منه والفاجعة التي ألمت به، فأطفأت النور في عينيه وأَصْمت القلب، وقسمته الرَّزية أعشارًا أعشارًا. ثم يخرج إلى الحديث عن الدهر فيقول: الدهر يومان: حزن وفرح، أو سخَطٌ ورضًى ثم يرسل إلى القارئ حكمة في مواجهة الخطوب، بالصبر والتجلد ولكنه يقرر أنه لَمْ يَقْوَ على الصبر مع هول الفاجعة وفقدان صغيره ولات حين وقت للصبر والتجلد!

أجهد نفسي على التجلد، ولكن غير مُجد، اصطباري وتجلدي ولولا تجلده واعتباره بالسابقين لقتل نفسه حزنًا وكمدًا، ولكنه يضمن معنى الشاعرة الخنساء في قولها:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

ثم يصف في آخر بيتين حالته فيقول:

كم كان الزمان قصيرا في ترقبك وانتظارك وترصُّدك، في كل وقت وآن... وكم هو طويل اليوم. طول ليالي السهاد والأرق، يا ليتني كنت الآن على قارعة الطريق أرقبك، راصدًا قدومك أو غدوك ورواحك حتى لا أشهد فراقك وغيبتك!

أي حزن أبلغ من هذا وأي جرح أعمق من جرح الشاعر!

كان أمله أن يرقب ابنه عله يعود ذات عشية أو مساء فإذا بالأمل لا أمل ولا رجاء...

وإذا بالأب المكلوم الذي يمكن أن يعلل نفسه بخيال أو طيف من ابنه قد يطل عليه... إذا به الآن يفقد كل أمل في رؤيته فيتمنى لو لم يعرف هذا الوجود، ولا هذا الحب ولا عاطفة الأبوة التي لا يطفئ حرارتها سوى الإيمان بأن الذي أعطى هو الذي أخذ... وأن الناس كلهم إلى فناء وموت... ثم حياة ينعم فيها الناس بالنعيم الأبدي وبالخلود الذي لا فناء بعده...

ويقول ابن الأبار في رثاء الفقيه (أبي الربيع بن سالم).[1] وهي قصيدة نعنونها بـ: (العلماء) ومن يبكي العلماء كمن يبكي الأبناء:

أَلِمَّا بِأَشْلاَءِ العُلَى وَالمكـــــارِمِ	تُقَدُّ بِأَطْرَافِ القَنَا والصَّـــوارِمِ
وَعُوجَا عَلَيْهَا مأْرَبًا وَحَفَــاوَةً	مَصَارِعَ غَصّتْ بالطُّلى والجماجم
نُحيّي وُجُوهًا في الجِنَان وجيهـــةً	بِمَا لَقِيَتْ حُمْرًا وُجُوهَ المَلاَحِـــــم
مُكَرَّمَةً حتى عن الدَّفنِ في الثَّرى	وَمَا يُكْرِمُ الرَّحمن غَيْرَ الأَكـــــارِمِ
مَضَوْا في سَبِيــل الله قُــدْمًا كأنَّمـــا	يطيرون في إقْدَامهم بِقَـــــوادِمِ

[1] ابن الخلوف، الديوان: ص275. القصيدة من الطويل.

ثم يدعو لهؤلاء الشهداء بالمغفرة وحسن الختام، ويمدح صنيعهم، الذي أصبح مثلا للأجيال في الدفاع عن الدين والوطن. فيقول:

سَقى الله أشلاءً بسفح (أنيشةٍ) سوافح تُزْجيها ثقال الغمـــائـــم
وما بذلوا إلا نفوسًا نفسيــــــة تَحِنُّ إلى الأخرى حنين الرّوائم

لقد وهبوا أنفسهم ودماءهم الزكية رخيصة في سبيل الوطن والإسلام. وينتقل الشاعر إلى وصف أستاذه بل كل عالم مجاهد آثر حياة العز على حياة الذل والهوان مثل أبي الربيع بن سالم، فيقول[1]:

وبين الثنايا والمخَارِمِ رِمَّـــــــــــــة سرى في الثنايا طيبهـا والمخــــارم
بكتها المعالي والمعالم جهـــــــــدها فلهفَ المعالي بعدَهـا والمــــعالم
سعيــدٌ صعيدٌ لــم تــرُمْه قـــرارة وأعظم بها وسط العظـام الرَّمــــائم
كــأن دمًــا أذْكَي أديــم ترابــــها وقد مازجته الريح مســك اللَّطائــم
يشق على الإســلام إسلامُ مِثْلِـــها إلى خامعــات بالفــلا وقشــاعم[2]
فــوا أسفًا للــدين أَعْضَــــــل داؤه وأَيْأَسَ مِــنْ آسٍ لــمسراه حــاسم[3]
ويـــا أسفــا للعلم أقوَت ربُوعُــــه وأصبح مهدود الذُّرى والدَّعــــائِمِ
قضى حامل الآثار من آل يَعْـــُـرب وحامي هدى المختار من آل هاشم
خبا الكوكب الوقاد إذ متع الضُّحى لنَخْبَطَ في ليلٍ من الجهْل فَاحِــمِ
ســـلام على الدنيا إذا لــم يَلُحْ بــــها محيًّــا سليمان بنِ موسى بن ســالــمِ

ويستمر ابن الأبار يعدد تلك المناقب من علم وأخلاق، وشجاعة، وقدوة للناس فيقول:

تفرَّد بالعلياء علما وسؤددا وحسبك من عالٍ على الشهب عالمِ

---

[1] ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الديوان. تحقيق د/ عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر. تونس، 1985م، ص 279.

[2] خامع: ج. خوامع، خامعات، الصبع./ القشاعم: ج. قشعم، المسن من النسور. ويقال للحرب والمنية والداهية والضبع والعنكبوت والذِّلة: ام قشعم.

[3] أعضل: أعضل عليه الأمر ، اشتد، واستغلق. وعضل المرأة منعها من التزوج ظلما. وفي التنزيل العزيز:﴿ **فلا تعضلوهنّ أن ينكحن أزواجهنّ**﴾ البقرة الآية 232.

وقال تعالى: ﴿**يا أيها الذين أمنوا لا يحلُّ لكم أن ترثوا النساء كَرْهاً ولا تَعْضُلُوهنَّ لتذهبوا ببعض ما آتيتموهنَّ**....﴾ الآية 19 من سورة النساء.

هذه القصيدة بحق مرتبة للعلم وللعلماء وهي وثيقة عهد ووفاء بين فقيه عالم ومريده ابن الأبار الذي بث في هذه القصيدة، خلاصة رحيق تجاربه، وحزنه على أبي الربيع ومن كان مثله في هذه الدنيا، وقد نذر نفسه للعلم، وللدفاع عن الذمام والشرف، لم يكن رجل كلمة فقط بل أتبع الكلمة بالفعل، وتقدم الصفوف منافحًا عن الوطن وعن الدين. فكان بحق رمزًا من رموزنا التي نعتز بها على مدى الأيام.

حين عزَّ على الناس البذل والعطاء من أجل الأوطان. فإن القيم التي امتدح بها الشهيد (أبا الربيع بن سالم) هي قيم الإسلام، وهي قيم حب الوطن، وهي قيم الشرف والدفاع عن الحمى.. وحتى يكون العلماء قدوة ومصداقًا لقوله تعالى[1]:﴿**إنما يخشى اللهَ من عباده العلماء**﴾. كانت تلك حياة أبي الربيع، نموذجا ونبراسًا يقتدى. وعندما افتقدت الدولة الحفصية، رائدها، وأميرها وسلطانها: أبا زكريا يحيى الذي وافاه أجله بمدينة (بونه) عنابة، بالجزائر 647هـ.

وقف ابن الأبار يمدح في شخص أبي زكرياء هذه المثل العليا: فقال[2]:

[الكامل]

بِينِي ثلاثًا سلوةَ الأيـــــام ... أَوْدَى الحِمـــامُ بناصر الإسلام
ودعا دعامتهُ إلى تعـــــويضها ... تأسيسه بالتُّرب دار مُقَـــــام
دهى الورَى من ثكل هاديــهم بما ... أعيا على الأفهام والأوهـــام

ويمضي في تصوير حال الحزن، وفداحة الخطب فيقول:

خَطْبَ الخُطوب أباح محتكمـا حمى ... تــلك الملوك فَطَاحَ دون مُحَـامِ
أنَّى ومن أين استـدار لـــه الرّدى ... والجيــش ملء عمائر ومــوام[3]

ثم يشبه التشبيه الرائع في قوله:

سيف الهدى أوْدَي به سيفُ الرَّدى ... قَدْ يَفْتِكُ الصّـمْصامُ بالصّـمصام
مـا للنجوم طوالعًا؟ ما للجـبا ... لِ رواسيا؟ ماللبحار طــوامي؟
لِمْ لمْ تغر لِمْ لمْ تزل لِمْ لمْ تعِضِ ... من شدّة الحســرات والآلام؟
في بونةٍ بانت حياة المرتضَـــى ... يحيى وَقِيدَ إلى الثَّرى بزِمَـامِ

---

1 سورة فاطر آية 28.

2 ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الديوان. تحقيق د/ عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر. تونس، 1985م.

3 موام: ج: موماة. وهي المفازة الواسعة.

لمَّا ثوى دار السلام ترحـَّــــلتْ   عنَّا محاسن دَهْرنا بســــــلام

ثم يختم قصيدته بمدح شمائل أبي زكرياء الذي أقام للدين وللدولة عرصاتها...إلى أن اختطفه الموت، فكانت تلك المحامد والمناقب علامات على طريق الحياة فيقول:

تلك الشمائل كالشمائل قد سَمَتْ   بأبي غمامٌ مُقلعٌ بغَمَــــــام
كنتُ المطيل مُهنَّئًا ومُعــــــزِّيا   لكن كفانيها أبو تَمَّــــــــامِ
«تِلْك الرَّزيَّة لا رزيّة مثْلُهَــــــا   والقسمُ لَيْسَ كَسَائرِ الأَقْسَــامِ»[1]

هذه المعاني الإسلامية، وهذه الروح القوية، هي التي كانت تمد الشاعر بمعاني المدح والفخر، والمجد، الذي لا مثل له. بذلك مدح سلطان تونس والجزائر أمير الدولة الحفصية مخلدًا لمآثره ومحاسنه وعدله وورعه. وبتلك القيم الإنسانية، يُخَلَّدُ الرجال. والمولي أبو زكرياء من أعظم أمراء الدولة الحفصية وهو جدير بهذه الخصال التي يمتدح بها الرجال، فهو مدح وإشادة بالمبادئ الإسلامية التي جسدها أبو زكريا في نصرته للمسلمين في الأندلس والمغرب، ونشره للعدل والمساواة بين الناس حتى أصبحت دولة الحفصيين يشار إليها بالبنان، بما تفردت به من خصال كريمة في عهده. وعند وفاته... رثاه كثير من الشعراء ومن أحسن ما قيل فيه قول الشاعر: أبي عمرو عثمان بن عتيق المهدوي (ابن عربية).[2]

[الكامل]

يلذ زمان للفتى ثم يوقــــــع(!)   ويضرّ هذا الدّهر ثمّة ينفـــــع
بابن طوائد الإمامـــة مغرب(!)   فلقد جلا شمس الخلافة مطلع
فأضاء بالمرحوم ذلكـــم الثرّى   وأنار بالمنصور ذلك الـــــمرتع
بسطوا لسان الشكر فيمن بايعوا   وثنوا عنان الصَّبْر فيمن وَدَّعُوا
ورأوْا جلال محمد فتبا شـــروا   وتذكروا يحي الرضى فتفجــعوا

لينشد الشاعر قصيدة على وترين اثنين هما:

الماضي والحاضر

الذاهب والقادم

الحزن والفرح

---

[1] ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الديوان. تحقيق د/ عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر. تونس، 1985م. ص262. البيت لأبي تمام يمدح الواثق.ويعزيه في والده المعتصم. انظر :ديوان أبي تمام ص:209.

[2] الأدلة البينة النورابلة: للشماع تحقيق د/ الطاهر بن محمد المعموري. الدار العربية للكتاب. ط 1984. ص:62 وانظر الفارسية ص:

فهو يحدثنا عن الزمان وكيف تلتذ نعماؤه للناس، لكن سرعان ما توقعه في المحظور... وفي الحذر المحذور من دون أن يدري؟ وفي العجز يقول: إن الدهر يضرنا ويحزننا، ولكن قد يسعدنا وينفعنا إذا كان أبو زكرياء قد ولد بالمغرب، فلقد تجلت عظمة هذه الخلافة من المشرق (الجزائر، تونس، ليبيا). وهذا الإشعاع بواسطة ولي عهده المنتصر... أو المستنصر.

لقد فرحوا بولي العهد، وأفاضوا الحديث فيه، ولبسوا ثياب الصبر فيمن ودعوا، والشاعر متنقل من فرح إلى حزن، لا ينسى الرجل الذي رحل ولا الرجل الذي جاء واستبشر الناس به. فهو يحاول أن يزاوج بين مشاعر الحزن والأسى ومشاعر الغبطة والرضى بالأمير الذي جاء...

ولكن لولا الصبر على أبي زكرياء لكانت الفجيعة والتفجع في عيون الناس أبديًا سرمديًا.

فهذه القطعة على قلتها حملت دلالات كثيرة! كيف أن الإنسان لا يستطيع أن يعيش ظاهرتين نفسيتين في آن واحد، فهو إما فرح مسرور، أو حزين متألم، ليحصل عند الإنسان ما يسمى بالتكيف والانسجام، ولو بقي على حال ليس فرحا ولا قرحا تجاذبه مشاعره المتناقضة فإن التوتر هو الذي يسود ويؤدي إلى الحيرة والقلق، ويخلق ما يسمَّى بالعقد النفسية، فالإنسان غير قادر في مشهد واحد.

يودعون راحلا فيحزنون ويبدون في أنفسهم من مظاهر الحزن والأسى. ثم فجأة، يفرحون بالذي جاء خليفة لهم فيسعدون ويفرحون بمقدمه.

إن النفس الإنسانية تأبى هذه الحالة المركبة بل إن الشاعر حاول أن يظهر ما يكنه الناس من ولاء وحب .. ووفاء للذي ذهب ... وحب وفرح بالذي جاء ... فقد استعاضوا عن أحزانهم بالفرح والسرور وهو أنسب للنفس الإنسانية.

الغزل:

لا أريد هنا أن أعود إلى تعريفات القدماء والمحدثين لغرض الغزل وماهيته وأنواعه. ولكني سأقف على موضوع من موضوعاته المتعددة، وسأتخير موضوع الغزل العفيف عند شعراء الدولة الحفصية لأن هذا الغرض –أيضا- شاع مثلما شاع في المشرق وانتشر بين الناس وهو الأغلب الأعم. أما الشعر الماجن وما إليه فإنني سأصرف عنه النظر والحديث وأعود لأتتبع أشعار العفة والعفاف، وماذا قدم فيها شعراء القرون المتوسطة في منطقة (الجزائر وتونس) تحديدا وماذا أضافوا من معاني وصور، أو أخيلة وعواطف وهي عماد شعر الغزل.

يقول ابن الأبار[1]: [الكامل]

وحمامة ناحت فنحت إزاءها ... فلو استمعتَ لقلت: هذا المأتمُ
أبكي وتبكي، غير أني معرب ... عما أكِنُّ من الغرام وتعجمُ[2]
وأُرَدِّدُ الزَّفراتِ أثناء البكا ... وتظل فوق أراكها تترنَّـمُ
فإذا أَصَاخَ لشدوها وتأوُّهي ... واعٍ يقول: خليةٌ ومتيَّمُ!

ويقول من قصيدة أخرى ويصف شوقه وحنينه:[3] [الطويل]

وقد سرَّها في صدقي السِّرَّ أنّ لي ... بقلبي لهـا مـا لا يحسُّ به الصَّبرُ
لهان علي الصَّعب من حب عَمرةٍ ... وإن غـاب في أعقاب رحلتهـا العمرُ
يقولون أنبعت الصَّبا آهةَ الهوى ... فقـلت ارتشاف الرَّاحِ يتبعه السُّكـرُ
صبرت إلى أن أومأت بسلامِها ... فلمـا استقـل الرَّكْب أسلمني الصَّبرُ
ومن أين أو كيف التجلُّد للنوى ... و«مدٌّ[4]»الأسى في القلب ليس له «جزرُ»
حيـاتي هجـرٌ كـلهـا وقطيعـةٌ ... أمـا آن أن تفـنى القطيعة والهجرُ؟

---

[1] ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الديوان. تحقيق د/ عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر. تونس، 1985م، ص284.

[2] البيت: مضمن لمعنى قول أبي فراس الحمداني :"في قصيدته الحمامة المطوقة"

1- أيضحك مأسور وتبكي طليقة ... ويسكت محزون ويندُبُ سال؟

يقول في مطلع قصيدته:

2- أقول وقد ناحت بقربي حمامة ... أيا جارتا هل تشعرين بحالي

أدباء العرب: بطرس البستاني دار مارون عبود لبنان. ج4 ص.257

3- أيا جارتاما أنصف الدهر بيننا ... تعالي أقاسمك الهموم تعالي؟

[3] م.ن. ص216.

[4] المد : ارتفاع ماء البحر على الشاطيء، وهو ضد الجزر :انحسار الماء عن الشاطيء والمراد : أن مدِّي ليس له جزر ، أنا مضطرب واضطرابي لايزول، فالبحر أهدأ مني وأسلم أما أنا فمرجلي يغلي ومائي يفور.

يجسد الشاعر هنا تلك المعاني القديمة التي عانى منها شعراء الغزل وكيف عالجوا الهجر والغرام والصد فيقول: ومن أين لي الصبر والتجلد؟ وقد طغى الحبيب فبعد وبعدت داره، وإذا كان أمثالي لهم ما يسلون به عن المحبوب، فإنّي لا أجد ما أسلي به النفس. ثم يأمل أن يزول البعاد ويعود القرب الذي كان.

والهجر هجران: هجر عن الوطن وهجر عن الحبيب، وقد ضمنها الشاعر في معنى واحد، إذ قال: حياتي هجر !!

وأي أسى أبلغ من أسى ابن الأبار الذي لا أمل له في غلبة الهجر، وفي كلمات يائسة مؤلمة يستسلم لقدره المقدور، ولهجره الذي لا لقاء بعده. لنا أن نتصور ماذا يصنع الشاعر بنفسه وماذا يصنع به حبه وهواه؟ لا شيء يزيل همه وحزنه إلا قرب الحبيب، وإلا فحياة اليأس والحزن ستبقى تلف حياته إن كانت له حياة يسعد بها. وهو ناءٍ عن الحبيب وعن الدار

ويقول حازم القرطاجني:[1]

[البسيط]

يـــا ظبية الربرب[2] الحالي سوالِفـــه	مـــن قلـــد الحلي آرامًا وغِزلانـــا
ويـــا شقيقـــة بـــدر التَّمِّ لـــو أمنت	كمـــا أمنت بدور التَّـــمِّ نقصانـــا
حـــاشـــا للحظِك أن يعزى إلى رشأ	إذا تلـــفَّت نحو السِّرب وسنـــانـــا
ولابتسامك أن يُعْزَى إلى زهرٍ	إذ غدا بسقيط الطَّل ريـــانـــا
ليت العيون التي ترنو فتسحرنا	كانت كما نحن نهواهنّ تَهْوَانـــَا
يا عاذلي في الهوى أقْصِرْ فلست أرى	مقصِّرا في الهوى عن شأو غيلانا[3]
وإنَّـــابني الحب لا نصغي إلى عـــذلٍ	ولا نميـــل إلى العـــذَّال آذانـــَا
ظبيٌ غـــدا يرتعي حبَّ القلوب ولا	يـــرعى عَرَارًا بمـــوماةٍ وظيَّانَـــا[4]

إن حازما يرى محبوبته جميلة كالرئم، حسنها أصيل كحسن الغزلان وأن جمالها لا يماثله شيء فهي فوق كل جميل ثم يصف أثر العيون في المحبين ، فيقول ليت عيون الحبيب التي سحرتنا وأحببناها تبادلنا الحب

---

[1] القرطاجني، قصائد ومقطعات، تحقيق: د محمد الحبيب بن خوجة، الدار التونسية للنسر ص209. انظر الديوان تحقيق عثمان الكعاك ص، 117.

[2] الربرب : القطع من بقر الوحش

[3] غيلان : صاحب مي، وهو الشاعر المشهور (ذو الرمة)

[4] حَبُّ القلوب: مهجته وسويداؤه. العرار : من أشجار الجبال، كالنبع، والنشم، والظيانا، كما قال الأصمعي والظيانا: ياسمين البر، وهو يشبه النسرين.

والهوى كما نحن نهواها. أما من ينتهره بالابتعاد عن الهوى فيردعه الشاعر ويزجره قائلا: دعني فإنني عن الحب لا أقصر ولا أحيد، حتى أبلغ شأو غيلان أو أكثر منه. إن هذه التي علقتها سكنت فؤادي وروحي فقلبي مسكنه وروحي مرعاه ومرتعه.

أما حازم فإننا نجد في شعره الغزلي مالا نجده عند غيره لأنه ناقد ومنظر لهذه الأغراض الشعرية وله رأي فيها وكيف تتأتى على الشعراء هذه المعاني، وهذه القيم وتلك الأوصاف والأنواع، فهل الشاعر حازم كان حازما مع نفسه في تطبيق تلك المقاييس النقدية في قصائده الغزلية؟ أم أنه تجاوزها ولم يجعلها قيدًا يقيده؟

إذا لاحظنا قصائد الغزل عند حازم وجدناها أربعًا كما وردت في الديوان تفنن في صناعتها وإخراجها إلى الناس في أحسن ثوب وسنقف على بعضها[1]

الأولى مطلعها:

أدر المدامة فالنسيـــم مؤرج   والروض مرقوم البرود مدبَّج

الثانية مطلعها:

نبّه جفونك للصَّبـــوح وأيقظ   وانظر نهاية كل حسن وألحظ

الثالثة مطلعها :

سلطان حسن عليه للصِّبا عـــلم   إذا رأته جيوش الصبر تنهزم

الرابعة قوله:

يا ظبية الرَّبرب الحالي سوالفه   من قلد الحلي آراما وغزلانا؟![2]

هذه فقط هي قصائد الغزل عنده وربما كانت أبيات أخرى من الغزل وردت في قصائده الكثيرة كقصيدة المدح عادة وفي المقصورة خاصة.

أما قصيدته الجيمية فإنها فاقت كل قصيدة وأزرت بغيرها حتى عارضها كثير من الشعراء فما بلغوها معنى ولا لغة ولا أسلوبا ولا وصفا ولا عاطفة متفجرة كتفجر الكلمات ونبضها الموسيقي الذي يحرك كل نفس مهما كانت حالاتها المتقلبة بَيْنَ الفرح والسرور والحزن والأسى، فالشاعر عزف في هذه الجيمية

---

[1] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات. د/محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م،ص 105.

[2] المرجع نفسه ص 106. الربرب : القطيع من بقر الوحش – السوالف، ج سالفة: صفحة العنق، عند معلق القرط والمرأة المسلف: إذا بلغت الخمس والأربعين سنة، أو نحو ذلك.

على وتر النفس الأبدية الخالدة، لم يقصد إلى ذاته أو فئة معينة بل سبر أغوارٍ النفس الإنسانية وما يطرأ عليها من همّ وتسهيد ومن حب وجفاء ومن إعراض وصدود، وهو في كل ذلك يخرج ويطل علينا بحكم خالدة وليعبر عن هذه النفس التي تأمل أن يغمرها الحب والوفاء، وتملأ فيافيها المحبة والود الصادق . فيقول[1]:

فترقب السَّراءَ من دهر شجا   فالدهر من ضدٍّ لضدٍّ يخرجُ

وترجَّ فُرْجَةَ كلِّ همٍّ طــارق   فلكلِّ همٍّ في الزمـــانِ تفرُّجُ

فحازم في هذه الجيمية يجنح إلى الصبر لأنه مفتاح انفراج كل الكروب، كرب الحبيب في قربه وفي بعده ...ولكن الدهر من ضدٍّ إلى ضدٍّ، من حزن إلى فرح ومن بعد وهجر إلى قرب ولقاء. ولولا فسحة الأمل لاستحالت حياتنا ولتحولت إلى سواد....وإلى انسداد...وإلى عذابات لا تنتهي ...فيا لها من صور متتالية للحبيب والمحبوب وهو يمد جسور المودة إليه والزمن يقطع كل ممدود...عندما يستفيق الشاعر من غفوته ،ومن عبث الزمان به يقر :أنه خبر الحياة وجربها فجادت قريحته بهذه الحكمة البالغة ..للمحبين ولغيرهم ممن صفت لهم الحياة أو نكدت... فيقول:

وأقول يا نفسي اصبري فعسى النَّوى   بصباحِ قربٍ ليلُها يتبلَّجُ

والزمان عنده كما قال المتنبي[2] في المعنى نفسه: أحزان ومسرات ولا شيء يدوم على حال...حتى النفس الإنسانية لا يمكن أن تستقر على حال واحدة من الحزن أو الفرح، فهي متقلبة كالتيار المتدفق دائم التبدل والتغير...ولو لم تكن كذلك –نفوسنا- لاستغرقنا في أحزاننا ولبسنا ثوب القلق الأبدي وذلك مخالف للطبيعة البشرية... وكان النسيان وكان التغير والتبدل في حال النفس الإنسانية من الحزن والفرح والسرور في دورة مستمرة وكل انسان يحاول أن يبعد عن نفسه الأحزان ويستبدل بها المسرات والأفراح ولو كان ذلك تعللا وتجملا بالصبر؟ فمنهم من يصبر ومنهم من يتخذ في هذه الحياة طرقا أخرى يسلو بها....ومنهم من يهاجر حتى يسلو... ومنهم من يحاور....ومنهم من يميل إلى إخراج هذه الطاقة المتولدة في نفسه كمولود جبار لا يستطيع كبت هذه المشاعر أو قمعها ...فتخرج نفحات من الكلام الذي يقطر ألما أو يفيض حنينا وشوقا متجرعا وحده كأس العذاب وحرقة الصَّدِّ تلك هي تجارب الشعراء ومعاناتهم النفسية...فنحن نحاول الإمساك بالخيط الفني الذي يُبين عن تلك المشاعر المتأججة والعواطف القوية بقوله:[3]

---

[1] القرطاجني، أبو الحسن حازم، قصائد ومقطعات. د/محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م، ص 106.

[2] قال المتنبي في الزمان: صحب الناس قبلنا ذا الزمانا   وعناهم من شأنه ماعنانا

[3] الديوان ، ص 209.

يا مُسهِرا لي بطرْفٍ منه ذي وَسَنٍ   ومُسْكِــراً بلحظ منه سكــرانَا
إن كان لحظك لا ينفك منتشيًا   فإنَّــني منه لا أنفــك نَشْوانَا
وإن تَبِتْ نائم الأجفان في دَعَةٍ   وفي نعيم فَكَــمْ أسهــرت أَجفانا!
يا قاسي القلب لَيْنَ العطْفِ لَيْتَكَ لمْ   يُقْــرَنْ بما قد قسا منك الذي لانَا
كنْ كيف شئتَ وِصالاً أو مُقَاطعةً   فلستُ عنكِ أطيقُ الدَّهر سُلْــوَانَا!

كن أيها الحبيب كما شئت مسهرا لي مسهدا ليالي وقد كانت قصارا فعادت ببينك طوالا ،أيها القاسي معي...كن كما شئت فإن كان وصالا فمن وفائك وعهدك وحبك وإن كنتِ لي مقاطعةً فمن العذال واللائمين الذين سعوا في الإفساد بيننا.وسأبقى برغم الحساد والوشاة أحمل حبك في فؤادي؟! غير سال عنك ؟!هذه بعض النفحات الإنسانية التي يبوح بها شعر حازم في هذه القصائد مستلهما من التراث العربي القديم متمثلا لقيمه الأخلاقية والدينية والاجتماعية (من صدق وحب ووفاء وقناعة ورضا الحبيب، فالقليل منه كثير وقد يكون الكثير قليلاً ؟!) ومن قيم فنية تملأ القلوب والنفوس بما حَوَتْ هذه القصائد من أفكار وأخيلة وعواطف فجرت كل العواطف والأحاسيس التي خمدت في الناس ،فحركتها أشعار حازم وأيقظتها بدعوته للحب وللحياة.وجعلتها تمتلئ حبورا وسرورا بما يقدم لها حازم في هذه الأبيات الغزلية التي تغنى فيها بالعِفَّة والعفاف وبالصدق والوفاء ،وبكل معاني الحب التي تنير حياة الناس وتبدد الظلمة والظلام، وتجنح بالنفوس المكلومة إلى عالم واسع من الحب ومن القرب، بعيدا عن العذال والحساد.

ومما كان يجري على ألسنة الشعراء في المغرب العربي من شعر الغزل رائية عمر بن أبي ربيعة[1] التي ملأت الآفاق ولهجت بها الألسن في المجالس.فعارضها الشعراء وأغاروا على معانيها وفي ذلك يقول أبو بكر بن حبيش معارضا لها[2]:

سرت ولواء الصبح قد كاد ينشر   وحبر الدجى عن مهرق الأفق يبشر
وفوق طُلاها من حلاها كواكب   تغار بها شهب الدجى فتغور[3]
وقد ضقت ذرعا بين شوقي وهجرها   كما ضاق خلخال عليها ومئزر

ثم ينتقل إلى معنى آخر من القصيدة نفسها:

ويا عجبا لي يرهَبُ الليث سطوتي   وللشَّاذِن المذعور قلبي يذعرُ

---

[1] مطلع قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمبكر   غداة غدٍ أمْ رائحٌ فَمُهَجِّرُ

[2] ابراهيم بن مراد، مختارات من الشعر المغربي القديم، دار الغرب الإسلامي، ط1986م،ص 95 (57بيتا).

[3] طُلاها : الطلاة: العنق، أو صفحة العنق. ج طُلًى، الطَّلاوة: هي الحسن والبهاء.

وله في نفس المعنى والموضوع، متغزلا وواصفا لحالته النفسية في بعض الأحيان مغرما بوصف من تعلق بجمالها وحسنها فراح يرصف ويجمع تلك الأوصاف بجنب بعض حتى لا تكاد تحس بحرارة الشوق أو صدق الجوى أو حرقة المحب الذي هجره محبه وبعد عنه؟!وسأختار بعض الأبيات لأبي بكر بن حبيش في المعنى الذي ذكرناه:

ولم أنس يوم البين منها التفاتةً وقد قرّبت للبَيْنِ عيسٌ وضمَّرُ

ولكنه لا يعالج الرحيل بعمق بل يذكره كما ذكره السابقون مقلدا للمعنى حتى في اللغة وفي المشاعر والأحاسيس وهو يتبع خطوات عمر بن أبي ربيعة في نظره إلى المرأة وفراقه لها فيقول:

عُذِرْتُ على شوقي إلى حُسْن وجهها على البُعد والمشتاقُ في القربِ أعذرُ

وقد يصبر الصَّـــادي إذا الماء عزَّه ولكن متى يبـــــــصره عزَّ التَّصبُّر

يبين الشاعر استحالة الصبر ومقاومته إذا كان الحبيب قريبا مثله كمثل الظمآن الذي رأى ماء، وحيل بينه وبين الماء! ثم يعرج الشاعر على ما يلاقيه من مخاطر وأهوال في سبيل لقاء الحبيبة، فيقول:

أجيبي مشوقا جاب من شوقك الفلا وزارك والآساد حولك تزأرُ

بنظرة عين منك باع حياته ويا ربحه إن كان بالسول يظفرُ![1]

وقومك قبل اليوم قد نذروا دمي ومثل دمي في حالة ليس يُهْدَرُ

فالشاعر هنا يشبه عمر بن أبي ربيعة، في توجسه خيفة من أهلها، وفي ما حال بينهما من حواجز وحواجز ...غير أنه لا يبالي بذلك.

ثم يخلص الشاعر إلى رأيه في الحياة، أهي حب وود دائم وصفاء أم اغتنام فرصة وكفى؟! فيقول:

وقالت: أقم في لذة مُتَسَتِّرًا وما العيش إلا لذَّة وتستُّر[2]

فالعيش عنده اغتنام وقضاء وطر، وتستر عن الناس ويختم قصيدته على خطى "عمر بن أبي ربيعة" آملا في اللقاء، بعد أن قرب الفراق، وأن يبتعد عن طريقهما العذال والحساد! كان يمكن للشاعر ابن حبيش أن يبدي رأي عمر في المرأة، وفي الحياة ، وأنها ليست كذلك دائما، وإنما هي، صفاء وود ووضوح.

وقالت: وقاك الله كل مخافة تخوف عيونا في ارتقابك تسهر

---

[1] السول: مخفف السؤل وهو الحاجة والبغية.

[2] ابراهيم بن مراد، مختارات من الشعر المغربي القديم، دار الغرب الإسلامي، ط1986،1م،ص 95 (57بيتا).

وينصح الشاعر نفسه على لسان حبيبته بقولها له، ويرسلها حكمة بالغة. أنه لا شيء أضيع للحب والود من الرقباء والحساد والعذال، فعيون الحساد لا تنام؟! وذلك هو النكد والتنغيص على المحبين، ولو لم يكن للرقباء وللحساد وجود لنَعِمَ الناس بالحب والود إلى الأبد.

وفي القصيدة نلمس صوتا داخليا يقول:

كل المحبين يحرصون على حبهم، ولكن الجفاء والقطيعة والصدود إنما هي طوارئ، تطرأ بسبب من الناس: كالوشاة والحساد واللائمين، والعاذلين، والدليل خاتمة قول الشاعر ابن حبيش : "ترقب عيون الرقباء فإنها لاتنام" تلك المقولة هي خاتمة الحديث، أن ما ينغص على المحبين حياتهم: ترصد العذال والحساد وتتبعهم لهم!

وهنا يتلقى الشاعر النصيحة ممن يحب ،تقول له: احذر الرقباء والعذال فإنهم يترصدونك وعيون الحساد لاتنام. هنا خاتمة الحديث أن ما ينغص على المحبين حياتهم هم الحساد والعذال إلى أبد الآبدين.

وفي هذا المعنى الغزلي يقول الشاعر (أبو علي بن موسى بن معمر الهواري الطرابلسي[1]) من قصيدة غزلية يظهر فيها ولهه وحبه الشديد لمن علقت قلبه:

لولا احورار جفونٍ أودعت سقما ... ما أمطرت سحب أجفاني الدموع دماَ
ولا نثَرَت عقيق الدمع في طلَلٍ ... منه أَذاع الذي قد كان مُكتتمَا
شمل السلو شتيتٌ بعدَ بُعدِكم ... وطالما كــان قبل اليــوم مُلتئمَا
البيْن يقطع منه كل متَّصل ... والشوق ينثُر منه كل ما انتَظَما
والوجد شاد بجسمي ما يهدمُهُ ... آهٍ على ما بَنَى فيه وما هَدَمَــا
يا من يلوم على ما حل من أسفي ... هذا اليسير من الأمر الذي كَــتَمَا
ما خطط النوم في جفني رسم كرى ... إلا محا السهد ما قد خطَّ أو رسمَا
أنْبيكُــم أنني من يــوم بينكــم ... ما زلت للسُّهد والتِّذكار ملتزمَا

ثم يعبر عن فرحته وسعادته إن هو سمع خبرا عنهم أو نقلت ريح خفيفة خبرهم إليه فيقول:

أرتاح إن هبّ ريح من جنابكمْ ... أو لاح برقٌ بذاك الأفق وابتسمَا
أما ومن قدر الأشياء مقتدرا ... وحُبُكم وكفى بالحب لي قسمَا
ما رام قلبي اصطبارا بعد بُعدكم ... ولا تأخر عن وجده قَدما

---

[1] النيفر، محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة من عالم أديب. ، المطبعة التونسية، 1351 هــ، ص70.

والشاعر : هو أبو الحسن بن موسى الهواري الطرابلسي (609- 682 هــ)، تولى القضاء في بجاية ثم محافظا لخزانة الأدب بتونس.

في هذه الأبيات يريد الهواري أن يظهر حبه ووفاءه وعجزه عن الصبر والتجلد، بعد الهجر والفراق، كما كانت هذه المعاني من قبل عند شعراء الجاهلية والعصور التالية لها، فالشاعر يقتدي بغيره، وإن كانت له مزية التعبير في اتجاه غزلي عفيف، بعد أن انتشرت موجة الغزل الماجن العابث في مختلف الأقطار الإسلامية، في الحواضر والبوادي من المشرق إلى المغرب، لكن قلما نجد هذا الشعر الإنساني الصافي الخالص في التعبير عن عواطف الحب والشوق.

ومن شعراء الجزائر «أبو عبد الله» المعروف بالجزائري [1]

يقول واصفا شوقه وحنينه : [الكامل]

لعلك بعد الهجرِ تسمح يـــا بدرُ بوصـــلٍ فقد أودَى بمهجتيَ الهَجرُ

أبيتُ كما ترضى الكآبة والأسى وأضْحَى كما تهوى الصَّبابة والفكرُ

بعد أن يصور معاناته، وكآبته، وقد اشرف على الهلاك، يقرر أنه رهين فكر تعلق بمن يحب فلا يقوى على إبعاد ذلك! [الطويل]

ويقول : أبو عبد الله الجزائري وقد ضمن معنى الآية الكريمة ﴿ **فإن مع العسر يسرا**﴾[2]

إذا قَنِطْت نفسي ينادي بها الرَّجَا روَّيدك كـــم عسر على إثره يسرُ

ثم يواصل حديثه عن البين والصد الذي يلاقيه في طريق حبه قائلا:

دع العتب فالعتبى أحق بيومنا وعدِّ عن الشكوى فقد قضي الأمر[3]

علمنا وإن لم يعلم الحبُّ أنّه ذلول الهوى صعب وحلو النوى شهر

وليل اللقا صبح وصبح النّوى دجى وشهر الرِّضى يوم ويوم النوى شهر

هذه هي معاناة الشاعر من الفراق والبعد، وأن البعد مؤلم، مهما حاول التجلد والصبر. فلا طاقة لمحب بالهجر، فهو هنا ينسج على منوال القدماء حيث خلصوا في حبهم إلى هذه الغاية: القرب يُملُّ والهجر يقتل، أو كما قال ابن الدمينة[4]:

---

[1] الحفناوي، أبي القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، (1897- 1936م) .تحقيق: محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ.منشورات، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة ص 356. وانظر عنوان الدراية للغبريني ص 287.

[2] سورة الشرح الآية 5.

[3] العتبى: الرضا.

[4] يقول بن الدمينة: ألا يا صَبا نجدٍ متى هجت من نجد لقد زادني مرآك وجدا على وجد.

أي لا تقبل توبتهم ولا استعتابهم

ويستمر الشاعر في بث شكواه لمن صفت المودة بينهما فيقول على لسانه:

خليليَّ قولا إن بدا لكماَ الحمى أُهَيْلَ الحمى مشغوفُكم مسَّه الضُرُّ
علامَ تناسيتمُ حديث عهودكم وليس له ذنب وليس له عذْرُ
أُهَيْلَ الحمى منّوا بطيف خيالكم عسى أن نلتقي أو يلتقي النَّوم والشفرُ
بما بيننا لا تقبلوا من وشاتنا فكم فمَــا ضــاع لي ودٌّ وما ذاع لي سرُّ
رمتُ أن أقضي فريضة حقكم فلمَّا أردت السَّعْي أثقلني الوزِرُ

وبعد: فإن الشاعر أبا عبد الله الجزائري، يخلص في النهاية إلى قبول طيف الحبيب فذاك يكفيه ويسعده، ويزيل السهاد والهم عن نفسه، ويبرئ نفسه مما أشاعه الوشاة والعذال حتى تنفصم عرى تلك المودة، وينقطع جسر المحبة بينهما، فهو مازال على عهده وفيا وله حافظا وراعيا.

ودليله كتمان سره، وهو أقسى على نفس المحب وآلم لها من البوح، لأن البوح تنفيس، وتخفيف من عذابات الصدر والهجر والبعاد، ويدعو الحبيبة إلى الإعراض عن الوشاة والحساد والالتفات إلى من تحب وتهوى.

ومن شعره هذه الأبيات : التي يبوح فيها الشاعر بحبه ولوعته (بليلى) التي ملكت عليه قلبه ونفسه جميعا، ثم يصف جمالها الفتان، ويصف رحلتها وهجرها ويصف معاناته لذلك الهجر وبعده الذي لا مناص من عذابه، لنجد الشاعر في الأخير يكاد يستسلم للأمر الواقع ويقنع بنظرة عابرة وقد تعذر اللقاء بالحبيب لكن عزاءه، نظم الشعر، وترديده للتخفيف عن النفس والترويح عنها، ولم يبق للشاعر من حيلة تخرجه من عذابه، غير قصائده وكلماته، يسلِّي بها نفسه، فيقول[1]:

أهل الحمى هل لكم عن قصتي خبَرُ وأن ليلي بلَيْلَى كله سَهَرُ
وفي ضلوعيَ نيران يضرِّمُها دمع على صفحات الخدِّ ينهمرُ
لمَّا رأيتُ بدور الحي سافرةً ولا عن النِّقاب بدالي أنه السَّفَرُ
عوامل إلا من قدودهم سألتك ولا صوارِم إلا ما بها الحورَُ
الله يا حادي المطيّ بهم كرّر عرِّج قفا عليَّ لعلَّ الصدع ينجبر
علي فلي قلب يميل إلى حديث من قتلوا منا ومن أسروا
ورُبَّ ليل بليلى بتّ أسهره وحسَّدي نوّم والليل معتكِرُ

---

[1] الحفناوي، أبي القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف، (1897- 1936م) .تحقيق: محمد أبو الأجفان وعثمان بطيخ.منشورات، مؤسسة الرسالة المكتبة العتيقة ص 358.

ثم يصفها بهذه الأوصاف التقليدية التي عرفناها في الشعر الجاهلي والأموي: في المعاني وفي اللغة، وفي الصور، والأخيلة، فهو يقطع الفيافي ويصف الرياح العواصف والغبار المتناثر والظعن والجمل، ولو لم يعرف الصحراء في حياته، والحقيقة أن السير على مضمار القدماء والسابقين تكاد تكون عادة عند أغلب الشعراء، لكن أبا عبد الله الجزائري هنا، يمضي في ذلك التقليد، حتى وسائل النقل كالجمل بدل الفرس، أو السفينة بدل الجمل...فقد كانت حياته بعيدة عن الصحراء وأهوالها!

ثم يقول في وصفها بما وصف به السابقون (المرأة) من صفات شائعة معروفة:

تبدو كشمس الضُّحى تعْلوُ قضيبَ نقا	وتنثني مثل غُصْنٍ فوقه قَمَرُ
تقــول والحسنُ يطغيهــا فتظــلمني	ولا مَــوَازِرَ إلا صــارمٌ ذَكَرُ[1]
دع الحسام وضع حمل السلاح فما	في كل وقت يفيد الحزم والحذَرُ
ما للمهنَّد حكمٌ في محلتنــَا	بل للمنهّد فيها الحكمُ والنظرُ
وللظُّبــاَ فتكــاتٌ بيــن أرحلنــا	ترنو وتعنو الظُّبى المضروبة البُتُرُ
فــإن طمعتِ بلــينٍ في لــواحظنــا	فنحن أهل قلوبٍ مثلها الحجرُ
وإن حــلت لك ألفــاظ نرددهــا	ما بيننا فهناك الصَّاب والصَّبِرُ[2]
إنّــا لــنجرح من ألحــاظ مبصرنــا	لكنّنا من سواد القلب ننتصر
فــارحم شبابــك وارحــل دون مغلبة	واقبل من الحسن ما أعطاكه النظر
فعنــدها أيقنت نفــسي لغيبتهــا	وأقسمت مهجتي أن لست اصطبر
وقمت ألــقط من ألفاظهــا دررا	وأنظم السِّحر حتى أقبل السَّحر

يرسل الشاعر حكمة أو ما يشبه الحكمة عندما يقرر أنّ امتشاق السيف لايجدي. فهذه معركة: الغلبة فيها للحسن وللقلب والهوى.

ذاك هو مآله ومخرجه وعزاؤه عن حبيب رحل ولم يعد يُردد قصائد نظمها في ليل أليل طويل ويوم أيوم، وذاك دأبه حتى يطل النهار ويلحقه الليل والليل يلحقه بالسحر. فحياته كلها سهر وسهاد حتى السَّحر؟! كما قال في آخر بيت له، فملخص حياته "أنظم السِّحر حتى أقبل السَّحر" دورة زمنية كاملة بين السهر والسهاد نهار يوصله بليل وليل يلحقه بالسَّحر وهكذا تطول الأيام، ولا مزيل لوحدته، وحزنه وهجره.

ويقول التجاني صاحب الرحلة في نفس المعنى وقد أعجب بجمال امرأة فقال:

---

[1] صارم ذكر: سيف قوي، وموازر: لامعين لي، إلا سيفي، والموازر: الأفاضل من الناس والظريف منهم . المساعد أو المعين.

[2] الصاب : شجر مر - والصَّبِر : عصارة شجرة مرة والمعنى "فعندنا المر المرير، وإن كانت تبدو منا سهولة ويسر وعذوبة لفظ، فإن لنا قلوب لا تلين.

طلَعتْ كالبدر المكتمل فتوارى البدر من الخجل
وأمال اللحظ تمايلها من غصن البان المعتدل
حوراءُ يحار الصَّبُّ بها ويخلِّي السلوة كلُّ خلي بعدل
حكمتْ بهواها فيَّ فلم في الإمرة حين ولي
فأبحت النفس لما احتكمت وحميت السمع عن العذل
جمعتْ أشتات الحسن فقد زادت في الحسن على المثل

لقد جمعت هذه المرأة الأشتات المتفرقات في شخصها فكونت من ذلك جمالا لا قبل للنساء بها. كأنما هي المرأة النموذج.

هذه الأبيات في وصف امرأة جميلة وليست بحبيبة ملكت عليه قلبه وروحه معا. وإنما هي مجاراة وتعلق بالجمال مهما كان هذا الجمال.

وإذا ما رجعنا إلى ابن حبيش في بعض غزلياته التي ركز فيها على المظاهر الجسدية ،فإننا نجده يفصل ويفرع حتى يأتى على كل شيء في المرأة من مثل قوله:

بنفسي مُعرضةٌ باخلةٌ أجدُّ وتقتلني هَازِله
وقدّ حكى ناعمات الغصون ويفعل فعل القنا الذابله
محكمة في قــلوب الأنـــا مِ. لــو أن أحكامها عادله
وتمنعني وصـــــلها والفتــو رُ.يوهمني أنهــا بَاذِلــه
لقد طـــــال ما تعبت بالغرا مِ. ومـــــا أدركت طائله

هي معاناة شاعر يعاني الوعود الكاذبات والمماطلة والتسويف.فيعيش الشاعر بين الحقيقة والوهم وبين أمل في الإقبال وإمعان في الإعراض... وهو في انتظار وإدراك بغيته؟

ويقول في قصيدة أخرى يصف فيها طارقة بالليل، وقد تتبع كل حركاتها وسكناتها، مجملا ومفصلا. قوله:

[المديد]

طرقت لــولا تبسُّمهــا ... كاد جُنحُ اللَّيل يكتمُها
وكذاك الشمس إن طــلعت ... نسيــم الفجــر يقدمهــا

ثم يشتكي بعاده فيقول:

فســوار الشــوق يؤلــمني ... وســوار الحَلْيِ يؤلمُهــا
والذي يــشكو مُخَلْخَــلهــا ... غير مــا يَشكو متيَّمُهــا
والــذي أشــكو يعذبــني ... والذي يَشكــو ينعِّمُهــا
أقسمت لا عاش من هجرتْ ... أبــإثمي بَــرَّ مقْسَمُهــا؟
آهٍ مــن سيفيْ لــواحظهــا ... كيف لا ينبو مصمّمُها؟

يسجل الشاعر بن حبيش، معاناة بين محبين غير متكافئة، في ثنائية متضادة في اللغة وفي المعنى:

هومقبل ، وهي مدبرة

هو في حزن، وهي في فرح

هو في عذاب، وهي في نعيم.

هذه ثنائية لغوية وثنائية في المعنى، وفي العواطف والشاعر يعزف على هذا الوتر النفسي الذي يعانيه أغلب المتيمين، من إقبال وإعراض.

وعلى هذا النمط يعالج الشاعر مختلف الأحاسيس والمشاعر عند المحبين، وكيف يكون الإئتلاف أو تكون القطيعة والاختلاف.

فيقول: [الطويل]

بنفسي والهيمانُ في الحسن يعذرُ ... وذنب التسلي في الهوى ليس يغفرُ
جمالا أطال الهــائمون صبــابة ... بــه، ورآه اللائمــون فــأقصروا

وبعد أن يأتي بجميع أوصافها، يبلغ النهاية بقوله:

فَيَا عاذِلي منها التفت لصفاتهــا ... إلى أربــع فيهــا تهيــم وتعــذرُ
يشُوقُكَ معسولٌ ويسْبِيــك أغْيدُ ... ويصبيك ميَّــاس ويُصْمِيك أحورُ

إن عذر الشاعر في عدم سلواه وتأسيه هو انهزامه وعجزه أمام هذا الحسن الذي لا يقاوم؟! فليس لديه سلاح يقاوم به... فالهزيمة هنا مدح له وإشادة بجمال المحبوب وتملكه وتمكنه.

ويستمر أبو بكر بن حبيش في إحدى قصائده يفسر ويفرع المعاني ويجمل.

[الكامل]

لولا الحياء من الرقيب الراصد	لجعلتُ قصدك من أجلِّ مقاصدي
يا من تسلَّم مهجتي نقدا بلا	ثمنٍ، وسوَّف باللقاء مواعِدِي
عَيْنَاك تقتلني ولست براحمي	وهواك يُمرضُني ولستَ بعائدي
حليتُ نفسي فيك حليةَ شُهرةٍ	شَهِدَتْ بإخلاصي وصِدْقِ عقائدي

نلاحظ أن هذا الغزل قد خلا من العاطفة المتأججة، لذلك لا تظهر في أغلب شعر ابن حبيش قوة الصبابة وحرقة الهجر، وإعراض المحبوب، وما يتركه ذلك في نفس كل عاشق، فمنهم من يفجره هذا الصدود ، أو الإعراض في شكل من الكلام الفني الراقي، كما أظهرنا ذلك عند كثير من شعراء الدولة الحفصية عندما تكون التجربة حية صادقة. والتجربة الفنية عميقة في مستوى الآلام والأفراح التي تطرأ على نفوس المحبين.

وفي آخر القصيدة يبوح الشاعر بحرقة البعد، ودوام الصَّدِّ خوفا من الوحدة ومن غربة الروح وتباريحها المضاعفة.

المولديات في المغرب العربي

لقد ظهر هذا الشعر النبوي في سبتة وفي تلمسان وفي غيرهما من المدن الثقافية التي استظلت بظلال هذا الشعر في المناسبات الدينية خاصة. حيث يقع فيها الإشادة والتباري في الشعر وفي الصلاة على النبي الكريم مرددين غرر الشعر، ومسبحين بحمد الله وشكره وممعنين في ذكر خصال النبي لنقل هذه القيم إلى الناس ليتخذوها قيما سلوكية فكانت هذه القصائد المولدية بمثابة الدرس الموجه للناس المنقذ لهم من الضلال ومن الجهل بسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومعرفة كنه هذه الرسالة، وما جاءت به من خير ونفع للبشرية. ولا يمكن ان ننسى ظهور هذا الشعر وبعض معانيه في رحاب المتصوفة من أهل الأندلس والمغرب خاصة، فقد سافر مجموعة من علماء التصوف في المغرب إلى المشرق وأذاعوا في الناس هذه المفاهيم التي سبقهم إليها الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه إحياء علوم الدين[1].

وقد شاع هذا اللون في مناطق مختلفة من العالم الإسلامي وفي المغرب خاصة[2] وإنما يعود احتفاء أهل المغرب بهذا اللون الشعري لحبهم الشديد للنبي والتغني بمآثره الحميدة ودعوة الناس إلى الإقتداء بخير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم وسنعرض لأهم الشعراء الذين ذاع صيتهم في شعر المولديات أو النبويات. الذين ملأوا الآفاق بشعرهم الذي يتردد في كل مناسبة دينية أو وطنية ، يرتله الصغار والكبار احتفاء بمولد خير الأنام. كقصيدة الشقراطسي الذي أنشد قصيدته أمام قبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة بقوله:

الحمد لله منّا باعث الرسل   هدى بأحمد منّا أحمد السّبل

يقول ابن الفارض في الرسول صلى الله عليه وسلم

وعلى تفنُّن واصفيه بمدحه   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

إن الحديث عن الشعر الديني يقودنا إلى الحديث عن بداياته في المشرق العربي ثم بدايات ظهوره بتميز في المغرب العربي وفي الأندلس.

وفي هذا تشير المصادر إلى أن الزيانيين هم أول من سنّ طريقة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف وذهبوا في الأمر مذاهب لم يسبقهم إليها أحد من أهل المشرق والمغرب.

---

[1] الجراري، عباس، انظر الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه. مكتبة المعارف .الرباط ص 139

[2] المقري التلمساني، أزهار الرياض. نشر اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي. المملكة المغربية والإمارات العربية. جزء1 ص243. يرى أن العزفي صاحب سبتة هو الذي سن هذه السنة في بلاد المغرب العربي سنة 647هـ. وانظر تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمان الجيلالي المطبعة التجارية بالجزائر .ط.1971م.ج2 ص،466.

ثم انتشرت فكرة الاحتفال بيوم المولد النبوي الشريف وتنافس الشعراء والأدباء في مدح خير البشرية وخاتم الأنبياء يتحلقون حول العلماء والشعراء والمقرئين والحفاظ، يستمعون إلى فهم البردة للبوصيري... وخير ما كتب عن الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم.

ونحن هنا سنذكر لمعا من غرر القصائد التي ازدانت بذكر صفات هذا النبي العربي الكريم، وصاحب هذه الرسالة الخالدة مؤملين أن تشكل صورة واضحة لحركة الشعر الذي واكب هذه المناسبة العظيمة عند المسلمين، محاولين الإمساك. بخط سير الشعر الديني في شكله ومضمونه مبرزين أهم القضايا الدينية والسياسية، والعقائدية التي شاعت عند شعراء الدولة الحفصية -خاصة-

يقول يحيى بن خلدون بمناسبة المولد النبوي الشريف ويمدح السلطان: الزياني معراضا لقصيدة لسان الدين ابن الخطيب[1] بقوله:

ما على الصَّبِّ في الهوى من جناح   أن يرى حلف عبرة وافتضاح

لقد بدأ هذا الشعر يتأصل في هذا المناسبات الدينية خاصة. وفيها كان يظهر الشعراء أقصى ما تجود به قرائحهم من مدح للرسول صلى الله عليه وسلم. ثم يعرجون إلى موضوع ثانوي فيمتدحون ملوكهم وسلاطينهم كما هو الشأن في عهد الزيانيين في تلمسان والمرينيين في المغرب الأقصى والحفصيين في الجزائر وتونس وليبيا.

وهكذا بدأت ترسم علامات القصيدة المولدية عند الشعراء والنقاد فهي قصيدة مبنية على بناء القصيدة العربية القديمة في شكلها ومضمونها.

- في أغلب الأحيان ، كما رأينا ذلك عند شعراء الدولة الحفصية ومن يمثل هذا اللون الشعري، كابن ابن الخلوف، والتجاني، والقلعي، وابن العطار الجزائري، وحازم القرطاجني، وابن سعيد... وغيرهم.

وإذا كان أهل المغرب [في الجزائر وتونس] خاصة هم السباقون لهذا اللون الشعري، فإن كوكبة من الشعراء الكبار ومن المتصوفة قد دخلوا مصر والشام وأذاعوا في الناس هذه المدائح النبوية من أمثال:

- محي الدين بن عربي.
- أبي الحسن الشاذلي.
- أبي العباس المرسي.
- أحمد البدوي.

---

1 قال لسان الدين بن الخطيب يمدح أبا عبد الله المخلوع:

ما على القلب بعدكم ممن جناح   أن يرى طائرا بغير جناح

وفي هذه الفترة يطل علينا البوصيري في بردته وفي همزيته بعدها وهي من أشهر ما قيل في الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

وهو كما نعلم مغربي قح من قبيلة صنهاجة. ويمكن أن نشير إلى مطلع قصيدتيه فإنهما لا غنًى عنهما لقارئ المدائح النبوية يقول البوصيري[1]:«هو: شرف الدين بن محمد بن سعيد بن حماد الجنوبي الصنهاجي»(البرأة) أو (البردة).

أمنْ تذكر جيران بذي سَلَم   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم (بسيط)

كيف ترقى رقيِّك الأنبياء   يا سمـــاء مـــا طـــاولتها سمـــاء(خفيف)

ومما قاله صاحب القصيدة المسماة:

«معراج المناقب ومنهاج الحسَبِ الثَّاقب»[2] وقد كان كاتبا لعلي بن يوسف ابن تاشفين – يقول:

إليك فهمي والفؤاد بيثرب   وإن عاقني عن مطلع الوحي مغربي

ومن أشهر شعراء المديح النبوي: عبد الرحمان المكودي (807هــ) مطلع قصيدته قوله[3]:

أرَّقني بارق نجدٍ إذْ سَرَى   يومضُ ما بين فُرَادى وثُنَى

هذه بعض لمحات شعرية في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد تبارى المغاربة في مدح الرسول وأجهدوا قرائهم لإظهار هذا الحب وهذا الإعجاب بالرسول الكريم، متبعين: خصاله العالية، ونسبه، ومولده، وبعثته، وحياته، في المدينة، والمدن المقدسة الأخرى(القدس، ومكة، والمدينة المنورة) وآل بيته، وأصحابه، فكان من ذلك كله هذا الشعر الذي يباهي به المغاربة غيرهم من الشعراء وخاصة في عهد الحفصيين.

ولسنا في حاجة إلى الإشارة إلى الكتب الأدبية التي ألفت في الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فهي كثيرة يمكن الرجوع إليها وأذكر منها كتابا فقط للعزفي السبتي، السبّاق إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم[4]

---

[1] البوصيري، الديوان ، تحقيق: د.عمر الطباع، دار الأرقم ابن أبي الأرحم، ص31، 212.(من الخفيف).

2 الجراري، عباس ، الأدب المغربي من خلال ظاهره وقضاياه، مكتبة المعارف، الرباط ، ص 144.

3 المصدر نفسه، ص 151.

[4] الدر المنظم في مولد النبي المعظم للعزفي السبتي.

وفي هذا المضمار، يقول حازم القرطاجني:

قف بين قبر محمد والمِنْبرِ	وقل السلام على السراج الأنْوَرِ
والثَم ثرى قبر النبي محمد	وبذلك العفَرِ الأسرَّ عفِّر
واحمل تحية حازم بن محمد	لمقامه الأعلى الشريف الأكبر
وقل: السلام عليك يا خير الورى	من عبدك الأدنى الضعيف الأصغر
من مُرتَجٍ بك فتح باب مرتج	من أَوْب توبٍ بالقبول مبشَّر
مستنزل بجميل عفو إلاهه	عن سالفات ذنوبه مستغفر

***

صلى عليه الله ما صَدَعَ الدُّجى	بضيائه فلق الصَّباح المسفر

تأملوا الكلام الموزون، واللفظ السهل المعسول والوصف الرائع والتشبيه البارع في قوله:

قف بين قبر محمد والمِنْبرِ   وقل السلام على السراج الأنْوَرِ

هذه الكلمات لا تخرج بهذا التناسق والتناضد والتوائم والتلاؤم إلا من عاطفة جارفة وإحساس صادق، الحب للنبي الأكرم أو كما قال حازم: وقل السلام على السراج الأنور.

نقول هذا والحيرة تملأ نفوسنا، ونحن نردد هذا الاستهلال البارع التوائم الصادق بين الكلمات، بين النغمات، بين البحر واللغة، بين العاطفة والموسيقى التي انسابت ذائبة طيعة ليتشكل من هذا التوحد اللغوي والموسيقي لحن روحي يبعث في النفس الفرح والسرور، بهذه التحية التي يقدمها الحبيب لحبيبه ولو بعدت الدار، وعجزت عن المزار، فحسبك مطلع هذه القصيدة النبوية التي تعد من الأنوار المحمدية، أو من النفحات الحازمية؟!

ولدى ابن الخلوف القسنطيني في المديح النبوي ديوان كامل سماه :

-(ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين[1])

تفنن الشاعر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، وأشاد بمكارم أخلاقه وبصفاته، وبدعوته، وبصحابته، وبجليل أعماله، حتى أتى على الكثير من سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم. وقد آثرت بعضا من قصائده الطويلة، فانتقيت منها ما يناسب هذا المقام. وما يليق بهذا الشاعر الذي نذر نفسه لخدمة هذا

---

[1] ابن الخلوف، شهاب الدين، ديوان جني الجنتين في مدح خيرالفرقتين، تحقيق وتعليق: العربي دحو.نشر اتحاد الكتاب الجزائريين.ط 2004م.

الدين والإشادة بالرسول والذين معه كما ذكرهم القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم**﴾[1].

وفي رأيي أن إكثار أهل المغرب من الشعر النبوي وخاصة في مناسبة "المولد النبوي" مرده إلى الحب الخالص للرسول. وثانيا هو تعويض عن البعد وعدم قدرة جميع الناس على زيارة البقاع المقدسة..فكانت هذه الأشعار هي ملاذهم، وهي عزاؤهم في عدم بلوغ مرماهم. فيتخذون في هذا اليوم المبارك، يوما للتذاكر وقراءة القصائد الغراء، مثل قصائد ابن الخلوف التي لا تخفى على أهل المغرب. بالرغم من عدم نشر ديوانه وما هو موجود من شعره مذكور في كتب الأقدمين إلى أن ظهر ديوانه إلى الوجود[2] أخيرا وبذلك يبعث من جديد هذا الشاعر ، ويصبح شعره في المولديات خاصة.محل دراسة من المهتمين بالشعر المغربي القديم.

ومما قاله بن الخلوف في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم من لاميته الشهيرة[3] :

لشاهد الدمع بالتجريح تعديل   وما لجفني بحُلْوِ النوم تعسيل

ثم يواصل قوله [4]:

وما يفي مدح مثلي في علاه وقد   حبــاه بالمــدح قــرآن ٌ وانجيــلُ
لكــن تطفــلت بالأمــداح مفتــقرا   وللفــقير عــلى الأبواب تــطفيــلُ
وقــد حنيت على الأعتاب ألثــمها   وللحقير على الأعتــاب تقــبيــلُ
وبــان عجــزي ،وقــد ســفــرت   لَنــَا سُعَادُ فــقلبي اليــومَ متبــولُ
ولاح لي من معاني كعب صورتها   كعبٌ سعيــدٌ على الأعناقِ محمولُ
وكــم لكعبٍ يــد بيضَــاءَ سابقــةٍ   لَنَــا بها في بيوت المدح تنقيــلُ[5]

ثم بين الشاعر ابن الخلوف القسنطيني أن أفضال الرسول لا تعد ولا تحصى، وقد شرفه القرآن بالذكر، فلخص ذلك بقوله:

---

[1] سورة الفتح الآية 29

[2] ابن الخلوف، شهاب الدين، الديوان، تحقيق : هشام بوقمرة.الدار العربية للكتاب تونس 1988م

ملاحظة : وإن كان قد طبع له ديوان في 1873م في دمشق وبيروت.

[3] ابن الخلوف، شهاب الدين، ديوان جني الجنتين في مدح خيرالفرقتين، تحقيق وتعليق: العربي دحو.نشر اتحاد الكتاب الجزائريين.ط 2004م. ص (133- 159).

[4] المصدر نفسه: ص 156(من البسيط)

[5] يقصد كعب بن زهير ولاميته الشهيرة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول   متيم إثرها لم يُفْدَ مكبول.

أليس مدحُك وافى في النِّساءِ[1] وفي   آيِ القتال، وفي حمِّ تنزيلُ

وهو على حق فيما ذهب إليه ولكن الشاعر يقرر مُسلَّمةً من المسلمات. أن الرسول الكريم قد مدحه رَبُّ العباد، أما نحن فنتسابق ونتنافس في حبه وفي نشر دينه، لعل ذلك يحسب لنا في ميزان الحسنات.

كما لا ينسى الشاعر القسنطيني أن الفضل للأوائل، فقد سبقهم إلى مدحه كعب بن زهير، ونال عنده الرضا، وأكرمه ببردته وهو سابق على الشعراء فنيا، والناس عليه عالة في المعاني والأفكار وبالرغم من هذا الاعتراف بالسبق والتفوق،فإن ابن الخلوف ،سيدلي بدلوه، في جميع مناحي السيرة النبوية.

ويقول ابن الخلوف من قصيدة أخرى يعدد فيها مناقب صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي بقوله[2]

ألسْتَ الذي قَـادَ الصَّحابة للوغى   فحلُّوا عرَى الأعداءِ إذْ عقـدُوا الأزرَا

ألَسْتَ الذي شـد مـولاهُ أزرهُ   بحمـزةَ والعـبـاسِ أشْـدِدْ بـه أَزرَا

ويستمر ابن الخلوف في تعداد مكارم الرسول وتفضيله في القرآن الكريم وفي سوره، فيعدد تلك الإماءات والتصريحات بالتمجيد والتكريم قائلا[3]

ألست الذي جاء الكتابُ بفضله   وإن شِئْت فاتلوا الفتحَ والنَّجمَ والحِجرا

ثم يعرج الشاعر في إطلالة على كل الرموز والأعلام ، من الصحابة المهاجرين والأنصار، ويذكر قصة كعب بن زهير بقوله :

ألست الذي أمسى به كعب آمنا   وقد خاف عُقْبَى ما به أنطق الشعرا

ثم يَخلُصُ من قصيدته الطويلة إلى مدح الخليفة الحفصي[3]

وكـن لأميـر المؤمنيـن الذي حمى   لنا الدين بالهنديِّ والصَّعدة السَّمرا

وكـن غَوْثَـهُ يـوم المعـادِ ونجِّـهِ   من النار وارفعْ في الجِنَانِ له قدرَا

وكـن شافعاً في ابن الخلـوف بجاهـك   العظيم الذي أعددتـه لغدٍ ذخراَ[4]

فـأنت شفيـعُ المـذنبـِيـنَ إذْ دعَـوْا   لعَرْضِ حسابٍ هوله يقصِمُ الظَّهراَ

---

[1] يقصد سورة النساء –آي القتال : يقصد الآية 39 من سورة الحج قوله تعالى : " أُذِنَ للذين يُقَاتَلون بأنهم ظُلِموا وإنَّ اللهَ على نصرِهم لقديرٌ " ويقصد بقوله حَمِّ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم.سورة غافر-2. حَمِّ تنزيل من الرحمن الرحيم. فصلت-5. حَمِّ.عسق.الشورى-4. حم والكتاب المبين. إنا جعلناه قرآناً عربياً.الزخرف-5. حم والكتاب المبين .إنا أنزلناه في ليلة مباركة.الدخان-6.حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم سورة الجاثية .7) حم.تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم"وهي سبع سور بدئت بـ"حم"

[2] ابن الخلوف، شهاب الدين، ديوان جني الجنتين في مدح خيرالفرقتين، تحقيق وتعليق: العربي دحو.نشر اتحاد الكتاب الجزائريين.ط 2004م.ص307.

[3] هو الخليفة : (ابو فارس عبد العزيز(796-837 هـ)) –وعاش فترة الخليفة الشهير (أبو عمرو عثمان (839-893هـ)) انظر م.ن: ص (312)

[4] ابن الخلوف، شهاب الدين، ديوان جني الجنتين في مدح خيرالفرقتين، تحقيق وتعليق: العربي دحو.نشر اتحاد الكتاب الجزائريين.ط 2004م. ص313

وهكذا نلاحظ أن "ابن الخلوف" في نظم قصيدته المولدية قد خرج من الغرض الأساسي إلى غرض ثانوي كما يقول النقاد : كأن يذكر الشيب والشباب أو الطيف الذي ألمَّ بالشاعر، أو يخرج إلى غرض فرعي كمدح خليفة أو أمير أو ذكر حادثة من حوادث الزمن أو وصف معركة من المعارك ... كما فعل في هذه القصيدة حيث دعا ووقف على باب الرحمة لائذا بالواحد الأوحد أن يجيره من نفسه ومن ذنوبه يوم التلاقي. ومستشفعا بالرسول الكريم وهو في ذلك يسير على نسق الأقدمين في بناء القصيدة الشعرية وفي المولديات خاصة.

فقد تكرر معه هذا النمط الفني، في الخروج من الغرض الأساسي إلى غرض فرعي كما في هذه القصيدة التي خرج منها إلى مدح الخليفة الحفصي وهو غرض ثانوي بالنسبة لهذه القصيدة النبوية.

ومما يلفت النظر عند "ابن الخلوف" في شعره النبوي مجاهرته وتصريحه بتصابيه وطيش شبابه، وانقياده إلى هوى نفسه في لحظات الضعف الإنساني فتميل كل الميل، وترتاد نفسه كل مرتع للغواية وعربدة الشباب، مظهرا ضعفه وهوانه أمام سيطرة الغريزة العمياء، محاولا ردها عن غيها فما استطاع كبح جماح نفسه، حتى أشرقت أنوار الهداية عليه ... فعاد إلى رشده، وعقله واتخذ من مدحه للنبي المعظم سبيلا لتوبته، ومحو ذنوبه. و"ابن الخلوف" الملهم الجريء عرف نفسه وعرَّفها للناس وهو بذلك يصدر عن فئة كبيرة من الناس الذين ضلُّوا في الحياة ولم يستطيعوا العودة إلى رشدهم أو الاقلاع عن غوايتهم ... ولكن "ابن الخلوف" في هذه القصيدة النبوية :يقدم للقارئ عبرة وطريقا للخلاص من عذابات النفس ووخز الضمير... بالعودة إلى التوبة النصوح .متكئا على قوله تعالى: ﴿**غافر الذنب قابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو...إليه المصير**﴾[1]. وفي سورة التوبة قاله تعالى: ﴿**ألمْ يعلموا أنَّ الله هو يقبل التوبة عن عباده، ويأخذ الصدقات وأنَّ الله هو التواب الرحيم**﴾[2].

ومما قاله في قصيدته الفائية (بسيط)

وكمْ غدوتَ لوجهِ البَسْطِ مُجْتَـلِبـاً	كما سعيتُ لزهر الأنس مقـتطفـاَ
وكم ضلَـلْت لعطْفِ الزَّهو مُعْتَنِقـا	كما اغتديتُ لكأس الغي مرتـشفـاَ
وكـم أقمـتُ بِدِيِ اللَّهـوِ منهمـكـا	أُضحي وأمسي على الآثام منعكفـاَ
وكـم سررت بوصلٍ مـن أوانـسه	ولـم أخـلْ أنَّه يستخلف الأسفـاَ
الله أكبـر لـم أترك مـراحَ هوًى	إلاّ وخيمت في أرجـائـه شغفـاَ

[1] سورة غافر الآية (03).

[2] سورة التوبة الآية (04)

ولـــم تَصِـــخْ لأحاديث التُّقى أذني | ولا انثنى للهدى قلبي، ولا انعطفــاَ
ولا ارتوت عن هواها النفسُ بل جمحتْ | كــلَّ الجِماح فواحـــرَّاه والهــفــاَ
استغفـــر الله مـــن ذنب أضـــعت بـــه | عمري الذي في الهوى أنفقته سرفاَ
ما حيلتي إن ألـــمَّ الركـــب مرتـــحـــلا | وجدَّ في سيره الحادي ومـــا وقفــاَ
وقـــال لي كـــل مـــن يمَّمتُ ساحتـــه | إليك إن المطايـــا جـــازت الهدفــاَ
أم كيف سيري ومـــا أعـــددت راحلـــة | أفري بأرقالها البرَّ الذي انكشفــاَ[1]
ونـــاقتي ضالـــعٌ والـــوزرُ حمَّـــلـــَنِي | مأأثقل الظهر والحِقْوين والكتفــا[2]
الأمـــر لله مـــا شـــــاء يـــفعـــلـــه | إن شاء عافى وإن شاء ابتلى وعَفَــاَ

وهكذا يعزف الشاعر في براعة فنية أحزان نفسه وآلام قلبه المثقل بالذنوب، ولكن رجاءه كبير أن لا ملجأ له إلا إليه. وهو وحده يغفر الذنب ويقبل التوبة عن عباده.

تلك هي المعاني السامية التي تغنى بها شعراء الدولة الحفصية ونشر تلك القيم المحمدية بين الناس لتصبح قيما سلوكية تسعد بها البشرية.

وقال أبو عبد الله محمد بن الحسن بن علي بن ميمون التميمي(القلعي) الجزائري. المتوفي سنة673هـــ.

وهو من أشهر علماء عصره انتقل من القلعة إلى بجاية واتخذها دار إقامة ومن شعره في التشوق إلى الضريح النبوي هذه الأبيات[3]:

فيا طول شوقي للنبي وصحبه | ويا شد ما يلقَى الفؤاد ويكتم
توهمت من طول الحساب وهوله | وكثرة ذنبي كيْف لا أتوّهَّمُ
وقد قلت حقا فاستمع لمقالتي | فهل تائب مثلي يصيح ويفهمُ
وهَبْنِي عصيت الله جهلا وصبوة | فمن يقبل الشكوى ومن يترحَّمُ
وقد أثقلت ظهري ذنوبٌ عظيمة | ولكنّ عفو الله أعلى وأعظَمُ

---

1 أرقالها :أرقل :أسرع .يقال جمل مرقال وناقة مرقال سريعة

2 الحقوين : الحَقْوُ : الخصر وحقو الجبل سفحه ويقال بحقوه :بإزاره/وعاذ بحقوه :استجار به واعتصم

3 الغبريني، عنوان الدراية، ص 96.

فالقلعي في هذه الأبيات يسجل ضعفه وهوانه ويقر بذنبه وبزلاته وإن كان لا يسلم منها إنسان، فما ملجؤه ومآله إلا إلى الله، ألا إلى الله تصير الأمور، وهو وحده الغفور المتجاوز عن الذنب فلا مهرب منه إلا إليه، وذلك صدق التائب، وحسن ظنه بربِّه. وفي المعنى نفسه يقول [1]:

الخُبْرُ أصدق في المرأى من الخَبَرِ فمهِّد العذر ليس العينُ كالأثرِ
واعمل لأخرى ولا تبخلْ بمكرُمةٍ فكل شيء على حدٍّ إلى قَدَرِ
وخلِّ عن زمنٍ تُخشى عواقبه إنّ الزمان إذا فكرت ذو عِبَرِ
وكل حيٍّ وإن طالت سلامتُهُ يغتاله الموت بين الورْدِ والصَّدَرِ[2]
يا ويح من غرَّه الدهر فسرَّ به لم يخلص الصَّفو إلاّ شِيبَ بالكَدَرِ
أين الألى جنَّبوا خيلا مسوَّمة وشيّدوا إرماً خوفا من القدر[3]
لم تعنهم خيلهم يوما وإن كثرتْ ولم تفد إِرَمٌ للحادثِ النُّكُرِ

وبعد أن يذكر الأمم التي بادت وقد سادت في هذه الدنيا زمنا. حتى بطرت بأنعم ربها، وظنت أن هذه لن تبيد. فكان القدر المقدور، وأصبحت تلك الأمم المتجبرة أثرا بعد عين. ويختم قوله في الزمان:

أفناهم الدَّهرُ أولاهُمْ وآخرهُمْ لم يبق منهم سوى الأسماء والسِّيَرِ

وأنه لا يبقي أحدا، غير أن الذي يدوم للإنسان عمله وذكره الحسن.

وبعده نجدويقول ابن السماط المهدوي وهو يتشوق إلى ضريح النبي صلى الله عليه وسلم. طامعا في رحمة الله ومغفرته قائلا[4]:

سريتم وطرفي في كرى العزم ما هبَّا وطِرْفُ انتهاضي في مدى الحزم ماخباًّ

***

ومن عاقه نيل المقــادير لــم تطــق بأرض المــنى أقــدام إقدامــه ضربــا
على أنني لا أنــزل الحزن ســاحتي وقــلبي علـــى بعدي يهــم بهــم حبــا
وقد جـــاء أن المـــرء مع من أحبـــه عن الصـــادق المصـــدوق فيما به أنبـــا

***

لئن قصَّرت خطوي إليــكم خطيــئتي وذبــتنـــي الأوزار عن بـــابكم ذَبــاَّ
فــمن شيمـــة العبـــد الفـــرار لربّـــِه ومن شِيم السادات أن يغفروا الذنْبـــا

---

[1] الغبريني، عنوان الدراية ، ص 97.

[2] الورد: قصد الماء./ الصَّدر الصدور عن الماء والرجوع عنه.

[3] إرم: ذكرت في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿**ألم تر كيف فعل ربك بعاد إِرَمَ ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد**﴾ سورة الفجر الآية7. وهي مدينة بناها قوم عاد . فاقرأ القرآن واعتبر . فأين عاد وأين شداد؟!

[4] الرحلة ص 273/ النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص 78.

ومنها يقول معبرا عن حال خيبة قد تعتريه، وعجز عن الزيارة إلى البيت قد تحول الظروف ولا تواتيه

كم ذا أُؤَمِّل أن أزور ضريحــه   والحظ يكبو والقضاء يعوق

ويد المشيب تناولت حلَلَ الصِّبا   فاخلولقت وفشا بها التمزيق

ومما قاله متشوقا إلى الحبيب المصطفى قوله:

مدحت الشفيع المصطفى غير قائـــم   بمعشار ما يحصى له من فضائل

وما المدح فيمن يحسن المدح باسمه   وأوصافه إلاَّ كتحصيـــل حاصـــل

ألم يـــك قول الله في رفـــع ذكـــره   وهل بعد قول الله قـــولٌ لقـــائـــل

ويقول منها: مرددا معاودا الحديث عن الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام فإن حديث الأحبة لا يمل...

أعد الحديث فليس بالمملول   عن خير مبعوث وخير رسول

واملأ مسامعنا بطيب حديثه   فهو الشفاء لحرٍّ كـــلّ غليـــل

الحديث عن ظاهرة الاحتفال بالمولد النبوي الشريف في المغرب العربي عامة وفي عهد الدولة الحفصية خاصة[1]

يقول صاحب كتاب[2] (راح الأرواح):

« إنه كان يقيم ليلة المولد النبوي، على صاحبه الصلاة والسلام «بالَمَشْوَرَة» من تلمسان المحروسة مدعاة حفيلة، يحشر فيها الناس خاصة وعامة، فما شئت من نمارق مصفوفة، وزرابي مبثوثة وبسيط موشاة، ووسائد بالذهب مغشاة.

ويفاض على الجميع أنواع الأطعمة كأنها أزهار الربيع المنمنمة وبالقرب من السلطان، خزانة (المنجانة) [3] قد زخرفت كأنها حلة يمانية لها أبواب مرتجة على عدد ساعات الليل الزمانية، فمهما مضت ساعة وقع النقر بقدر حسابها، وفتح عند ذلك باب من أبوابها، وبرزت منه جارية صورت في أحسن صورة في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة، باسمها مسطورة، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة، ويسراها على فمها كالمؤدية بالمبايعة حق الخلافة... هكذا حالهم إلى انبلاج عمود الصباح ونداء المنادي حيَّ على الفلاح»[4]

ويقول في كتاب الدرر والعقيان[5]:

---

[1] المقري التلمساني، أزهار الرياض، ج1، ص243.

[2] هو: أبو عبد الله التنسي ثم التلمساني.

[3] آلة لرصد الوقت.

[4] حي: اسم فعل أمر بمعنى أقبل.

[5] أبو عبد الله التلمساني

يصف ليلة المولد النبوي الشريف كأحسن ما يكون الاحتفال وقد أطنب أبو عبد الله في ذلك.[1]

ولا يمكن أن نذكر الاحتفال بالمولد النبوي الشريف دون الحديث عن الكاتب البارع (يحيى بن خلدون) صاحب كتاب (بغية الرواد في ذكر بني عبد الواد) الذي تحدث عن احتفال أهل تلمسان بالمولد النبوي الشريف في شعر يملأ الأسماع حتى الآن.

ومما قاله في وصف (المنجانة)[2] أيام السلطان أبي حمو موسى الزياني قوله: وقد مضى من الوقت (ساعتان)

أخليفة الرحمن والمـــلك الذي   تعنو لعزٍّ عـــلاه أمـــلاك البشـــر
والليل منه ساعتان قد انقضت   تثني عليك ثنا الرياض على المطر

ومن أشهر قصائد المولديات قصيدة لسان الدين بن الخطيب يمدح أبا عبد الله المخلوع، ويصف أيام المولد النبوي الشريف، حين كثر الاحتفال به وبالنبي الكريم صلى الله عليه وسلم[3]:

ما على القلب بعدكم من جناح   أن يرى طائرا بغير جناح
جيرة الحيّ والحديث شجـــون   والليالي تلين بعد الجمـــاح
هـــل يبـــاح الورود بعد ذياد   أو يباح اللقاء بعد انتـــزاح

وفي هذا المعنى يتشوق محمد التجاني (صاحب الرحلة) إلى ضريح النبي بهذه النفحات الصادقات فيقول[4]

كم أنتَ في الملذات ذو استِغراق   ونذير شيبك مؤذنٌ بفراق
ولقلما يجدي المثاب إذا أتى   داعي الحِمَامِ وقيل هل من راق
يا صاح دعوةَ ناصحٍ لك مشفعة   والنصح يُقبل من ذوي الإشفاق
بادر إلى التقوى بدار مسارعٍ   وانهض إلى الطاعات نهض سبَّاق
واغنم من الأيام مُهلةَ ساعةٍ   قبل التفاف الساق منك بالساق

لقد شحذ الشاعر هذه الأبيات بالمعاني الجليلة والحكم البالغة مضمنا قول زهير بن أبي سلمى في عربدة الشباب وتصابي الشيوخ فيقول:

---

[1] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، أزهار الرياض في أخبار عياض. أعيد طبع الكتـــاب تحت إشراف اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية، ودولة الإمـــارات العربية المتحدة،ج1.ص 244.

[2] م. ن، ج1، ص 246 وما بعدها.

[3] م. ن ، ج1، ص 237.

[4] الرحلة: ص 281/ النيفر،محمد، عنوان الأريب 83.

وإن سفاه الشيخ لاحلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

كما يضمن التجاني قوله تعالى:

﴿ **والتفت الساق بالساق، إلى ربك يومئذ المساق**﴾[1]

أفق أيها الإنسان قبل أن يدركك الأجل، ووقتئذ وليس حينئذ ينفع الندم.

ثم ينصح القارئ، بصحبة الأخيار المقلعين عن الملذات والمسرعين في التوبة ليلحقوا بالأبرار فيقول:

واترك أُناسا آثرُوا لذَّتَهُم واسْتَمتَعوا مِن دهْرِهم بِخلاَق
علقت نفوسهم بنَزْرٍ عاجل فاستبدلوه بأنفـــس الأعلاق
«يا أيها الإنسان إنك كادح[2]» كدحا وأنتَ لما كَدحت ملاق
والمرء مجزيٌ بما هو فاعل وجزاؤه جار على استحقاق

ثم يمتدح التائبين المقلعين عن المعاصي المبادرين المسارعين في الخيرات فيقول:

لله أقوام أطاعــوا ربَّــهم ووفوا بما أعطَوْه من ميثاق
خطبوا النّعيمَ ببذلهم لنفوسهم والخِطْبُ لا تُعطى بغير صداق
لم تحصل الأخرى لهم إلا وقد خرجوا عن الدنيا خروج طلاق
إن لم أكن بالفعل ملتحقا بهم فالحُبُّ منهم مقْتَضٍ لِلَحَاق
يارب بالهادي الذي أرسلته نوراً أفَضْتَ سَناه في الآفاق
هادٍ أتى والجهل قد عمَّ الورَى والكفــرُ قد غطَّــاهم برواق

ثم يتطلع الشاعر إلى تلك البقاع الطاهرة العطرة، آملا أن يحظى بزيارة لها فيقول:

وامنُنْ عَلَيْنَا بالوُصولِ لقَبرهِ فهُوَ الشِّفاء لقلبيَ المشتاق
يا ليت شعري هل أراني ساعيا في شدِّ أكوار وحَدْوِ نياق
فَلَكَمْ توخر عزْمَتِي الأقدارُ من فِرَقٍ تسير لقبره ورفاق
قسمًا بعزَّته ورفعةِ قَدْرِهِ إنِّي لزورته لبالأشواق
لا هُمَّ إنا لائذون بجَاهِهِ فهو الشفيع لنا وأنتَ الواقي
صلَّى عليه اللهُ ما هبَّت صبَا وترنَّمت وُرْقٌ على أوراق

---

[1] آية 29 من سورة القيامة

[2] قرآن وتمام الآية: ﴿**يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيهِ**﴾ الآية 6 من سورة الإنشقاق.

هذه هي المشاعر الدينية كما تجلت عند التجاني من حب، وشوق، وأمل، ورغبة، وتوبة، وتزكية وصلاة. قيم إسلامية تسمو بالإنسان وتنزله خير منزل.

وفي معنى التشوق إلى الضريح النبوي الشريف يقول محمد الظريف[1]:

سلم على المصطفى المختار من مضر   خير النبيين من ســادات عدنـــان
الهاشمي الذي فــاضت فضــائــلــه   خير البرية من قـــاص ومـــن دان
جسمي بتونس مـــوثـــوق بـــــزلـــة   والقلب في الشرق بين الرند والبان
وكـــل عـــام أرجـــي أن أزوركـــــم   والذنب عن قرب تلك الدار أقصاني
والوقت ضاع وعمري ما شعرت به   حتى مضى بين تفريط ونسيـــــان
وليس لي قوة أرجو الوصـــال بهـــا   والكف صفر وحال الدهر أعيـــاني
ولا معي عمل أرجـــو النـــجـــاة به   إلا غرامني وأشـــواقي وأشجـــاني
مضى الزمان ولا قدمت صـــالـــحة   وقد تمـــاديت فـــي غي وطغيـــان
إن زرت قبـــرك هذا العام يصلح أن   أدعى أديبا ظريفـــا بين إخـــــواني
وإن طردت بذنب عن زيارتـــكـــم   وصدني عنه إجرامي وعصيـــاني
أموت والقلب مشتـــاق لزورتـــكـــم   مـــالي شفيع سوى حبي وإيماني
وكن شفيعي في يـــوم الجـــزاء إذا   عز الصديق وقلت حيلة الجاني
يا رب بالمصطفى المختار من مضر   أَقِل عِثاري وعاملني بغفـــران
عليه أزكى سلام الله مـــا طلـــعـــت   شمس وما حنَّ مشتاق لأوطان

هذه الزفرات هي زفرات محب شاقه المكان الطاهر، وأعيته الحيلة وأحاط به العجز والضعف، فالتجأ إلى الله يدعوه لأقالته عثرته وقبول توبته بزورة إلى البلد الحرام، وإلى خير مقام.

فإن قدر لي زيارة البلد الطيب فذاك يعني دليل غفراني وتوبتي وتحقيق رجائي، وإن لم يقدر لي ذلك، فرجائي في شفاعتك ومغفرتك يارب.

حقا لقد كان التأثير مزدوجا.

- في لغتها المؤثرة المعبرة بصدق برقتها وسهولة ألفاظها ودقة معانيها وصدق دلالتها.
- العاطفة: فقد جاءت عاطفته جارفة، ساخنة، ثائرة، مبكية، محزنة. فعندما نقرأ قوله

والوقت ضاع وعمري ما شعرت به   حتى مضى بين تفريط ونسيان
وليس لي قوة أرجو الوصـــال بهـــا   والكف صفر وحال الدهر أعياني

[1] النيفر، محمد، عنوان الأريب، ص104. محمد الظريف شاعر تونسي توفي سنة 787هـــ.

فإننا نحس بالخيبة وبالضعف الذي استحكم في الناس فأقعدهم عن إدراك غاياتهم وأهدافهم، وهذا مدعاة للحسرة والتأسي لحال هؤلاء الناس.

إن صرخة الشاعر هنا وتعثر الأيام وتنكر الأزمان له هو تعبير عن عجز الناس جميعا في تحقي مآربهم ومقاصدهم. ثم يربط الشاعر هذا الربط الموضوعي بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين حب الأهل والأوطان وهي حقيقة لا يماري فيها أحد. إنه يدعونا إلى توطين القلب على حب الرسول والوطن معا.

ومما قاله أبو عبد الله (محمد بن صالح الكناني) الشاطبي نزيل بجاية[1] قوله:

أرَى العُمرَ يفنَى والرجاء طويل　　وليسَ إلى قُربِ الحبيب سبيلُ
حباه إلهُ الخَلْقِ أحسن سيرة　　فما الصَّبرُ عن ذاك الجمالِ جميلُ
متى يشتفي قلبي بلثم ترابه　　ويسمح دهر بالمزار بخيلُ
دلَّتْ عليه من أوائلِ أسطري　　فذاك نبيٌّ مصطفًى ورسولُ

في هذه الأبيات يتطلع الشاعر إلى زيارة قبر النبي الحبيب صلى الله عليه وسلم تعبدا وتبركا ويلمح في أبياته إلى عسر أمره، وعجزه عن أداء فريضته، فلا يجد إلا الرجاء والأمل في تحقيق أمنيته.

ولو تتبعنا الشعر النبوي، أو المولديات كما يسميها البعض لضاق بنا الحال في هذا المكان لرصد شعر الشعراء في هذا الباب. ومن أشهر هؤلاء ابن الجنان نزيل بجاية[2] وهو كاتب شهير خاطبه ذات مرة ابن عميرة المخزومي وكان مقيما معه في بجاية برسالة طويلة هذا مطلعها: «تحييك الأقلام تحيةَ كسرى، وتَقِفُ دون مداك حسرى» فلم تعجبه هذه التحية ورد على ابن عميرة المخزومي بقوله:«ما هذه التحية الكسروية؟ وما هذا الرأي وهذه الروية؟ أتنكيت من الأقلام؟ أو تبكيت من الأعلام؟[3]

ونفود مع الشاعر الذي أفرد أغلب شعره لمدح سيد المرسلين في التخميس:

الله زاد محمدا تكريما

وحباه فضلا من لدنه عظيما

---

[1] الغبريبي، عنوان الدراية، ص 104./ المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د/ إحسان عباس. دار صادر ،ج7، ص340.

[2]المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د/ إحسان عباس. دار صادر، ج7، ص 415./ الغبريني، عنوان الدراية، ص 302. التعريف به: هو ابو عبد الله محمد بن أحمد المعروف بابن الجنان: ترجم له لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة. ومما قال عند عنه صاحب النفح. «له الباع الطويل في الشعر والنثر» ولد في مرسية ثم انتقل إلى بجاية.

[3] انظر نص الرسالة في النفح ج4، ص 416.

واختص في المرسلين كريما

ذا رأفة بالمؤمنين رحيما « صلوا عليه وسلموا تسليما»

أخذ الشاعر من قوله تعالى: الآية: ﴿**يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما**﴾[1]

وقد أبدع ابن الجنان في هذا المخمس أيما إبداع وصاغ من قلمه تلك المعاني الجليلة والدعوة الكريمة التي جاء بها خاتم الأنبياء والمرسلين في هذا المخمس ولولا الأطالة لاستشهدت به كاملا. ولكننا آثرنا الالماع إلى بدايته. ومن القصيدة الأولى هذه من رويها ولكنها غير مخمسة يعدد مناقب النبي الكريم صلى الله عليه وسلم بقوله:

صلوا على خير البرية خيَما وأجلٍّ من حاز الفخار صميما[2]
صلوا على من شُرِّفتْ بوجوده أرجاء مكة زمزما وحطيما

وبعد هذا الاستهلال يذكر آياته التي من الله بها على نبيه:

والشمس قد وقفتْ له لما رأتْ وجها وسيما للنبي وسيما
كم آية نطقَتْ تصدِّقُ أحمدا حتى الجماد أجابه تكليما
وسمت به فوق السَّماء مراتب بمقام صدق عزَّ فيه مقيما
فله لواء الحمد غير مُدافع وله الشفاعة إذ يكون كليما
ما إن لنا إلاَّ وسيلةُ حبُّهِ وتحية تذكو شذاً وشميما
يا أيها الراجون منه شفاعة صلوا عليه وسلموا تسليما[3]

إنها دعوة صادقة إلى التعلق بالنبي الكريم، والائتمار بأمر الله في قوله تعالى: «صلوا عليه وسلموا تسليما»

لعل ذلك يكون وجاء من النار، وشفاعة يوم الحساب. ومن قوله يمدح النبي صلى الله عليه وسلم[4]

يا من تقدس عن أن يحيط وصف بذاته
ومن تعالى جلالا عن مشبه في صفاته
ومن قَبولُ ثنائي إليه أسنى هباته
صلى على من تبدَّى نور الهدى من سماته
ومَنْ علا الفخر لمَّا نمى إلى معْلُوَاته
محمد خير هادٍ بحلمه وأناته
محمد خير داع بالصدق من كلماته

---

[1] آية 56، سورة الأحزاب.

[2] الخيم: السجية، والطبيعة والأصل.

[3] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د/ إحسان عباس. دار صادر. ، ج7، ص 440.

[4] م.ن، ج7، ص 501.

إلى أن يقول:

يارب بلغ سلامي   لأحمد ذي الشفاعة
لخاتم الأنبياء أعني   إمام تلك الجماعة
فزده يا ربِّ فخراً   وزدْ مُحِبِّيه طاعة

هذه الأبيات وهذه الكلمات جادت بها قريحة الشاعر بن الجنان فأصبحت قصائده معبرا للتنافس والمعارضة والتقليد فمن مخمس ومن مسدس، علهم يلحقون بهذا المديح الذي يملأ النفس حبورا، وفرحة وسرورا، لأن الناس قد تعلقوا بخير الأنام وربما اكتفى بهذه النفحات المديحية في خير البرية. ومما اختاره صاحب النفح هذه المدائح النبوية للشاعر الجزائري أبو عبد الله محمد (بن محمد بن عبد الله بن محمد بن محمد بن أحمد بن أبي بكر) بن العطار الجزائري من جزائر بني مزغنة[1] قوله:

أنوار أحمد حسنها يتلألأ   المصطفى بحلى الكمال يحلأ
الشمس تَخْجَلُ وهو منها أضوأ   النور منه مقسم ومجزأ
قد زان ذاك النور إبراهيما   «صلوا عليه وسلموا تسليما»
صلوا على المسك الفتيق الأطيب   صلوا على الورْدِ المَعِينِ الأعذب
صلوا على نور ثوى في يَثْربِ   صلوا عليه بمشرق ومغربِ
مازال في الرسل الكرام كريما   «صلوا عليه وسلموا تسليما»
صلوا على زهر الكمال الثابت   صلوا على الطود البهاء الثابت
صلوا على من فاق نعت الناعت   خير الورى من ناطقٍ أو صامت
وأعزهم نفسا وأطهر خِيما[2]   «صلوا عليه وسلموا تسليما»

ويستمر الشاعر أبو عبد الله بن ابي بكر العطار ينظم قصيدته على جميع الحروف الهجائية[3] وآخر القصيدة قوله:

إذا سَمَا المَخْدُومُ زان خديما   « صلوا عليه وسلموا تسليما»

إن هذا التسديس نموذج للشعراء تنافسوا حوله وأغاروا على معانيه كما يذكر صاحب النفح فما لحقوا بمعانيه، المبتكرة، والعواطف المتأججة. ومدح الرسول صلى الله عليه وسلم كما قال ابن الفارض غاية لا يدركها شاعر ولا يحيط بخصاله إنسان:

ومما قاله ابن العطار متشوقا إلى يثرب قوله[4]:

---

[1] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د/ إحسان عباس. دار صادر، ج7، ص 480. 480.

[2] المكان الذي أقام فيه. ومنه خيما: أقام بالمكان.

[3] م.ن، ص ص(480- 484) . يقول: صلوا على من نال مجدا عاليا   وسما وحاز مفاخراً ومعالياً

[4] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د/ إحسان عباس. دار صادر، ج7،ص 790.

أبداً تشوقك أو تروقك يثربُ فإلى متى يقصيك عنها المغرب
هي جنة في النفس يعذب ذكرها والقرب منها والتداني أعذب
يا حبذا في ربع طيبة وقفة بين الركائب والمدامع تُسْكَبُ
حتى يرقى للوعتي وصبابتي ودموع عيني كلٌّ من يتغربُ
الشمس يغرب نورها وضياؤها أبدا ونور المصطفى لا يغرُبُ

حقا كل شيء إلى زوال، وبقاء ذكر محمد أبدا يتردد على ألسنة الأنام. وفي هذه الأبيات يتألم الشاعر الجزائري ابن العطار وهو خبير بأنفس الناس من أهل بلده، وكيف يقعدهم الحال عن زيارة خير مكان لسيد الأنام. فعسى أن تكون هذه الأبيات ترويحا لهم، أو بلسما لجراحاتهم، وأحزانهم، وآلامهم، وهم في أوطان بعيدة لا يقربهم من تلك البقاع المقدسة إلا إنشاد تلك المدائح النبوية.

المولديات عند ابن الخلوف القسنطيني[1]:

ومما جادت به شاعرية ابن الخلوف القسنطيني ديوان شعر في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم والتشوق إلى ضريحه، ومدح خصاله وخلاله و تعظيم وتقديس مقامه وتعداد معجزاته وآياته وخلود رسالته ودعوته. فكان هذا الديوان الضخم من الشعر النبوي. الذي سنقتطف لمعا من قصائده.

يقول في قصيدته التي سماها "قطر الغمام في مدح خير الأنام"[2]

لُذْ بالكريم وسَل منه الرضا كرما إن الكريم إذا استرحمته رحما

وهي طويلة يعدد فيها مناقب الرسول ، ويذَكِّر الناس بالأمم السابقة وكيف صار مآلها إلى الفناء...ثم يخرج إلى غرض المدح، فيمدح الخليفة الحفصي (أبو عمرو عثمان)[3]

يا ربِّ وانصر لواء الإسلام وارحم به أئمة الدين،واخْزِ الضلل اللؤماَ
وكن لعبدك مولانا الخليفة عثمان المليك، الجليل، الضيغمُ الشَّهماَ
واحرس به حَوَزَةَ الإسلام واحم به معاقل المَلِكِ وانصر حزبه الزَّعماَ

على عادة الشعراء قديما في قصائد "النبويات" يعرجون على الغزل، ثم التشوق إلى مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ثم يدعون للخليفة بالتأييد والنصر، كما فعل ابن الخلوف في هذه النبوية.

يا رب اقبل دعائي بالحبيب وهب لابن الخلوف الرضا واحمل له الخلفاَ[4]

---

[1] ابن الخلوف، شهاب الدين، ديوان جني الجنتين في مدح خيرالفرقتين، تحقيق وتعليق.العربي دحو.نشر اتحاد الكتاب الجزائريين.ط 2004 ص93.

[2] م. ن، ص83

[3] هو أحد الثلاثة الكبار في دولة بني حفص :المولودون جميعا بقسنطينة وهم أبو العباس احمد 772هـ- أبو فارس عبد العزيز 796هـ - أبو عمرو عثمان 839-893هـ.

[4] المقري التلمساني، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د/ إحسان عباس. دار صادر، ص378.

ثم يختم هذه القصيدة بقوله داعيا المولى عز وجل أن يكرم آل رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبه والتابعين ،قوله:

والآل والصحب والأتباع ما ختمت فواتحُ النَّظم بالمدْح الذي ائْتَلَفَا

ولابن الخلوف من قصيدة أخرى يشيد بمعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم في يوم مولده قوله[1]

وفي ليلـة الميلاد لاحـت شواهـد بهـا أخبر الكهـان سيف التتـابـع
ولاحت قصور الشـام حتى كـأنهـا سمـاء تجـلت عن النجوم طوابـع
وهـز لهـا إيوان كسـرى مسرة لإظهار نور من سنـا الحق سـاطـع
وأخمد من نيـران فـارس جمرها وقـد غيض من ساوى أصول المنابـع
وأنبـأت الكهَّـان عنـه عجائبـًا كـقسٍّ وشـقٍّ، والسـطيح، وشـافـع
وبـاهت بـه إذ أرضعته حليـمة لـذلك عزَّت بيـن كـلِّ المراضـع

ثم يختمها كعادته بمدح آل حفص الأمجاد، ويدعو لهم بحماية الإسلام ونصر دين محمد. ثم يدعو لنفسه، مؤملا العفو والشفاعة عند رسول الله. والعفو عند رسول الله مأمول.

وجدْ بالرِّضا لابن الخلوف وجازه بفضل على مدح المكرم واسع
وصلِّ على المختار ما لاح بارِقٌ وما سبَّح قطرٌ من هوامٍ هوامع[2]

وقال ابن سعيد وهو بالإسكندرية وقد تعذر عليه الحج. سنة 639هـ. قوله:

قرُبَ المـزارُ ولا زمـانٌ يُسْعِـد كَـمْ ذا أُقـرِّبُ مـا أراه يَبْعُـدُ
وارَحْمَـةً لمـتـيَّـمٍ ذي غُرْبَـةَ ومـعَ التغرُّبِ فاتـَهُ مـا يَقْصِـدُ
قَد سـار مِن أقصى المغـاربِ قاصـداً مَـنْ لَـذّ فيه مسيرُهُ إذ يَجْهَـدُ
فـلكَم بـحارٍ مَـعْ قـفـار جُبْتُـها تلقى بـها الصمصـامَ ذُعراً يرعـدُ
كابدَتْهـا عَرَبـاً ورُومـاً، ليـتنـي إذ جُزْتُ صَعبَ صراطـها لا أُطـردُ
يـا سـائريـنَ ليَثْـرِبٍ بُلِّـغـتُـمُ قـد عـاقني عنـها الزمـانُ الأنـكَـدُ
أعلـمتـُمُ أن طـرتُ دون محلّـهـا سَبْقـاً وهـا أنـا إذ تـداني مُقْعَـدُ

[1] المصدر نفسه ص409 وما بعدها.

[2] ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين، تحقيق: العربي دحو. منشورات اتحاد الكتاب الجزائري. الجزائر، 2004م.ص423 ويصدق قولنا على الشعر النبوي في المغرب بأنه يكاد يكون وقفا على أهل المغرب كما كانت الموشحات وقفا على أهل الأندلس.ولا نغالي إذا قلنا : إن من مميزات الشعر المولدي ،نشأته وكثرته وصدقه عند أهل المغرب. هوامع: جارية.

يا عاذلي فيما أُكابِدُ قلَّ في   ما أبْتَغيهِ صَبابةٌ وتسهُّدُ
لم تَلْقَ ما لقيتُهُ فعذلتني   لا يعذِرُ المشتاقَ إلاّ مُكْمَدُ
لو كُنْتَ تعلمُ ما أرومُ دُنُوَّه   ما كنتَ في هذا الغرام تُفَنِّدُ
لا طابَ عيشي أو أحلَّ بطيبة   أُفُقٌ بهِ خيرُ الأنامِ محمّدُ
صلّى عليه مَنْ بَراه خِيرَةً   من خلقِهِ فهوَ الجميعُ المفرَدُ
يا ليتني بُلّغْتُ لَثْمَ ترابه   فيزاد سعداً مَنْ بنعمى يَسْعَدُ
فهناكَ لو أُعْطى مُناي محلّةً   من دونها حلَّ السُّها والفرقدُ
عيني شكَتْ رمَداً وأنتَ شفاؤها   مِنْ دائها ذاكَ الثرى لا الإثمدُ
يا خير خلقِ اللّه مهما غِبْتُ عن   عليا مشاهدها فقَلْبي يَشْهدُ
ما باختيارِ القلبِ يترك جسمَهُ   غِيَرُ الزمان لهُ بذلك تشهدُ
يا جنّةَ الخلدِ التي قد جئتُها   من دون بابكِ للجحيم تَوَقُّدُ
صَرَمَ التواصُلَ ذُبَّلٌ و صوارمٌ   ما للجليد على تَقَحُّمِها يدُ
فلئن حُرِمْتُ بلوغَ ما أمّلْتُهُ   فلديَّ ذكرى لا تزالُ تَرَدَّدُ
فلتنعشوا منّي الذَّماءَ بذكرِهِ   ما دمتُ عن تلك المعالم أُبْعَدُ
لولاهُ ما بقيتْ حياتي ساعةً   هُوَ لي إذا متُّ اشتياقاً مَولدُ
ذكرٌ يليه من الثناءِ سحائبٌ   أبداً على مَرِّ الزمان يُجَدَّدُ
مَنْ ذا الذي نرجوهُ لليوم الذي   يُقْصىَ الظِّماء به ويُحْمى الموردُ
يا لهفَ مَنْ وافى هُناكَ وما لَهُ   من حُبّهِ ذخرٌ به يتزودُ
ما أرتجي عمَلاً ولكِنْ أرتجي   ثِقَتي به ولحَسْبُ من يتزودُ
ما صحَّ إيمانٌ خَلا مِنْ حبّهِ   أبِلا رياشٍ يُستَعدُّ مهنّدُ؟
عن ذكره لا حُلْتُ عنه لحظةً   ومديحَه في كلّ حفلٍ أسْرُدُ
يا مادحي يبغي ثواباً زائلاً   فثواب مدحي في الجنان أخلّدُ
لولا رسولُ الله لم ندرِ الهدى   وبه غداً نرجو النّجاةَ و نسعدُ
يا رحمةً للعالمين بُعثتَ والدّنـ   ـيا بجنح الكفر ليلٌ أربدُ
أطْلعتَ صبحاً ساطعاً فهدَيْتَ للـ   إيمانِ إلاّ مَنْ يَحيدُ ويَجْحدُ
لم تخشَ في مولاك لومةَ لائم   حتى أقرَّ بهِ الكفورُ الملحِدُ
ونصرتَ دينَ اللّهِ غيرَ مُحاذرٍ   ودعوتَ في الأخرى الألى قد أصْعدوا

ولقيتَ من حرب الأعادي شدّةً ... لو كابدوها ساعةً لتبدّدوا
أيّانَ لا أحدٌ عليهم عاضدٌ ... إلا الإلهُ ولم يخُنْ من يَعْضُدُ
فحماك بالغارِ الذي هو من أد ... لِّ المعجزاتِ وخابَ مَنْ يترصّدُ
ووقاكَ من سمّ الذراعِ بلطفهِ ... كيما يُغاظَ بك العدى و الحُسَّدُ
والجِذعُ حنَّ إليكَ والماءُ انهمى ... ما بينَ خمسِكَ و الصحابةُ شُهّدُ
والذئبُ أُنْطِقَ للذي أضحى به ... يُهدى الى سبل النّجاح و يرشدُ
وبليلةِ الإسرا حباكَ وسُمّيَ الـ ... ـصدِّيق من أضحى لقولك يُسعدُ
وحَباكَ بالخلق العظيم ومعجز الـ ... ـكلم الذي يهدي به إذ يوردُ
وبُعِثْتَ بالقرآن غير معارَضٍ ... فيهِ وأمْسى مَن نَحاه يعرِّدُ
فتوالتِ الأحقابُ وهو مبرأ ... من أن يكونَ لهُ مثالٌ يوجَدُ
ولكَمْ بليغٍ جال فصلَ خطابه ... والسُّرْجُ في ضوء الغَزالةِ تَهْمدُ
زُوِيَتْ[1] لك الأرضُ التي لازالَ حـ ... ـتى الحشر ربُّكَ في ذراها يُعْبدُ
ونُصِرتَ بالرعبِ الذي لمّا ينزلُ ... يتْرَى كأنَّ ما عين شخصك تفقدُ
فمتى تَعَرَّض طاعنٌ أو حاد عنْ ... حرَمِ الهداية فالحسامُ مُجرَّدُ
يا من تُخُيِّر من ذؤابة هاشمٍ ... نعم الفخارُ لها ونعم المحتِدُ
لسّناكَ حينَ بدا بآدمَ أقبلت ... راعياً لأخراه الملائكُ تسجدُ
لم استطعْ حَصْراً لما أعطيتهُ ... فذكرتُ بعضاً واعتذاري منشدُ
ماذا أقولُ إذا وصفتُ محمّداً ... نفِذ الكلامُ ووصفُهُ لايَنْفَذ
فعليك يا خيرَ الخلائق كلِّها ... مني التحيّةُ والسلامُ السرمدُ

فلنعم المدخل والمستهل والنهاية والختام. فإذا كانت مطالع القصائد عنوانا على الغرض والهدف والغاية فإن المقاطع والخواتم هي رحيق تلك المعاني وخلاصة فكرة، وعصارة رأي، وقد حالف هذا المقطع، الشاعر بن سعيد في نقل مشاعره الصادقة بأحسن ما يكون التعبير عن أشجان النفس وعذاباتها ...كما أكد في آخر القصيدة ما كان يطمح إليه في جمع قصيدته أن يبلغه للقارئ في شكل مثل أو أثر أو تقرير حقيقة. فإن أعوزت الشاعر القدرة على بلوغ مقام الرسول صلى الله عليه وسلم فعزاؤه هذه التحية السرمدية الأبدية التي يلهج بها كل لسان، تذكر بيت الله، ولم يبلغ مناه، فعساه أن تكون هذه القصيدة بلسما لجراحه وزيادة في ميزان حسناته.

[1] هو تضمين لمعنى الحديث النبوي الشريف : (زويت لي الأرض والسماء...) أي جمعت لي وسخرت.

فابن سعيد قد أضاف للشعر النبوي في ظل الدولة الحفصية وترا فنيا نسج على منواله شعراء الدولة الحفصية. وهو بذلك يعتبر من المؤسسين لازدهار هذا اللون الشعري في المغرب.

وهو أحد أعلام الحركة الشعرية في عهد الحفصيين مع أمثاله من الشعراء الكبار، كابن عميرة، وابن الأبار، وحازم، وابن أبي الحسن، وابن الغماز، وابن عربية... وغيرهم.

ففي هذه القصيدة يطرح ابن سعيد وكأنه يتكلم عن الذين أقعدهم الزمن، عن بلوغ أمانيهم، لكن ابن سعيد على عجزه وضعفه، يقاسي الغربة، وخيبة الرجاء في بلوغ مأربه وأداء فريضته.

وبعد أن بين كبوة وتعثر حظه، يوجه نظرة إلى الذاهبين من الحجيج إلى البيت الحرام. محملا إياهم تحياته وأشواقه.

- ثم يعدد مناقب الرسول -صلى الله عليه وسلم- وتبديده للشرك، ونشر الإيمان ثم يستخلص عبرة من عبر الزمان والتجارب التي عاشها فيقرر مقولة الرسول -صلى الله عليه وسلم- «المؤمن مع من أحب» وقد جسد الشاعر حبه الصادق للرسول الكريم -عليه الصلاة والسلام- في القصيدة ومعانيها ليتأكد بقوة بيانه وحسن نظمه في قوله:«نفذ الكلام ووصفه لا ينفذ» وخير الكلام مبدؤه ومنتهاه بالتحية والسلام الأبدي.

الفصل الثاني

الشعراء الأعلام

تقديم:

لاشك أن الحديث عن فئة من الشعراء في ظل الدولة الحفصية سيثير بعض الأسئلة عند القارئ، بسبب اختيار هذه الفئة دون سواها؟

وأقول: لقد تبين لي وأنا أتعامل مع شعراء هذه الدولة ومع شعرهم أنه لا يمكن الإحاطة بجميع الشعراء، والترجمة لهم، فما بالك بدراستهم دراسة مستقصية لآثارهم وتطور فنهم الشعري عبر الزمن وعن مدى تجديدهم في الموضوعات والأغراض الشعرية؟

لذلك فقد انتقيت نخبة رأيتها تمثل بحق تطور الشعر في العهد الحفصي، من مختلف مناحيه، شكلا ومضموناً.

وقد كان لهؤلاء الأعلام الدور البارز في إحياء هذه الحركة الأدبية والشعرية خاصة، بما قدموا من جميل الأشعار، وحسن معالجة قضايا وهموم الأمة و التعبير عنها.

ولأن هؤلاء الشعراء، رغم نسيانهم وعدم الإلتفات إلى دراسة أشعارهم دراسة جادة. إلا ما ظهر أخيرا من محاولة لإحياء تراث المغاربة وخاصة في الشعر، وسأذكر أهم الكتابات التي تناولت هؤلاء الشعراء:

1) ديوان ابن الأبار: تحقيق عبد السلام الهراس، والحلة السيراء: تقديم حسين مؤنس.

2) ديوان حازم: تحقيق عثمان الكعاك، وكتاب منهاج البلغاء وسراج الأدباء: تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة.

3) ديوان ابن الخلوف: تحقيق هشام بوقمرة، وعنوان الأريب: محمد النيفر.

4) ديوان جني الجنتين في خير الفرقتين لابن الخلوف القسنطيني: تحقيق العربي دحو.

5) رحلة التجاني: تحقيق ح.ح عبد الوهاب.

6) عنوان الدراية: للغبريني.

هذه الدراسات والتحقيقات قد أثرت المكتبة العربية وخدمت الشعر الحفصي، وأماطت اللثام عن كثير من الشعراء المنسيين والتي بقيت دراساتهم وآثارهم وأشعارهم مبثوثة في كتب التاريخ والفقه، وفي الموسوعات التي ازدهرت في هذه الحقبة ...

لذلك فإن دراستي لهؤلاء الشعراء تندرج في إطار إتمام صورة الشعر في ظل الدولة الحفصية. وسأختار من الشعراء الكبار مجموعة متميزة من الوافدين من الأندلسيين إلى المغرب الأوسط (الجزائر) وتونس مثل:

1- ابن الأبار

2- حازم القرطاجني.

ومن شعراء المغرب الأوسط (الجزائر)

1- ابن لفكون القسنطيني.

2- وابن الخلوف القسنطيني.

ومن شعراء إفريقية (تونس)

1- التجاني.

2- ابن عبد السلام التونسي.

إبن الفكون القسنطيني

تعريفه: هو أبو علي حسن بن الفكون القسنطينين من أعيان قسنطينة ومن أشهر أسرها المعروفين بالعلم والأدب وقد ذكره العبدري في رحلته، وعلق على رحلته المغربية من قسنطينة إلى مراكشن التي أقام بها مدة يمدح خلفاء بني مؤمن.

شعره[1]:

ما وجد من شعر لابن الفكون قليل، وهو مبثوث في المراجع والمصادر القديمة.

وقيل إن له ديوان شعر، لم يعثر عليه حتى الآن.

ويقول عنه ابن القنفد القسنطيني: «وامتدح الناصر يوم وصوله إلى قسنطينة 602هـ، بقصيدة عظيمة، وله في ولاة بني عبد المؤمن ببجاية مدائح».

وله قصيدة اشتهرت بالرحلة المغربية من قسنطينة إلى مراكش، ذكر فيها المدن التي مر بها. وهي من أشهر قصائده[2]:

[الوافر]

أيا معنى السيادة والمعالي ... ويا بحر الندى بدر النَّدِيِّ
أمَا وبحقك المبدي جلالا ... وما قد حزت من حسب عليٍّ
وما بيني وبينك من ذمام ... وما أُوتيت من خُلُقٍ رضيٍّ
لقد رَمَت العيون سهام غنج ... وليس سوى فؤادي من رميٍّ
فحسبك نار قلبي من سعير ... وحسبك دمع عيني من أتِيٍّ
وكنت أظن أن النّاس طرا ... سوى زيدٍ وعمْرو غير شيٍّ
فلما جئت «ميلة» خير دار ... أمالتني بكلِّ رشأ أبِيٍّ
وكم أورت ظباء بني ورار ... أُوَارَ الشَّوق بالرِّيقِ الشهيِّ
وجئت بجاية فجلت بدورا ... يضيق بوصفها حرف الرَّوِيِّ
وفي أرض الجزائر هام قلبي ... بمعسول المراشف كَوْثَرِيِّ

---

[1] - عادل نويهض، معجم أعلام الجزائر، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- ط1 . 1971م. ص.66

[2] - الغبريني، عنوان الدراية، ص283.- المصادر التي تحدثت عن شعر ابن لفكون: عنوان الدراية/ تعريف الخلف برجال السلف، ص 130/ رحلة العبدري، ص 34/ درة الحجال- ج1 . ص 126.

وفي مليانة قد ذبت شوقا بلين العطف والقلب القسيِّ
وفي «تنس» نسيت جميل صبري وهِمْتُ بكل ذي وجه وضيِّ
وفي «مازونة» مازلت صَبًّا بوَسْنان المحاجر لوذعيِّ
وفي «وهران» قد أمسيت رهنا لظامي الخصْرِ ذي رِدفٍ رويٍّ
وأبدت لي «تلمسان» قدودا جلبْنَ الشَّوق للقلب الخليِّ
ولما جئت «وجدة» همت وجدا بِمُنْخَنِثِ المَعاطف معنوِيِّ
وحل رشا الرباط رشا رباطي وتَيَّمني بطرفٍ بابليِّ
وأطلع قطر «فاس» لي شموسا مغاربهنَّ في قلب الشَّجيِّ
وما «مكناسة» إلا كناس لأَحوَى الطَّرفِ ذي حُسن سنيِّ
وإن تسأل عن أرض «سلا» ففيها ظباءٌ صائداتٌ للكميِّ
وفي مرّاكش يا ويح قلبي أتى الوادي فطَمَّ على القرِيِّ
بدور بل شموس بل صباح بهيٌّ في بهيٍّ في بهيِّ
أنحن مصارع العشاق لمّا سعيْنَ به فكم ميْتٍ وحيٍّ؟
بقامة كل أسمر سمهريٍّ ومقلةِ كلِّ أبيضَ مَشرفيِّ
إذا أنسوني الوِلدانَ حسناً أنسيهم هوى غيلان ميِّ
فها أنا قدِ اتخذتُ الغرب داراً وأدعى اليوم بالمراكشي
على أنَّ اشتياقي نحو زيد كشوقي نحو عمرو بالسويِّ
يقاسمني الهوى شرقا وغرباً فيا للمشرقيِّ المغربيِّ؟
فلي قلبٌ بأرض الشرق عانٍ وجسمٌ حلَّ بالغرب القصيِّ
فهذا بالغدوِّ يهيم غرباً وذاك يهيم شرقا بالعشيِّ
ولولا الله مِتُّ هَوًى ووجدًا وكم لله من لطف خفيِّ

وقد علق على هذه القصيدة العبدري في رحلته[1]؛ قائلا:

قلت: قال أهل اللغة الغنج، والغنج الدَّلُّ وحسن الشكل فقوله:

لقد رمت العيون سهام غنج، غير ملائم وقائله لا يصلح من لائم ولا يحسن في الأدب خطاب ذوي الرتب. بمثل قوله:

---

[1] العبدري، الرحلة: ص 33.

فحسبك نار قلبي من سعير. وإذا نَعَى على أبي الطيب قوله:

كفى بك داء أن ترى الموت شافيا   وحسب المنايا أن يكن أمانيا

وقوله:

إذا ما لبست الدهر مستمتعا به   تخرقت والملبوس لم يتخرق

وقد علم أن المخاطب بذلك غير الممدوح فما الظن بهذا؟

وقوله: «أما وبحقك المبدي جلالا» وقوله:

«بوسنان المحاجر لوذعي» موضوع في غير موضعه، فإن الوسن إنما يوصف به الجفن والعين والطرف وما جرى مجراه كما قال عدي بن الرقاع:

وسنان أقصده النعاس فرنَّقت   في عينيه سنة وليس بنائم

وأفرطوا حتى جعلوه مرضا، فقال النابغة:

نظرت إليك بحاجة لم تقضها   نظر السقيم إلى وجوه العود

وتبعه جرير فقال:

إن العيون التي في طرفها حور   قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

وهو نقد فيه من النظرة الصائبة والتعليل اللغوي الدقيق، في استعمال الألفاظ ومعانيها ودلالتها، وفي حسن المدح والتنبيه، وموافقته للمقاييس اللغوية والنقدية في عصره... وبالرغم من ذلك، فإن وقفة العبدري في قسنطينة، وذكر شاعرها ابن الفكون برغم عدم حصوله على القصيدة وعلى ديوان شعره فقد أخذ من الرحالة حيزا من اهتمامه وتبجيله والإشادة بفضل هذه الرحلة التي خلدها الشاعر في سفريته من قسنطينة إلى مراكش برًا... وقد أتى على ذكر أهم المدن التي مر بها، مشيدا بالحسن والجمال الذي رآه الشاعر، وكيف خلص في آخر القصيدة إلى تشتت نفسه وتعلق قلبه بمن يهوى ويحب، فجزء منه بالمغرب وجزء آخر في الشرق بقسنطينة، وهي حيرة الشاعر الموله الذي قسمت الغربة أعشار قلبه فحبه وولاؤه غَرَبَهُ، وهواه وشوقه لمن علقت قلبه شَرَّقَ قلبه إلى قسنطينة.

وهو في ذلك بين مد وجزر، أو بين إقبال وإعراض، وبين رضا وسخط على الزمان الذي لا يجتمع فيه للإنسان غايتان أمنيتان في آن واحد.

ثم يلتجئ إلى الله الذي يحفظ الناس من الغم والهم ولولاه لمات حزنا وكمدا.

وإذا عدنا إلى الوصف عند ابن الفكون[1]، فإننا نلاحظ أن الشاعر قد أعجب إعجابا بالغا «بالناصرية» بجاية. فوصفها وصفا مباشرا رائقا رائعا كروعة الطبيعة التي حباها الله جمال البحر وخضرة الجبال المشرفة عليها، والوديان التي تجري خلفها لتصب في بحرها الذي جعله الشاعر كمرآة، والنهر يد.

فالصورة كما تخيلها الشاعر وصورها لنا كالمرآة في يد غادة حسناء تتملأ فيها وجهها الجميل، حيث يقول[2]:

والنهر كالصِّل والجنات مشرفة   والنهر والبحر كالمرآة وهْو يَدُ

ويقول:

دَعِ العراق وبغداد وشامهما   فالناصرية ما إن مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به   مسارح بان عنها الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع   حيث الغنى والمنى والعيشة الرَّغَدُ
والنهر كالصِّل والجنات مشرفة   والنهر والبحر كالمرآة وهْو يَدُ[3]
فحيثما نظرت راقت وكل نوا   حي الدار للفكر للأبصار تتقد
إن تنظر البر فالأزهار يانعة   أو تنظر البحر فالأمواج تطرد
يا طالبا وصفها إن كنت ذا نصف   قل جنة الخلد فيها الأهل والولد

وقال من قصيدة مدح فيها أمراء بني عبد المؤمن في بجاية، ثم خلص إلى الوصف قائلا[4]:

عشونا إلى نار الربيع وإنما   عشونا إلى نار الندى والمحلق

وقال صاحب « تعريف الخلف برجال السلف»[5]:

«وله ديوان شعر وهو موجود في أيدي الناس، ومحبوب عندهم، وهو من الفضلاء النبهاء، وكان مرفوع المقدار، وممن له الحظوة والاعتبار، أصله من قسنطينة من ذوي بيوتاتها، ومن كريم أروماتها.»

---

[1] الغبريني، عنوان الدراية، ص 280، ص 131.

[2] الغبريني، عنوان الدراية، ص ص 281،280.

[3] الصِّل: هي الحية.

[4] المقري التلمساني، نفح الطيب، ج2، ص483.

[5] الحفناوي، أبو القاسم محمد، تعريف الخلف برجال السلف ، تحقيق: محمد أبو الأجفان، عثمان بطيخ- مؤسسة الرسالة والمكتبة العتيقة تونس، ص 131.

وأورد له بعد ذلك هذه الرسالة النثرية. قوله:

« ولما نضب ماء الأصيل، ورق نسيمه العليل، وهم العشي بانصرام ووداع النهار بسلام، وأرخى الليل فوقنا سدوله، وجرر على الأفق ذيوله،عدنا إلى زورقنا ذلك، ومحيا الجوّ غير محتجب ووجهالأفق غير متلفع بثوب الغمام. قد بسطت الكواكب في الماء فكأنما يجري ... وقد بسطت الكواكب في الماء، فكأنما يجري بنا زورقنا في السماء.

فأمروا –أعزهم الله- بوصف تلك الحالة»، فبادرتهم قائلا[1]:

وليل مسرة ما زلت منها   أَمرُّ منها على سراطٍ مستقيمِ
لبست ثيابه عزا إلى أنْ   تحدرت الرجوم من النجوم
فنهر كالسجلجل قد تراءت   على شطيه جنات النعيم
تشكلت الكواكب فيه حتى   جَرَتْ في قعره شُهبُ الرجوم
فما تمتاز أرض من سماء   وحَوَتِ الماء مَنْ حَوَتِ النجوم

فابن الفكون يشهد له الجميع بأنه كان من طبقة الكبار في عصره، وقد تميز في الوصف، والمدح، والغزل. والشاعر بذلك قد سجل حضورا أدبيا كبيرا لمدينة قسنطينة التي أنجبت عشرات العلماء والشعراء في عهد الدولة الحفصية، وكانت مركزا من مراكز الثقافة والسياسة، فقد أنجبت من الأمراء الحفصيين ثلاثة من أشهر أمراء هذه الدولة وأعظمهم مكانة في السياسة والأدب أمثال: **أبي العباس أحمد**، **وأبي عمرو عثمان**، **وأبي فارس عبد العزيز** الذي أنشأ فيه ابن القنفذ كتابه «الفارسية» وسماه باسمه.

إن ابن الفكون ليكوّن مع غيره من شعراء الدولة الحفصية في القرن السابع الهجري صرحا عاليا من الشعر... مهد لحركة شعرية قوية من بعده.

ولمكانة هذا الشاعر في نفوس الأدباء والرحالة العرب خاصة العبدري الذي تأثر بقصيدته المشهورة التي أشرنا إليها سابقا، والتي تضمنت معاني جليلة وصورا رائعة لحالة الشاعر وهو يعاني من حالين:

ولاؤه للأمير في مراكش وتعلقه به.

وتعلقه بقسنطينة وبعده عنها.

هذه الحالة جعلت الشاعر موزع القلب بين مراكش وقسنطينة، فتقسم قلبه بين أمل في الحب ورجاء في طلب الشهرة والمكانة.

---

[1] المصدر نفسه: ص 137.

ويقول العبدري مضمنا معاني قصيدة ابن الفكون في قصيدته التي ختم بها رحلته قوله[1]:

عليك النصح رده بكل حي   وإن ألفيت وارده فحيي
فمعظم ديننا نصح البرايا   كذاك أتى الحديث عن النبي

ثم يُغيرُ على معاني ابن الفكون القسنطيني بقوله:

وقالت لي بجاية أنت خلو   فيا ويح الشجي من الخلي
وجئت بني ورار وهي عمري   أثارت كامن الشجن الخفي
وميلة لم تمل عن نهج نصح   أَصِخْ إنْ كنت ذا فهم سني
ومن شاء الحديث فقل قسنطيـــ   نـــة تروي حديث المغربي

***

وجئت القيروان فجئت قفرًا   يجيب صداه بالصوت الشجي

تلك هي المعاني التي اقتبسها وأغار عليها العبدري في نظم رحلته متوسما في رحلة ابن الفكون، النموذج والمثال الذي يحتذى.

وأملنا أن نجد ديوان ابن الفكون يوما ما ليذاع في الناس، وبذلك يماط اللثام عن مرحلة هامة من تاريخنا، كادت تضيع وتنسى، هي مرحلة الحفصيين ودور قسنطينة وبجاية في الحركة الشعرية خاصة.

فقد اشار الحفناوي في كتابه «تعريف الخلف برجال السلف» أن ديوان ابن الفكون، موجود بين أيدي الناس في زمانه.

---

[1] - العبدري، الرحلة، تحقيق: محمد الفاسي، ص 280.

شهاب الدين بن الخَلُوف القسنطيني

نشأته وحياته:[1]

هو «شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الخلوف الحميري».

ولد في قسنطينة، في الثالث من محرم سنة 829هـ، رحل به والده إلى مكة مدة تقارب أربع سنوات ثم انتقل إلى القدس، ومكث بها مدة، ثم يتجه الشاعر نحو القاهرة ومنها إلى قسنطينة مسقط رأسه، ثم يتجه إلى تونس ليقترب الشاعر من البيت الحفصي لسابق أسرته في خدمة هذه الدولة في بجاية، ثم يصبح الشاعر من أصدقاء ولي العهد «المسعود» ابن سلطان الدولة الحفصية آنذاك، أبو عمرو عثمان الذي حكم من سنة(839-893هـ)، وقد سخَّر الشاعر ابن الخلوف أغلب شعره لمدح الخليفة (عثمان) وابنه وولي عهده المسعود.

فنال عندهما المكانة المحمودة، التي أغنته عن الحاجة، وبقي الشاعر وفيا لهذه الدولة مشيدا بأمرائها وسلاطينها إلى أن توفى بتونس سنة 899هـ.

شعره:

لقد ظهرت علامات النبوغ والموهبة الشعرية عند « ابن الخلوف» في بدايات حياته، وبدأ نجمه يسطع في سماء الدولة الحفصية عندما حضر زفاف ولي العهد وهنأه بهذه القصيدة[2]:

اهنأ بها من بنية مسعودة　　　قد شادها عن سلك الملك الأغر

ويعبِّر عن سعادته واطمئنانه عندما أصبح في خدمة السلطان عثمان بقوله:

لقد كان دهري سمحا فاغتدى جَنِفًا　　　فمذ عرفتك لم يجف ولم يحف

ثم بدأ نجم الشاعر يعلو، بقصائده الرائعة في المدح وفي الوصف وفي الرثاء وقد أشرنا إلى ذلك في موضوع الأغراض الشعرية.

ويضاف إلى مجد هذا الشاعر (شعره النبوي) الذي حلَّق فيه عاليا، وسدَّ نقصا في هذا الباب في الشعر المغربي القديم وفي ظل الدولة الحفصية خاصة، فقد جمع له ديوان شعر حققه الدكتور العربي دحو تحت عنوان:

---

[1] - ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين، تحقيق: د. العربي دحو. منشورات إتحاد الكتَّاب الجزائريين، ص 9.

[2] - م. ن، ص 14.

« ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين»

خصصه الشاعر لمدح النبي الكريم ومدح خصاله، وأخلاقه ومبادئه، وأصحابه، وتمجيد مآثره ومعجزاته، وحججه وبراهينه، وفي نشر دعوته، وكان في أغلب هذه القصائد المولدية ينتهي بمدح (آل بني حفص) والدعاء لهم بالنصر، لأنهم دعاة حماة للإسلام.

كما في قوله:

وَكُنْ لِأَمِيرِ المؤمنين الذي حَمَى حِمَى الدين مِنْ أعدائه بالقواطع
وَصُنْ بعواليه عُلاَ الملك وأَوْلِهِ من الفضل ما يدني له كل شاسع

***

وَجُدْ لِوَلِيِّ العَهْدِ واسعَدْ به الوَرَى وَنَوِّلْهُ ما يرجو بغير مُدَافِعِ

ثم يدعو لنفسه ويذكر اسمه صريحاً[1]، وقد اختلف الدارسون المحققون لاسمه هل هو ابن الخلوف ؟ أم «خلوف» فيقول:

وَجُدْ بالرضا لابن الخلوف وجازه بفضلٍ على مَدْحِ المكرَّم وَاسِعِ

وقال يصف الفجر[2]:

وغابت علامات الدجى السود عندما تراءت لها رايات شمس الضحى الشمط[3]

وقال يمدح السلطان أبي يحيى زكريا المتوفي سنة 899هـ، ويصور تلك الأحداث التي وقعت في البيت الحفصي من أجل ولاية العهد والتداول على السلطة داخل الأسرة الحفصية[4].

يقول في مدح أبي يحيى زكرياء[5]: ويبدأها بمطلع غزلي يتخلص منه إلى مدح الخليفة:

[الكامل]

هجم الصباح فأين يا ليل المفر وجيادُهُ بالنصر واضحة الغرر
وإذا محاسنُكِ انطوتْ فيكِ فَعَنْ عليا «أبي يَحيَى» الثَّناءُ قد انتشرْ

---

[1] - ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين، ص 422.

[2] - ح.ح عبد الوهاب، المنتخب، ص 116./ ابن الخلوف القسنطيني، الديوان: تحقيق هشام بوقمرة، ص 199.

[3] - الشمط: إختلاط ضوء الصباح ببقية ظلمة الليل.

[4] - برنشفيك، تاريخ الدولة الحفصية، ج$_1$، ص 277.

[5] - ابن الخلوف القسنطيني، الديوان: تحقيق هشام بوقمرة، ص 225.

ويذكر الشاعر انتشار الفتنة وخروج بعضهم عليه قائلا:

وأتى لأخذ الثأر في الوقت الذي	حكم القضاء له بما أَجْرى القدرْ
في فتيةٍ كالزُّهر إنْ عُدو منهُمْ	عَدَدُ الثريا وهو بينهم قمرْ
ورث الخلافة كابرًا عن كابرٍ	وبقدرة الباري تعزَّزَ واقتدَرْ
ودعا بثأر وليِّها من غاصب	غَصَبَ الخلافةَ ثم خَلاَّها وَفَرْ
حُزْتَ الخلافة عاصبًا لا غاصبًا	والحَقُّ ورَّثك النفيس المدَّخرْ
وأعدتْ فينا سيرة عُمَرية	أَوليس جدُّك يا أبا يحيى عُمَرْ ؟

ولن أُلِّمَّ بشعر ابن الخلوف في هذه العجالة التي أومئ فيها إلى أن هذا الشاعر يستحق الدراسة ويستحق التسجيل والتفضيل، بما قدم للغة من معان وأفكار وعواطف عبَّد بها الطريق للشعراء الذين اندثروا تحت وطأة المحسنات والجري وراء الشكليات، فهبطت معانيهم وضحلت أفكارهم وجمدت أخيلتهم، وفي هذه القصيدة التي مدح فيها حفيد السلطان عثمان. وهي فترة عصيبة عاشها الشاعر وأحفاد السلطان (أبي عمرو عثمان) بعد الفتنة التي حدثت بعد موته. يعتقد أن الخلافة حق لهم اكتسبوها بالحق الوراثي وليس بالغصب[1]، وبين من خلال هذه القصيدة وفاءه لورثة السلطان عثمان، وإذا عدنا إلى الحديث عن المولديات عند ابن الخلوف فإننا سنجد عالما مليئا بالمعاني والصور الجديدة والابتكارات، في اللغة وفي المعاني، وفي الحنين، وفي الاقتباس من السنة ومن القرآن الكريم الذي جعلهما الشاعر عُدَّته وزاده في هذه الرحلة الروحية عبر القصيدة المولدية، التي خصها ابن الخلوف بمميزات منها:

- طول النفس في القصيدة المولدية.

- قوة العاطفة، وتدفقها.

- معارضة القدماء في فن المولديات، وفتح الباب لمن جاء بعده، وقد سد فراغا في الشعر المولدي في العهد الحفصي، بإنشائه لديوان كامل خصصه لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم.

- استحداث الصور والتعابير الجديدة، وتطويع اللغة لكل غرض من الأغراض التي قال فيها الشعر.

- الاحتماء بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالدين الإسلامي عندما تضيق الأمور بالناس.

- القصيدة المولدية عند ابن الخلوف، مُتَنَفَّسٌ له، لما آل إليه أمر المسلمين في المشرق والمغرب.

وشعر ابن الخلوف مقسم على جميع الأغراض الشعرية التي سادت في عصره، غير أنه أكثر من المديح والغزل والوصف.

---

[1]- ابن الخلوف، الديوان، تحقيق: هشام بوقمرة، ص 25، ص 225.

ومما قاله وقد ساءت الأحوال بينه وبين ولي العهد (المسعود)، وقد هاجر إلى القاهرة قوله[1]:

[الطويل]

ظُهور العوالي إن أردتَ المعاليا ... وَسُمْرَ العوالي إن أردت المعاليا
وإن عدمت ترشيش[2] حظا من النهى ... فما النجم مفقود ولا الصبح خافيا
وما كنت ممن يرتضي الذُّلَّ شيمةً ... إذا لم ينلْ بالعزِّ أقصى المراميا
أبت همتي إلا ارتقاءً إلى العُلى ... وهل يرتضي بالخَسْفِ من كان عاليا
فما كل وجه بالبشاشة مشرق ... ولا كلٌّ جيدٍ بالمكارم حاليا

يتفجر الشاعر حنقا وغضبا ويقبض على حكمة من حكم القدماء فيصوغها صياغة مؤثرة معبرة عن ضيقه وقلقه، أن المجد والشرف لا ينال حتى تتوشح بالسيف وبالرمح لتكسب الرفعة والعلا.

وعندما لم يجد الشاعر من الكرامة والتبجيل في تونس. وقد أصبح الأمر جليا واضحا كنور الصباح بعد تبدد الظلام، ضمَّن الشاعر قول المتنبي[3] في نيل الشرف الرفيع والمكارم والمحامد أن يحمل الإنسان السيف والرمح مدافعا عن هذه المكانة التي لا تعطى مِنَّةً من أحدٍ، وإنما المجد والشرف يكتسبان بالتضحية وبالسهر تنال المعالي.

ثم يقرر في إصرار أن النفس العالية لا ترضى بالخسف وبالأقل لأنها نفس جبلت على المعالي والرفعة، فلا تقبل بذلٍّ أو هوانٍ.

ثم يخلص إلى ما يشبه الحكمة أنه ليس كل من تظاهر بالبشاشة هو كذلك، فقد تنطوي نفوس كثير من الناس على تبطين وغدر كحاله مع ولي العهد في تونس (المسعود).

---

[1] - ابن الخلوف القسنطيني، الديوان: تحقيق هشام بوقمرة، ص 421.

[2] - ترشيش: إسم قديم لمدينة تونس. انظر المؤنس: ص 9.

وإن أردت ترشيش خط من النُّهى ... فما النجم مفقود ولا الصبح خافيا

[3] - ديوان المتنبي:شرح البرقوقي، ج4، ص 417.

إذا كنت ترضى أن تعيش بذلَّةٍ ... فلا تستعدَّنَّ الحســام اليمانيا
ولا تستطيلنَّ الرماح لغارَةٍ ... ولا تستجيدن العتاق المذاكيا
حببتك قلبي قبل حبك مَنْ نَأَى ... وقد كان غدارا فكن أنت وافيا

ويؤكد تلك الحالة بصورة: أن ليس كل الناس يتحلون بالمكارم والمحامد إلا من صفا طبعه ووافق مظهره مخبره.

- **أما المولديات:**

أما شعره في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، فهو فيه العلم والقمر والبحر الذي لا ساحل له.

لقد صنع من شعره محرابًا يتعبد فيه بخصال ومحامد وسيرة سيد الخلق عليه أزكى السلام.

لقد خصص ابن الخلوف: لمدح الرسول صلى الله عليه وسلم، ديوانًا كاملاً هو ديوان « جني الجنتين في مدح خير الفرقتين».

نافس بقصائده الطنانة البوصيري في بردته وهمزيته، بل فاقه، وفاته خطوات .. حتى أصبحت القصيدة المولدية أو النبوية لا يذكر صاحبها إلا وذكر ابن الخلوف .. شاعر الحب النبوي ومن ذلك قوله[1]:

أحبك حُبَّ هيمانٍ بوادٍ شريدٍ تطلب للماء صادي

أحبكَ يا حبيبُ وأنت منِّي بمنزلة السويدا مِنْ فُؤَادِ

وهذا الحب الذي خالط الشاعر وجرى مجرى الدم في العروق! إذا سمعه السامع أو قرأه القارئ يعتقد أن الشاعر متيم، متوله، غير أن ذاك التوله والتعلق هو تعلق نبوي، وهل يستطيع أن يخفي ذلك الحب ؟

إن الكلمات والسطور، لتفضح هذا المحب الولهان. ومن المظاهر البارزة في شعر النبويات عند ابن الخلوف:

1) الاقتباس من القرآن الكريم، وهو يدل على حفظ وحسن فهم كما في القصيدة[2].

2) الاقتباس من السنة النبوية وتضمينه لكثير من الأحاديث.

3) الاقتباس من الشعر العربي القديم.

وهي مزية بارزة في شعر ابن الخلوف، حيث يتلاعب باللغة في جميع مستويات تعبيره، مرة يلين ويسهل حتى يسف ويضعف، وتارة يغرب حتى تصبح لغته كلغة شعراء الجاهلية تحتاج إلى قاموس لتذليل ألفاظها ومعانيها.

وهو في كل ذلك يصدر عن نفسٍ أصلية أسلوبا ولغة وعواطف. دون تكلف أو تمحُّلٍ في البحث عن الغريب الشارد من اللغة، وربما مردُّ ذلك إلى تعليمه الأوَّلي في الحجاز ثم في فلسطين ثم في قسنطينة وتونس، حيث امتلك الشاعر ناصية اللغة، فأصبحت أداة طيّعة في شعره.

---

[1] - ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين: ص 425. تحت عنوان:«نتائج المحبة ومناهج الأحبة»

[2] - م. ن، ص 495- تحت عنوان: يا خالقي: يقول فيها:

يا خالقي عيناىَ قَدْ أضناهما طول الرَّمَدْ (مجزوء الكامل)

ونراه وهو يوظف سور القرآن الكريم ومعانيه في قوله[1]:

ألم، ق، عمّ،... إلخ:

دعوتُكَ ضارعًا كدعاء نوحٍ ويونس، يا مجيب الدعوتينِ

بما في الذكر من ألفٍ ولامٍ ومن ميم، وقاف وعينِ

ومن رائيته اخترت هذه الأبيات التي تدل على تعلق الشاعر بشعره الذي يراه منجاة له ووجاءً من النار، متوسلا لائذا بالعزيز الجبار إذ يقول[2]:

باسمك الأعظم الكريم بما قد خط في اللوح من كلام خطير

بالكتاب العزيز، بالصحف بالتوراة بالإنجيل الرِّضا بالزّبور

فاهنَ يا ابن الخلوف سوف تجازى بنعيـم وجنـة وحـرير

رجاء ودعاء وأمل في أن يظفر بالرضى والقبول شعر ابن الخلوف في حب الله وفي حب نبيه.

هذه في عجالة بعض ملامح الشعر عند ابن الخلوف القسنطيني الذي جعل من نبوياته قصائد ترتل وتذكر في بيوت الله كما تذكر في بيوت الناس، ليصوغ منها آماله وأحلامه ويفصح فيها عن آرائه وأفكاره.

فهو يمجد القيم ويدعو إلى اعتناقها، وهو يمهد الطريق للحائرين وللمترددين والمتأخرين عن العودة إلى طريق الحق والإيمان. لذلك فشعره يحمل في نظرنا قيمة فنية واضحة المعالم فكرة وخيالا وأسلوبا وعاطفة.

يقر له بذلك كل الدارسين، ونحن ندعو إلى دراسة أعمق لشعر هذا الشاعر الذي ملأ مسامع الناس بأحسن الأناشيد النبوية في ظل الدولة الحفصية.

يقول عنه ابن أبي دينار[3]: (الكاتب البارع خاتمة كتاب الدولة الحفصية)

- وكتب عنه السخاوي الذي التقى به في القاهرة في سنوات (877-881هـ) ، وقد جعله مصدرا من مصادره في الحديث عن المغرب العربي.

وقد حج في هذه السنة ثم استقر به المقام بين القاهرة والأسكندرية.

- واتصل بكاتب السر ورئيس الرؤساء، زين الدين بن مزهر ومدحه بقصيدة مطلعها[4]:

غمامُ لثامٍ حَطَّ عن بَرْقِ مَبْسَمِ عَدِمْتُ لَهُ رُوحِي عَلَى دَوْرِ دِرْهَمِ

---

[1] - ابن الخلوف القسنطيني، ديوان جني الجنتين في مدح خير الفرقتين: ص 491. (الوافر)

[2] - م. ن، ص 528. (خفيف)

[3] - ابن أبي دينار، المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس، ص 20.

[4] - ابن الخلوف القسنطيني، الديوان: تحقيق هشام بوقمرة.

وهي حالة تشبه حالة المتنبي عندما خرج مغاضبا لسيف الدولة قاصد كافور الإخشيدي في مصر[1].

ثم ضاقت عليه الأرض بما رحبت وعاد إلى تونس حيث عاد إلى سابق عهده مع ولي العهد المسعود؛ إلى أن توفي بتونس في حدود 899هـ، وإن كان روبار برنشفيك يؤكد أنه توفي سنة 910هـ، وكذلك حسن حسني عبد الوهاب.

يقول عنه السخاوي[2]:

« نظم المعنى والتلخيص وغير ذلك، وعمل بديعية ميمية سماها «مواهب البديع في علم البديع»:

أولها:

أَمِنْ هوى من ثوى بالبان والعلم   هلت براعة مُزْنِ الدَّمع كالعَنَم

وشرحها شرحا حسنا، وكذلك رجزا في تصريف الأسماء والأفعال سماه «جامع الأقوال في صيغ الأفعال».

وعمل في علم الفرائض سماه «عمدة الفارض»، وعمل في العروض سماه « تحرير الميزان لتصحيح الأوزان»[3].

وقد نقل السخاوي هذه المعلومات عن ابن الخلوف عندما التقيا في القاهرة بين سنوات(877-881هـ).

وهذه الكتب غير موجودة، ربما ضاعت أو هي في طي النسيان والإهمال، لم يعثر عليها أحد من الدارسين.

ويقول ابن الخلوف عن نفسه[4]:

«كنت ممن ولع بعصفور النظم والنثر في الصِّبَا مستوهبا من دوحيهما نسمتي القبول والصَّبَا، مقتطفا لزهرتيهما من رياض الآداب ملتقطا لدريهما من أصداف صدفة الطلاب، لا أسلك واديا لم يترنم فيه حمامهما، ولا أعكف على حديقة لم يمطر فيها غمامهما. ولا أرقب سماء لم تلح فيها زواهرهما، ولا

---

[1] - ديوان المتنبي، ص 24. يقول المتنبي:

فراق ومن فارقت غير مُذَمَّمِ   وأَمٍّ ومن يمَّمت خير ميممِ

[2] - ابن الخلوف، الديوان، ص 30.

[3] - الضوء اللامع: ج8، ص 122.

[4] - ابن الخلوف، الديوان، تحقيق: هشام بوقمرة، ص 17.

أخوض بحرا لم تتكون فيه جواهرهما إلى أن ظفرت من المطلوب بأوفى نصيب، واحتويت من كنانتهما على كل سهم مصيب.»

وقد قدم إلى تونس في حدود 864هـ . طلبا للشهرة والمال كما يقول محقق الديوان[1]. وهو إلى جانب ذلك، فقد عاد أيضا إلى موطن الآباء والأجداد، وربما توسم في بني حفص أن ينال عندهم الحظوة والمكانة، فقصدهم وقد صدقت فراسته، ونجحت عودته إلى قسنطينة ثم استقطبته تونس عاصمة الحفصيين كما استجلبت إليها كل شاعر وأديب وعالم أريب، فازدهر قصرهم بهؤلاء الأعلام الأفذاذ الذين كانوا كمصابيح الدجى يبددون كل ظلام.

ومصداق قولنا: حادثة العالم النحوي الشهير « ابن عصفور» الذي حضر ذات يوم مجلس المستنصر فقال الخليفة المستنصر، مباهيا بنفسه وبدولته:« لقد أصبح الغداة حكمنا مزدهرا...».

فقال ابن عصفور: بنا وبأمثالنا. فأسَرَّها السلطان في نفسه، وأوعز إلى من ألقاه في بئر باردة مات على إثر ذلك بعد ثلاثة أيام ؟ ! وكذلك كان ابن الخلوف خادما مخلصا لبني حفص إلى أن وافته المنية في حدود 899هـ أو بعدها كما يقول ح. ح عبد الوهاب.

---

[1] - ديوان بن الخلوف، تحقيق: هشام بوقمرة، ص 20.

أبو عبد الله محمد بن الأبار القضاعي

حياته:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي، اشتهر بلقب (ابن الأبار).

ولد في بلنسية (سنة 595هـ الموافق لـ 1198م) في بيت علم و أدب وحضارة، وكان والده من علماء بلنسية وذوي بيوتاتها الأكارم، كما يذكر ذلك المؤرخون[1].

وقد نشأ ابن الأبار محبا للعلم طالبا له في مدن الأندلس، ليشفي غليله من التحصيل حتى وصل عدد مشايخه إلى المائتين يأتي على رأسهم (أبو الربيع سليمان الكلاعي)، الذي خصه بأحسن قصائد الرثاء والثناء عليه لأنه كان مثاله الذي يحتذى، فهو العالم والمجاهد الذي نافح عن الإسلام والمسلمين بالكلمة وبالسيف حتى سقط شهيدا وهو يذوذ عن حياض الجسم والدين.

تكاد تجمع الروايات التي تحدثت عن ابن الأبار، وعن حياته الخاصة والعامة في الأندلس، ثم في بجاية وتونس، أنها كانت مليئة بالصراعات التي شهدتها فترة الحفصيين في بدايات ظهورهم والذي تزامن وقتهم، بالكارثة والهزيمة التي حلت بالمسلمين في الأندلس، وسقوط بلنسية بتاريخ 17 صفر 636هـ الموافق لـ 28 سبتمبر 1238م، وكان ابن الأبار نائبا عن ابم مردنيش في تسليم المدينة، مدينة الشاعر ابن الأبار الذي خرج منها هو وجماعة كبيرة من أهل العلم والأدب إلى بجاية وتونس وقسنطينة وغيرهم من المدن، واحتضنت الدولة الحفصية هؤلاء الوافدين وأنزلتهم منزلة أهل البلد البلديين، وأولتهم المناصب والمراتب العليا، غير أن هذا الأمر أثار حفيظة بعض الشعراء والأدباء من البلديين، فكانت الجفوة وكان

---

[1] ابن الأبار، الحلة السيراء: ج$_1$، ص 15./ ابن الأبار، الديوان، تحقيق د. الهراس، ص 9.

ملاحظة: لقد اهتم المحدثون بابن الأبار، وأقاموا حوله دراسات جادة وعلى رأسهم الستشرق الهولندي (دوزي).

- ثم حسين مؤنس- ثم د. عبد السلام الهراس في تحقيقه للديوان- ثم دراسة عن ابن الأبار للأستاذ/ القلي الراوي وإن لم تنشر بعد، كما نشرت له أغلب أعماله التي سلمت من أيدي الناس ومن الحرق والإتلاف يوم محنته مع المستنصر سنة 658هـ، والمستشرق الهولندي راينهارت بيتر آن دوزي/ وقف مع ابن الأبار في مقدمة البيان المغرب وقفة لائقة به، كشاعر وأديب ومؤرخ وعالم إسلامي كبير.

الحسد الذي تغذى من هذه النعرة الضيقة[1] بالقول (هذا أندلسي وهذا تونسي) الأمر الذي أدى إلى صراع مرير بين أفضى إلى مذابح وفظائع في عهد الدولة الحفصية كقتل ابن الأبار بدعوى أنهم وجدوا في منزله بيتا من الشعر[2] في هجاء السلطان الحفصي المستنصر وهذا أمر لا يصدقه عاقل! لأن شعر الهجا أثر له في ديوان ابن الأبار وقد أكد بنفسه أنه لا يجاري الهجائين.

وبعد أن نفي إلى بجاية وأقام بها أكثر من سبع سنوات كتب إليه صديقه ابن عميرة المخزومي سنة 657هـ يستدعيه إلى عاصمة الحفصيين. فلبى النداء ونال حظوة عند المستنصر، غير أن دسائس منافسيه، وحساده قد حبكوا له فرية افتروها، فصدقها السلطان، المستنصر، وقتل ابن الأبار قعصاً بالرماح في عام 658هـ.

وأحرقت كتبه، وما بقي منها، هي الكتب التي تركها في بجاية، وهكذا تنطفئ شمعة من شموع العلم والشعر خاصة في الدولة الحفصية وذهب ابن الأبار ضحية: المؤامرات والدسائس التي وسم بها القصر الحفصي، سواء تعلق الأمر بالمناوئين من الشعراء والأدباء والعلماء أو مع القادة العسكريين، أو مع القبائل العربية والبربرية التي كثيرا ما انتقضت على الحفصيين في جميع نواحي الدولة الحفصية. ثم سرت تلك الآفة بين أفراد الأسرة الحفصية فارتكبوا المجازر فيما بينهم حتى أفل نجمهم الذي أذهبته تلك الدسائس، والفِتَنُ والإنتقاضات والمظالم.

آثاره:

يقول عن ذلك ابن عبد المالك المراكشي، صاحب الذيل والتكملة. الذي كان شديدًا وقاسيا على ابن الأبار، يقول عنه بإنصاف العلماء:

« وكان آخر رجال الأندلس براعة وإتقانا، وتوسعا في المعارف وافتنانًا، محدثًا، مكثرًا، ضابطا، عدلاً ثقة، نافذًا، يقظًا. ذكرًا للتواريخ على تباين أغراضها، مستبحرا في علوم اللسان نحوا ولغة وأدبا، كاتبا بليغا، وشاعرًا مفلقًا مجيدًا، عني بالتأليف وبحث فيه وأعين عليه بوفور مادته، وحسن التهدي إلى جلدته، وصنَّف فيما كان ينتحله، برز في إجادتها، وعجز عن الوفاء بشكر إفادتها[3]».

وقال عنه الغبريني[4]:

---

[1] كتب أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن أبي القاسم التجاني المتوفى سنة 660هـ كتابا ينتصر فيه لابن الأبار، اسمه: مؤازرة الوافد ومبارزة الناقد في الانتصار لابن الأبار.

[2] الغبريني، عنوان الدراية، ص 250.

[3] - ابن الأبار، الديوان، تحقيق د. عبد السلام الهراس، ص 17.

[4] -الغبريني، عنوان الدراية: ص 250.

« ولا يكاد كتاب من الكتب الموضوعة في الإسلام إلا وله فيه رواية إما بعموم أو بخصوص».

وهو بهذا الإنتاج الضخم، والمكانة السامية التي اكتسبها بين الأدباء والشعراء يبقى واحدًا من أشهر علماء وشعراء القرن السابع الهجري.

وقد ذكرت لابن الأبار، عدة مصادر منها ما هو مفقود، لم يعثر عليه حتى الآن، أما أشهر كتبه الموجودة والمطبوعة فهي:

1- ديوان ابن الأبار: تحقيق د. عبد السلام الهراس.

2- در السمط في أخبار السِّبْط.

3- إعتاب الكتاب.

4- الحلة السيراء.

5- معجم أصحاب أبي علي الصدفي.

6- تحفة القادم.

7- التكملة لكتاب الصلة.

أما بقية العناوين[1] فهي مذكورة في المصادر التي أشرنا إليها، وهي تربو على خمسة وأربعين كتابا، والبقية الأخرى إما ضاعت وأحرقت معه يوم وفاته أو لم يعثر على بعضها حتى الآن.

ومن حسن ترسيله وبراعة بيانه في النثر الفني، الذي ازدانت به كتبه وتراجمه في رسالة وجهها إلى السلطان الحفصي «المستنصر»، يصف فيها وصول الماء في الحنايا من جبل زغوان إلى قصر أبي فهر، قوله:

«الحمد لله حَمْدًا لا نقلله، هذا الزمان الذي كنا نؤَمِّلُه ... ، ودولة مباركة لمحاسنها سُفُور. إلى أبي حفصٍ آلُو، فهلْ جَالَتِ النجوم حيث جالوا، أو نَالَتِ الملوكُ بَعْضَ ما نَالُوا... »

ثم يقول:

«وتتبعُ في القرابات آباءَك؛ بانيا كما بَنَوا بل زائدًا على ما أتوا، وباديا من حيث انتهوا.

أناسٌ من التوحيد صيغت نفوسُهمْ، فزُرهم تر التوحيد شخصًا مركَّبا

---

[1] - ابن الأبار، الديوان، تحقيق د. عبد السلام الهراس، ص 17.

أمجادٌ أجوادٌ في الحِبَاءِ[1] بِحَار وفي الحُبَا أطوادٌ .....» [2].

فابن الأبار: هو شيخ الكتاب[3]؛ في الأندلس وفي بجاية وفي تونس ألف في أغلب الفنون، كالتاريخ، والسير، والفقه، وفي الأدب، وفي الشعر.

وقد أثنى عليه كل الدارسين في اختياراته الشعرية التي ضمها كتابه المتميز: « الحلة السيراء».

جمع في هذا الكتاب دقة المعلومات وصحتها، وحسن اختيار أشعار الشعراء، في أسلوب أدبي راقٍ، ينم ذلك عن حسن معرفته وتذوقه للشعر العربي وحسن اختياره.

وقد تقلد مناصب الكتابة في بجاية سنة 638هـــ بعد وفاة الكاتب البجائي الشهير المعروف بأبي الجلاءُ[4]، ثم في تونس، وألف أغلب هذه الكتب ليبرهن على سعة اطلاعه وغزارة حفظه من الموروث الشعري خاصة ومن الموروث العربي الإسلامي عامة، فنال بذلك الثناء الجميل وبقيت كتبه شاهدة على مرحلة من أهم مراحل الدولة الحفصية في بداية تأسيسها .. فكان ابن الأبار نجما ساطعا في سماء الشعر والأدب، ازدانت المكتبة الحفصية بآثاره التي خلدت حوادث هذه الدولة في السياسة والاجتماع وفي الأدب والشعر.

غَيْرَ أَنَّ القَدَرَ، عبس في وجهه فأزهقت روحه بغير حق وأحرقت كتبه وذهبت عصارة فكره .. مع نزوة من نزوات المستنصر وطيشه! ولكن الذي بقي من شعره رفعه عاليا، فنال بعد مماته ذكرًا وخلودًا ربما لإحساس الدارسين بالظلم الذي لحقه، فكان له هذا الاحتضان الذي زاد على أمثاله من الشعراء والأدباء فكأنما القدر عوضه ضياع ثروته العلمية الثمينة، وبهذه الدراسات التي نبهت على مكانته وعلى فضله وغزارة علمه، ودقة معلوماته.

ولئن قتل ابن الأبار فإن علمه قد أحياه.

رأي ابن الأبـــار في الزمـــان

وفي أصدقائه ومنافسيه

تحيف حالتي حيفُ الزمان — وصِدْقُ اليأس مِنْ كَذِبِ الأماني
وبرَّت في أُلِيَّتِها الليالي — بترويعي فإني بالأمانِ
أما قَنَعَتْ وقد كُلِفَتْ بهضمي — وضيمي دون أبناء البيان
أحاول أن أقوم لِمَا يُوَاتِي — فتُقْعِدُني الخُطوبُ بلا تواني

---

[1] - الحِبَاءُ: الإكرام./ الحُبَا: ج حُبًى، ما يُحْتَبَى بِهِ، أي ما يحتمى به، فهم كرماء كالبحار منعاء نصراء كالأطواد.

[2] إعتاب الكتاب، تحقيق: صالح الأشتر، ص .

[3] - ابن الأبار، الديوان، تحقيق د. عبد السلام الهراس، ص 12.

[4] -الغبريني، عنوان الدراية: ص (250-261).

أيا ما أشتكيه من أَيَامَى   عَوَارٍ في يَدِ البلوى عواني

وبعد هذه الإشارات الواضحة، أن الزمان غمطه من بين أصحاب البيان والعلم، وهو كلما حاول أن يقوم حاله، زادته الأيام خطبًا على خطب، وهو يشير إلى العذال الذين كثروا في السعاية و الأذى له عند السلطان، حتى أوغروا صدره عليه وهو يكن لأترابه وأصدقائه جميل الود والإكبار.

ثم يشير إلى عمل هذه الفئة من الحساد والعذال فيقول[1]:

يُعيِّرْني قَوْمي بِجَفْوَةِ سلطاني   ويَشْفِيهم شَكْوِي بنبوة أوطاني
يرونَ خمولاً عطلتي لتوقفي   وتلك على محض النباهة برهاني
وقالوا خُفوفٌ قلت بل حاجة   كَفَتْنِيَ إلقاءً بِكفِّي لإذعان
إذا عهدوني للنزاهة راكبا   فصعْبُ الأسى سهل وإن هدَّ أركاني

وفي هذه الأبيات يصرح الشاعر بكل حسرة وألم ما يلاقيه من مناوئيه ومعارضيه:

فيعيرونه بالغريب عن الوطن والبعيد عن السلطان وعن كل مآربه.

ثم يقول:

إن هذا الجفاء وهذا التغرب لا عن ضعف منه ولا عن خمول، بل هي الأنفة والإباء والشرف الذي يصون أمثالي عن التذلل، والهوان. ومذهبي في الحياة نزاهة وعفة وإباء، ولن أتخلى عن طريقي في الحياة ولو لاقيت من الأحزان والمآسي ما ألاقي.

وهذه النفس الأبية التواقة إلى العلا في عزٍّ وشموخ أجلبت عليه هؤلاء الذين كادوا له ودبروا له المكايد حتى نجح مسعاهم.

وتقول بعض المصادر إن وراء هذه الجماعة أستاذه وصديقه **أحمد بن عميرة المخزومي** ولو تذكرنا ما قاله ابن الأبار يمدحه في الأندلس قبل خروجهما إلى بجاية ثم تونس لكانت غرابتنا أكبر، من تغير هذا الرجل الكبير في علمه وفي أدبه وشعره وفي فقهه إذ يقول فيه ابن الأبار[2] وقد تولّى قضاء شاطبة:

«بأيِّ بَنَانٍ أم بأيِّ بيان   تَخُطُّ وَتُملي شُكْرَها المَلَوَانِ

لِولايةٍ عَقَدَ لِوَاءَها لوجوبُ، وأسفر وجه محاسنها المحجوب.

---

[1]- المقري التلمساني، أزهار الرياض: ج3، ص 222(الوافر).

[2]- المقري التلمساني، أزهار الرياض: ج3، ص 218.

ويستمر في مدح مدينة ابن عميرة المخزومي بقوله: ويا لَبلْدَةٍ وطِئَ تربتها، وبُوِّئَ رتبتها، ما أخصب عيشتها وأرغدها، وأسعدَ يومَها وَغدَها!.

لا زالتْ حوْزَتُها تحُوزُ الأكابر، ....

بيْنَ وليٍّ شاكرٍ حامدٍ، وعدوٍّ كاشر حاقد؛ يَنْزِلُ الرُّتَب المنيفة، ويطولُ به مالكٌ أبا حنيفة؛ واللهُ ينهضه بما تَقَلَّد، ويخلِّدُ مَجْدَهُ الأَوْلَى بأَنْ يُخَلَّد.

والسلام الأتم الأكمل»

فالود بين الرجلين قديم، والحب كان يمكن أن يبقى ويستديم، غير أن الأيام تغير من لا يتغير، وتبدل من لا يتبدل. إذ جُبِلَتْ هذه النفوس على الطمع والأنانية واستبدلوا الوفاء بالغدر والنكران.

وإذا كان الناس يتغيرون ويتبدلون، فإن التاريخ سيلفظهم. بل الذين يمجدهم التاريخ وتلهج بهم أَلْسِنَةُ الشعراء هم الذين ثبتوا على عهدهم ووفائهم لمبادئهم.

وقديما مجَّد زهير ابن أبي سلمى في شعره: هرم بن سنان والحارث بن عوف لوقوفهما موقفًا حكيمًا في الحرب التي دارت رحاها بين القبيلتين عبس وذبيان، وفي التاريخ أمثلة ومواعظ.

ومن أشهر شعر ابن الأبار قصيدته السينية والتي استهلها بقوله:

أدْرِكْ بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا[1]

نظرا لأن هذه القصيدة قد ذاع صيتها عند النقاد والدارسين للأدب، بل راح يعارضها الكثير من الشعراءن فما بلغوا مرتبتها ولا دنوا منها وهي تستحق أن تنقل كاملة لفضائلها الفنية، غير أن المقام لا يسمح بذلك، فاخترت منها حسب تقسيم القصيدة إلى أفكار أساسية، تعين القارئ على دراستها وفهمها.

يستهل قصيدته بهذه الأبيات التي يستصرخ[2] بها الخليفة الحفصي (أبا زكريا) لإنقاذ الأندلس.

أدْرِكْ بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا
وهب لها من عزيز النصر ما التمست فلم يزل منك عز النصر ملتمسا[3]
وحاش مما تعانيه حشاشتها فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
يا للجزيرة أضحى أهلها جزرا للحادثات وأمسى جدها تعسا
في كل شارقة إلمام بائقة يعود مأتمها عند العدا عرسا[4]
وكل غاربة إجحاف نائبة تثنى الأمان حذرا والسرور أسا

و يتحسر على بلاده بلنسية في أبيات أخرى من نفس القصيدة بقوله:

---

[1] درسا: اندثر وزال، ج: دوارس.

[2] - قال تعالى:﴿ **وإن نشأ نفرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون**﴾ آية 43 سورة يس.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿ **فلا تلوموني ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم، وما أنتم بمصرخيَّ** ﴾آية 22 سورة إبراهيم.

[3] ملتمسا: مطلوبا.

[4] الشارق: اسم فاعل، الشمس حين تشرق، البائق من المتاع ما لا ثمن له. يقال (متاع بائق) أي لا قيمة له. البائقة: الداهية.

لهفي عليها إلى استرجاع فائتِها   مدارسا للمثانى أصبحت دُرُسا
وأربُعا نَمنَمتْ أيدي الربيع لها   ما شِئتَ من خِلعٍ موْشيَّة وَكُسا
كانت حدائق للأحداق مونِقَةً   فصوّح النضر من أدواحها وَعَسا
وحال ما حَوْلها من منظر عجب   يستجلس الركبَ أو يستركبُ الجُلُسا
سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا   عيثَ الدَّبا في مغانيها التي كَبَسا

ثم يدعو إلى الجهاد وتجييش الجيوش في هذه الأبيات:

وأوطِئِ الفيلقَ الجرار أرضهمُ   حتى يطأطئَ رأسـًا كلُّ من رأسـا
وانصر عبيدا بأقصى شرقها شرقت   عيونهم أدمعـا تَهْمِـي زكًـا وخسـا[1]
هم شيعة ُ الأمر وهي الدار قد نهكت   داءً وما لم تباشر حسمه انتكسا
فاملأ هنيئا لك التأييد ساحتها   جردًا سـلاهب أو خطِّيَّة دُعُسـا
واضرب لها موعدا بالفتح ترقبُه   لعلَّ يوم الأعادي قد أتى وعسى

[1] الزكا: الزوج، والخسا: الفرد. الدمع يهطل من عين واحدة أو منهما معا.

عبد الله بن محمد التجاني

نشأته وحياته[1]:

ولد بتونس في بيت عريق، توارث الأدب والشعر كابرًا عن كابر، وقد اغترف الشاعر من هذا الحوض، مختلف معارفه، حتى بَذَّ أقرانه وسبقهم في ميدان الشعر والكتابة وعندما قوي عوده، اصنعه السلطان أبو زكرياء الحفصي لكتابة سره، واستصحبه في سفرته الشهيرة إلى جنوب تونس سنة 706هـــ لفتح جزيرة جربة، ثم قضاء الفريضة بعدها، (ودامت هذه الرحلة سنتان وثمانية أشهر) 975 يوما.

عاد بعدها عبد الله بن محمد التجاني إلى تونس، وقد سطع نجمه بين أقرانه من الشعراء وفي قصر الحفصيين خاصة، لما قدم لهم وأشاد بأفضالهم ومآثرهم في كتاباته، وخاصة في أشعاره التي خصصها لمدح بني حفص.

شعره:

قال في الرحلة: كان ابن شبرين ينوي الحج إلى بيت الله، فوصل إلى تونس سنة 703 هـــ فلم يقدر له ذلك، وفي السنة الموالية، عاد إلى سبتة (عام أربعة وسبعمائة) فاتفق بعد وصوله إلى بلاده، من أخذ البلد ما اتفق، وطرق أهله من التشتت ما طرق. فكان هو وأبوه ممن انتقل إلى غرناطة، فتخطط هنالك بكتابة الرئيس الوزير أبي عبد الله بن الحكيم الرندي، وبعث إلي هذه القصيدة إلى تونس، معرِّفا لتلك الحال، فوجهت إليه من تونس من المخاطبة والمجاوبة ما ملأ سفرًا[2].

سميته « نفحات النسرين في مخاطبا ابن شبرين»، ونص قصيدة ابن شبرين هذه (الكامل) [3]:

ماذا على صَوْبِ الحَيَا المُنْبَجِسِ	لو جادَ رسمًا بالكثيب الأوعسِ
لا يوحش الله المنازل بِالحِمَى	وسقى عهود الغانيات الأُنَّسِ
ولئن نسيتُ فلست أنسى جيرةً	راضعتُهم دَرَّ المُنَى في تونسِ
والحي من تيجانَ فاشرح عندهم	فرط اشتياقي نحو ذاك المجلس

***

[1]- النيفر، محمد، عنوان الأريب: ص 82. هو أبو عبد الله بن محمد بن أحمد التجاني، انظر رحلة التجاني، تحقيق: ح.ح.عبد الوهاب، طبعة الدار العربية للكتاب ص ص(12، 34)

[2]- التجاني، الرحلة: ص 180.

[3]- التجاني، الرحلة: ص 118.

لله درك من بليغٍ لابسٍ   من حُلَّة الآداب أسبغَ مَلْبَسِ

وينهي قصيده بهذه الصورة التي تحمل من الود الصادق، والعرفان بفضل آل التجاني، قائلا:

فلتبعثوا للمستهام تحية   تدني سراتي وتُذهبُ أبؤسي
لازلتم تلقون في أطواركم   عزًا تدين لديه شُوشُ الأَرْؤُس

وقد ردَّ عليه التجاني صاحب الرحلة، وقد علم ما حل ببلد ابن شبرين قائلا[1]:

حدِّثْ عن الحادثِ الذي وقعا   تُلْفِي مُصيخًا إليك مُسْتَمِعَا
وهاك ما قد سمعت منه وإنْ هل   تركتَ قَلْبِي بذاك مُنْصَدِعَا
معهد الأنس كيف كان فقد وهَلْ   عهدته للكمال مجتمعا
حِمَى العزِّ فيه محترم   أم سُلبَ العِزُّ منه وانتزعا؟!

***

باكرهم حادث فَفَرَّقَهُم   وأَذْهَبَ الناس والبلاد مَعَا
وجرّ عدوانه فجرَّعهم   به من الهَمِّ والأسى جُرَعَا

ويستمر الشاعر التجاني في وصف مشاعر الحسرة والأسى لما أصاب أهله في الأندلس وما آل إليه حالهم، على لسان صديقه ابن شبرين، ويرى أن الأمل معقود على الفئة الخيرة من المسلمين، في استعادة الأوطان إلى أهلها قائلا؛ وهل يجود الدهر على هذه الأمة بالنصر بعد الهزيمة؟!

يا ليت شعري وفي المُنَى سَعَة   إنْ أبقت الحادثات مستمِعَا
هل يرجع الدهر ما مضى فَلَكَمْ   قَدْ عَادَ من ذاهب وكم رجعا
أمْ لا يُرَى عائدًا فوا أسفي   على زمان مضى وَوَا جَزَعَا!

ثم يصف حال المسلمين وقد انفرط عقدهم، وتناثر جمعهم، بعد اجتماعهم:

مُنَثَّرًا في البِلاَدِ نَظْمُهُمُ   يَا مَنْ رَأَى السِّلْكَ بَعْدَمَا انْقَطَعَا

هذه الحال التي آل إليها أهل الأندلس، أوجعت الشاعر، وحركت أشجانه، مبديا أسفه وحزنه رغم وفائه لصديقه، ولكن ذلك وحده لا يكفي لسعادته فَقَدْ فَقَدَ طعم الحياة ولذة العيش، وأية لذة للحياة وقد ذهبت عزة إخوانه في الأندلس، فمن أين له أن يفرح أو تلتذ له الحياة فيقول في آخر القصيدة[2]:

---

[1] - التجاني، الرحلة: ص 121.

[2] - التجاني، الرحلة: ص 123.

ما طاب لي بعدك البقاءُ ولا   وجدت لي في الحياة مُنتَفَعَا

ومما يلاحظ على أبي عبد الله محمد التجاني، أن أغلب شعره في الإخوانيات، وفي المناسبات، وفي المدح وفي المولديات، هذه هي أهم الأغراض الشعرية التي وردت في رحلته القيمة بالأدب والأحداث التاريخية التي اتسمت بالدقة حتى إن ابن خلدون إعتمد هذه الرحلة في كتابة تاريخه (العبر).

وستبقى رحلته مليئة بالشواهد الشعرية التي تبادلها مع نخبة من شعراء عصره[1]:

كابن حسينة، والهواري، ومع شعراء من عائلته: كوالده الذي مدح الخليفة وأثنى عليه في عدة قصائد، ثم مع أخيه أبي العباس أحمد، ومع ابن عمه عليّ.

وقد إزدانت هذه العائلة بعشرات من الشعراء، رجالا ونساء فهو من بيت علم و بيت شعر.

قد أسهم في بعث الحركة الشعرية في العهد الحفصي، بفضل كتاباته، ومشاركته لأحداث عصره، واتخاذه موقفا منها، كما عارض ونافس شعراء في حلبة الشعر، فأثبت جدارته، وحسن أدائه الفني، ولو اخترت له من القصائد لاحتاج الأمر إلى كلام يطول، حول شعره.

ومما جاء على لسان التجاني وهو يودع أستاذه أبا فارس عبد العزيز الطرابلسي الإمام الكبير قوله[2]:

سقى ربوعك يا مغنى طرابلس   حيا يحييك منه كل منبجس
فَكَمْ يد لَكَ في تأنيس مغترب   شطت به الدار عن أنس وعن أنس
أقمت فيك على حكم النوى زمنا   كأنني فيه للسلوان في عرس
محيي العلوم ومحصيها ومبرزها   من حلي ألفاظه في أحسن اللبس
نعمت بقربه لمَّا اتصلت به   بوقت أنس من الأيام مُختلس

ثم يدعو له بالسلامة وطول العمر لخدمة الدين والعلم بقوله:

والله يحفظه غوثًا لمستبق   لكشف نازلة نورا مقتبس

فالتجاني كما لاحظنا على شعره يدور حول موضوع الإخوانيات والإشادة بهذه الصداقات التي ربطته مع شعراء عصره في المغرب والأندلس، فكان بذلك وثيقة حية لمرحلة هامة من مراحل حياة الدولة الحفصية.

---

[1] - التجاني، الرحلة: ص 268.

[2] - النيفر، عنوان الأريب: ص (82-83) – التجاني، الرحلة: ص 220.

ومما راجع به صديقه الشاعر محمد قوله[1]:

أَلَمُ الفراق على النفوس عظيم   من ذا بعبء الصبر فيه يقومُ

وبعد أن يذكر القارئ بحقيقة من حقائق الحياة وهي أن الفراق والغربة عن الأحباب شيء لا يطاق. يقول:

لله إخوان نعمت بقربهم   زمنًا وأيامُ الوصال نعيمُ

ثم عن الزمان وظلمه في تشتيت الأصحاب، وتنغيص حياتهم، في قول يشبه الحكمة أو الرأي السديد قائلا:

غاظ الزمان دُنونا فأعاده   بُعدًا فشُتّتَ شملُنا المنظومُ
لكنها الأقدار تجري بالذي   شاء الإله وَحَسْبُنَا التسليمُ

وبعد أن يقرر أن القدر غالب ولا راد لقدر مقدور يقول:

وَمَنَعْتُ جفني بعدهم سِنَةَ الكرى   أنَّى يكون للهائم تهويم

ومن أصدقاء التجاني إبراهيم بن حسينة، الذي أورد له قصائد كثيرة تبادلها خلال رحلته، فرد عليه ذات مرة قائلا: (وافر)

أمحرز كل منقبة حميدة   ومن لم نُلْفِ في الدنيا نريده

وورد عليه ذات يوم خطاب في الفقيه الشاعر : أبوبكر بن فتح ، فرد عليه التجاني بهذه القصيدة التي نقتطع منها:

أتتني منك أبيات حسانٌ   شمائلها أرق من التمول

ثم يخلص إلى رأيه الأيام يقول[2]: (وافر)

أرى الأيام تمنعني مرادي   وتُلقي بي لقصدٍ مستحيلِ
وأطلب للعلا فيها وصولاً   فيصعبُ للعلا مِنها وصولي
ويُمضي الأمر غيري وهو دوني   وأمري لابس ثوب الخمول
وإن تَكُ قَدْ أنالتني قليلا   فمثلي ليس يقنع بالقليل
وما طلبي لها إلا لعلى   أَسُوءُ عدايَ أو أُرضي خليلي
وليس ينال حظّ باجتهاد   ولا تجري على قَدْرِ العقول

---

[1] - التجاني، الرحلة: ص 218.

[2] - التجاني، الرحلة: ص 126.

ومن هذا البيت الأخير نرى الشاعر يضرب عرض الحائط بمقولة تكاد تجتمع عليها الخلائق أن العلا لا تنال إلا بالعمل، وبالجد، وبالسهر ....

وإنما يريد أن يقول: إن الإنسان لا ينال ما يطمح إليه – دائما- بعقله وبعمله وذكائه فقد تجري الأمور على غير ذلك ؟!

غزلياته:

ومن غزلياته أن كتب إليه صديقه الشاعر أبو إبراهيم بن حسينة قصيدة مطلعها [1]:

طَلَعتْ كالبدر المكتمل   فتوارى البدر من الخَجَلِ
وأمال اللحظ تمايلها   عن غضن البانِ المعتدِلِ
حوراءُ يحار الصَّبُّ بها   ويخلِّي السلوة كل خليِ يَعْدِلْ
حكمتْ بهواها فيَّ فَلَمْ   في الإمرة حين وَلِي
جمعت أشتات الحسن فقد   زادت في الحسن على المَثَلِ

ومما كتب التجاني إلى صديقيه الشاعرين؛ أبو عبد الله البلوري، والشاعر الهواري ردًا على قصيدتيهما قوله[2]: (كامل)

إنْ لم تفض بدمائها أجفاني   لفراق مَنْ أهوى فما أجفاني
من مبلغ عنِّي السلو بأَنَّ لي   في الحُبِّ قلْبا غير ذي سلوانِ
عندي لأحكام الوداد شريعة   أضحى القصُّ بحكمها كالداني
قَدْ أَتْحَفَتْنِي بالوداد بَنُو أبي   زَاكٍ فَفَخْرًا يا بَنِي تِجَانِي

فالتجاني في هذه القصيدة وفي غيرها، يبدي وفاء وعهدًا لمن صادقهم لا يحيد عن ذلك مهما تغيرت الأيام وتبدلت، لأنه أدرك أن الحياة لا تستقيم إلا مع الوفاء بالعهد، والعرفان بالجميل، وإلا استحالت حياتنا إلى جفاء وجدب.

وقد رَدَّ عليه الشاعر الهواري بقوله[3]:

كتابكم أهدى من الوجد ما أهدى   فلا تحبسوا أني نقضتُ لكم عهدا !

---

[1] - التجاني، الرحلة: ص 238.

[2] - التجاني، الرحلة: ص 164.

[3] - التجاني، الرحلة: ص 165 (طويل).

آثاره:

أغلب آثار التجاني ضاعت ولم يبق منها إلا القليل. نذكر منها:

1) «الدر النظيم»، في الأدب والتراجم.

2) الرحلة المشهورة (من 706-708).

3) أداء اللازم ، في شرح مقصورة حازم.

4) الوفاء، ببيان فوائد الشفاء.

5) تقييد على صحيح مسلم.

6) تقييد على المسند الصحيح للبخاري.

7) نفحات النسرين في مخاطبة ابن شبرين الأندلسي.

8) علامة الكرامة في كرامة العلامة (مفقود).

9) تحفة العروس، ونزهة النفوس.

هذا الكتاب ليس كغيره فقد خصصه للنساء ودراسة أحوالهن من فرح وسرور وإقبال وإعراض ...إلخ.

حازم القرطاجني

نشـــأته وحياته[1]:

هو حازم بن محمد بن خلف بن حازم الأنصاري القرطاجني، النحوي أبو الحسن. شيخ البلاغة والأدب. ولد سنة ثمان وستمائة، بقرطاجنة من شرق الأندلس، (وهو خاتمة الشعراء الفحول بالأندلس)- كما يقول المقري[2]- ولما سقطت قرطاجنة، قصد الشاعر المغرب الأقصى مدة قصيرة، ثم اتجه نحو عاصمة الحفصيين في حدود 637هـ[3].

وقد نال حظوة ومكانة مرموقة عند الحفصيين، إلى أن توفي بتونس سنة 684هـ.

قال فيه ابن رشيد[4]:

« حَبْرُ البلغاء، وبحر الأدباء، ذو اختبارات فائقة، واختراعات رائقة، لا نعلم أحدا ممن لقيناه، جمع [من علم اللسان ما جمع]، ولا أحكم من معاقد البيان ما أحكم، من منقول ومبتدع؛ وأما البلاغة فهو بحرها العذب، والمتفرد بحمل رايتها أميرا في الشرق والغرب.»

ثم ينقل عنه الأستاذ عثمان الكعاك فيقول:

«ويبدو أن حازما -رغم هذا العلم العريض- كان امرأ تعتريه سذاجة، في شؤون الحياة العملية»[5]

وهي قصة فهمت منها خفة روح الشاعر ودماثة خلقه بل إنها تدل على مرحه وهزله مع خلصائه من الشعراء والأدباء. وليست دليلا على سذاجة حازم كما يرى البعض.

شعره:

شعره مجموع ومحقق، يدور حول مدح الرشيد في مراكش وفي مدح مؤسس الدولة الحفصية أبي زكريا يحيى وابنه المستنصر الذي خصه في مطولته (المقصورة) التي فاقت غيرها من المقصورات.

ومطلعها:

---

[1] القرطاجني، الديوان، تحقيق عثمان الكعاك(المقدمة)./ المقري التلمساني، نفح الطيب: ج2، ص 584./ المقري التلمساني، أزهار الرياض: ج3ص171(نقلا عن السيوطي).

[2] المقري التلمساني، أزهار الرياض، ج3 ص 173.

[3] القرطاجني، الديوان، تحقيق: عثمان الكعاك، دار الثقافة. بيروت.لبنان. ص.

[4] م. ن، ص.

[5] العامري، محمد الهادي، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الإزهار والذبول، ص 73.

لله ما قد هِجْت يا يوم النوّى   على فؤادي من تباريح الجوى

وقدم لها بخطبة[1] عالية في معانيها ومبانيها، تنم عن طبع سليم وعلم محصل غزير كما في قوله مفتتحا حديثه ممهدا لمقصورته التي قصرها على السلطان الحفصي المستنصرقائلا:

« الحمد لله الذي أنطقنا بأفصح الألسن، ووفقنا إلى التمييز بين ما يقبح من الكلام وما يستحسن، وصلى الله على سيدنا [ومولانا] محمد رسوله، أفضل من سمعت به الآذان ونظرت إليه الأعين،...ثم يتحدث عن الخليفة المستنصر قائلا:

فهو الذي نصر الله به الكتاب والسنة، وجعل عزمه للدين والدنيا أمضى حسام وأوقى جُنّة، ملك جمع الله له العلم والعمل.

فالعلمُ مِنْ جَنَانِهِ   والرِّزق من بَنَانهِ
والصبحُ من سَناهُ   والشمس من عيانه
والبرق من ظباهُ   والريحُ من عِنانهِ
فالدهر ليس فيه   أسعدُ من زمانه
والأرض ليس فيها   أخصبُ من مكانه

ملك تحلّى من كريم الخلال وعظيم الجَلال، ما تحلى، فعاد به في افق الخلافة نورها وتجلّى.

أما بعد فإني أريد أن أنُصّ في هذا المجموع وأجلو في هذا الموضوع، عقيلة من بنات الأفكار، تزهى على العقائل والأبكار، وغاص لها الخاصر في بحار الأغراض على درر أصدافها جواهر، وجواهرها أغراض، فانتظم عِقدها من اللؤلؤ المكنون، وانقسم ما اشتملت عليه من الأغراض والفنون، إلى مديح وغزل، وحكمة، ومثل، ووصف معالم ومجاهل، ومنازل ومناهل، ورياضٍ وأزهار، وحياضٍ وأنهار، وأزمان وأعصار، ومدن وأمصار، ومواطن تبسم واستعبار،...

حديقة مبهجة للنفوس والأسماع والأحداق.

وما هذه القلادة المنظومة والروضة الممطرة، إلا قصيدة من الرَّجَزِ غير مشطورة، عارضت بها قصيدة أبي بكر بن دريد[2] المقصورة، وأطلعت فيها نورا هاديا من ثناء الحضرة المنصورة، واجتنيت ثمرها من أفنان أنعمها المهصورة... فهي أُمُّ القصائد. ووسطى القلائد، تطلق الألسنة، وتوقظ القلوب من السِّنة، وتونس وتُسْلي وتُعْلي قدر حافظها وتُغْلي ، فيها تذكرة لمن يتذكرهذه المقصورة التي قدم لها حازم بما

[1] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص7.

[2] مطلع مقصورته قوله: لله ما قد هجتَ يا يوم النوى   على فؤادي من تباريح الجوى

يكفي ويغني القارئ أن يطلع على دررها الكوامن ...ولو دخلنا نغوص في معانيها وأخيلتها وأساليبها لاحتاج منا الأمر إلى إطالة، وحسبنا الإلماع إلى قيمتها وفضلها على مثيلاتها من المقصورات.

وإذا حاولنا استجلاء صورة شعرية وجدناها لامعة، مصقولة من الأغراض التي نسج حازم شعره فيها.

أما الجزء الثاني من شعره:

فهو شعر المعارضات للقدماء، محولا معانيها من الغواية وطيش الشباب إلى مدح للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كما فعل مع معلقة امرئ القيس، وكما نافس ابن عمار في جيميته الذائعة الصيت.

وهكذا نجد أن حازما قد مكن للشعر في عهد الدولة الحفصية وكان قطبا من أقطاب الحركة الشعرية التي فتح سوقها يتنافس فيه المتنافسون، حتى امتلأت المدن الحفصية بشعر الشعراء يرددونه في كل مكان وزمان.

وقد تجدد هذا الشعر بفضل الدراسات التي اهتمت بآثار حازم ومن عاصره، فكانت تلك الدراسات علامة على إحياء تراثنا الشعري القديم(في عهد الحفصين خاصة).

رأي النقاد فيه:

قال عنه أبو حيان:

«كان أوحد زمانه في النظم، والنثر، والنحو واللغة، والعروض وعلم البيان.روى عن جماعة يقاربون الألف، وروى عنه أبو الحيان، وابن رشَيْد»

وذكره في رحلته[1] وأثنى عليه.

« حَبْرُ البلغاء، وبحر الأدباء، ذو اختبارات فائقة، واختراعات رائقة، لا نعلم أحدا ممن لقيناه، جمع [من علم اللسان ما جمع]، ولا أحكم من معاقد البيان ما أحكم، من منقول ومبتدع؛ وأما البلاغة فهو بحرها العذب، والمتفرد بحمل رايتها أميرا في الشرق والغرب.»

- المعارضات:

يقول معرفا لها[2]:

«أن يتفق الشاعران اللاحق والسابق في الغرض والوزن والقافية وبدون ذلك لا تتأتى بحال المفاضلة بينهما»

---

[1] رحلة ابن رشيد: ملء العيبة.

[2] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص80/ القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 376.

وقد تحققت هذه الشروط في معارضاته:

أ. لابن دريد في المقصورة

ب. للصابوني في الصادية

ج. للطرسوني في التسبيح[1]

ويقول د/ الحبيب بن الخوجة إن شروط المعارضة لم تتحقق في جيميته التي عارض بها ابن عمار شاعر المعتمد بن عباد.

أما التضمين لأشعار القدماء فقد أثنى عليه الغرناطي الذي درس مقصورته تحت عنوان:« رفع الحجب المستورة عن محاسن المقصورة[2]»

فقد أشاد بحازم وبمعارضته قائلا:

« وقد أحسن أبو الحسن حازم في تضمين جميع قصيدة امرئ القيس وصرف معانيها إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. قوله[3]:

لعينيــكَ، قل إن زرتَ أفضل مرسَل :	"قــفا نَبْك من ذِكــرى حَبيب ومنـــزلِ"
وفــي طَيْبةٍ فانزِلْ،ولا تَغْــش منــزِلاً	"بسِقط اللِّـوى بين الدخول فحَوْمــل"
وزُرْ رَوْضَةً قــد طالما طَاب نشْرُهــا	"لمــا نَسجَتْها مــن جَنوب وشمــأل"
وَأَثْوابِك اخْلَع، مُحْرِمــاً، ومُصدّقــاً	"لــدى السِّتْر إلاّ لِبسَــةَ المُتَفضّــل"
لَــدَى كَعْبَةٍ قد فاض دمعي لبعدهــا	"على النَّحر حتّى بــلّ دمعي مِحملــي"
فيا حادِي الآمالِ سرْ بي، و لا تَقــُلْ :	"عــقَرْتَ بعيري-يا امرأ القيس-فانزِلِ"
فــقد حَلَفــتْ نفسي بِــذاك، وأقسمت	"عليّ وآلــت حَلْفَةً لــم تَحلّــَلَ"
فَقُلْتُ لها : لا شك أنِّيَ طائــع	"وأنَّــك مهمــا تــأمُري القلبَ يفعــلِ"
فَفَازَتْ بلادُ الشَّرْق من زينةٍ بــها	"بشِقّ، وشِقٌ عندنا لــم يُحــوّل"
فصلَى عليــه الله مــا لاح بارِقٌ	"كلمــح اليدين في حَبــيٍّ مُكَلّــَل"

---

[1] م. ن، ص78.

[2] م. ن، ص 81. / المقري التلمساني، أزهار الرياض، ج3، ص 174

[3] - ديوان حازم، تحقيق عثمان الكعاك، ص89.

سَرَى بجنودِ الله بَيْن تَهَائِـمِ — "وبين إكـامٍ بُعْدَمـا مُتَأَمَّـل"
فَكَمْ ملَكٍ وَافـَاه في زِيٍّ مُنْجِـد — "بِمُنْجَرِدٍ قَيدِ الأوابِـد هيكـل"
وكـم قـال: يا ليلَ الوغى طُلتَ فانبلِجْ — "بِصُبحٍ، وما الإصبـاحُ منـكَ بأمثـل"
فليت جَـوَادي لم يسرْ بي إلى الوغـى — "وبـات بعيني قائمـاً غَيْرَ مُرْسَـل"
وكـم مُرتقٍ أوْطاسَ منهـم بمُسرَجٍ — "متى مـا تَرقَّ العينُ فيـه تَسَهَّـلِ"
وقرّطَه خُرْصاً، كمصباحِ مُسرِجٍ — "أهـانَ السَّليط في الذُّبـاَلِ المُفتّـل"
سَبَتْ عُرُبـاً من نسوَة العـرْب تَستَبي — "إذا مـا اسبكرّتْ بين درْعٍ ومجـوَل "
وكَمْ من سَبَاياَ الفُرْس و الصُّفر أسهَرَتْ — "نَؤُومَ الضحّى، لمْ تَنْتَطِقْ عن تفضّـل"
وحُزْنَ بُدوراً من لَيَالـي شُعورها — "تَضِـلُّ المَدَارِي في مُثنَّى ومرْسـل"
وأبقت بِأرْضِ الشَّـام هَامـاً، كأنَّها — "بأرْجائهـا القُصْوى أنابيشُ عُنصُـل"
وكم ركَزوا رُمحـاً بدِعْصٍ، كأنَّه- — "من السَّيلِ والأغثاء-فَلكةَ المغزَل"
فلم تبن حِصنـاً خوفَ حصنِهم العدى، — "ولا أطُمـاً إلاّ مشيـداً بجنـدَل"
دَعـا النصرُ والتـأييدُ راياتـه:اسْحبي — ""على أثـرَيْنـا ذَيْـل مرطٍ مرحـل"
أيـا سامِعي مـدْح الرّسول تنشَّقوا — "نسيمَ الصَّبـا جاءت برَيَّـا القَرَنفُل"
ورَوْضَةِ حمْـدٍ للنبّـي محمّـدٍ — "غَذاهـا نميرُ المـاء غَيرُ المُحلَّـل"
ويا من أبى الإصغاء، مـا أنتَ مُنتَـه — "وما إن أرى عنك العَمايَـة تَنجلـي"
فلوْ مُطْفِلاً أنشدتُهـا لَفظَهـا أرْعَوَت — "فـألهيتُها عن ذي تَمائـم مُحـوِل"
ولـوْ سَمِعتْه عُصْم طُودٍ آمالَهـا — "فأنزَل منها العُصْم من كـلّ مَنـزِل"

لقد ذكرت من قبل أن حازما إنما فضله في صرف هذه المعاني إلى غيرها في شرف وكرامة. حتى ليخيل إليك أن الصدر والعجز أخوان اتحدا في النظم واتفقا في المعنى والغرض، وتلك هي مزية حازم التي لم يبلغها غيره –حسب رأينا- وبخاصة في هذه القصيدة المعلقة التي يصعب على أي شاعر أن يدخل بحرها ويخرج سليما من هول مياهها وهوج موجها؟! »

ويختم د.الحبيب بن الخوجة رأيه بعد أن عرف بالشاعر وبشعره قائلا[1]:

« ويكفينا من هذه العجالة أنها كانت لمعا وإشارات تنير للسالك السبيل، وتهديه الطريق، ونجمع له بين يدي دراسة شعر حازم القرطاجنِّي، بين نظريات بلاغية نقدية آمن بها الشاعر وقررها في منهاجه النقدي، ثم تتبعها في صور شعرية تطبيقية، كانت تفيض عن مواهبه وتصدر عن طبعه وعقله وفكره جميعا.

ولن أزيد على ما قاله السابقون

من أن حازما:

قد كان من خيرة الشعراء في عصره بل خاتمتهم في الأندلس وفي إفريقية(عند الحفصيين) فكان الشاعر الملهم والناقد المتمرس بالأحكام النقدية في الأدب والشعر خاصة.

وكانت له هذه الملكة الشعرية التي عرَّفها بأنها: قوة مركزة في النفس، واصطلح أهل صناعة الشعر على تسميتها بالطبع وهي آلة النظم وطريقته»

وقد كانت لحازم تلك الآلة التي صاغ بها شعره، وفي الشعر والشعراء يقول:

« والشعراء على الحقيقة طبقات ثلاث[2]:

الطبقة الأولى: هم الذين يقوون على تصور كليات المقولات الشعرية. ومقاصدها ومعانيها، بالقوة قبل حصولها بالفعل، فيتأتى لهم بذلك تمكن القوافي، وحسن صور القصائد، وجودة بناء بعضها على بعض.

والطبقة الثانية: تتصور كثيرا من ذلك وإن لم تبلغ فيه، مبلغ الطبقة الأولى.

والطبقة الثالثة: لا تتصور إلا القليل من ذلك كأوائل القصائد وصدورها، وما يكون من مقاصد الشعر محل عناية من أنفسها، فقد يتفق لهذه الطبقة أيضا أن نبني الكلام والقوافي بناء حسنا[3]»

ويخلص الشاعر والناقد الكبير مبينا طريق الفن الأصيل والشعر الخالد بأن ملكة الطبع تحتاج إلى صقل ودربة، لتصل بصاحبها إلى درجة البقاء والخلود، بسبب سبرهم للنفس الإنسانية والتعبير عنها، حيثما كانت.

لهذه النظرات النقدية، واللمحات الفنية الشعرية خلّد حازم الشعر في هذه الفترة من حياته في ظل الدولة الحفصية، متفيئا من ظلال كل دوح من أدواحها، ومن كل روض من رياضها، حتى غدا علما من

---

[1] القرطاجني، مقطعات وقصائد، ص 90.

[2] القرطاجني، منهاجالبلغاء وسراج الأدباء، ص201.

[3] القرطاجني، مقطعات وقصائد، ص 202.

أعلامها... لا يذكر الشعر في ظل الدولة الحفصية وإلا وذكر حازم في شعره الخالد. كالمقصورة، وفي المدح والوصف، وفي غزله على قلته، ثم يسمو عاليا في شعره الديني الذي بلغ فيه مبلغا عظيما، في تخليد مآثر الرسول صلى الله عليه وسلم والإشادة بمكارم أخلاقه، وصدق رسالته.

كقوله[1] :

[البسيط]

قف بين قبر محمدٍ والمنبرِ　　وَقُلِ السلامُ على السراج الأنورِ

المقصورة[2]

لقد قصر مدحه فيها على المستنصر وأخيه أبي يحيى، وهو في هذه المقصورة يقلد ابن دريد كمامر يقول في مطلعها:

لله ما قدت هجحت يا يوم النوى　　عــلى فـؤادي من تبــاريح الجــوى

لقد جمعت الظلم والإظــلام إذْ　　واريتَ شمس الحُسْنِ في وقت الضحى

ثم يخلص لمدح الخليفة الحفصي بقوله:

خلــيفة الله المسمى المكتنى　　خير الأسامي الساميات والكنى

المرتقى من نسبة المجد التي　　تسمو إلى الفاروق أعلى مرتقى

مستنصرٌ بالله منصــور به　　مــؤيد بعــونه عــلى العــدى

ثم يمتدح مدينة تونس بقوله[3]:

حضرتهُ أم البلاء كلِّها　　وقُطْبُ ما منها دنا وما قصا

وقد أقبل عليها الشعراء ضمن مشطر ومخمس وأغلب المعارضين لها في بحر الرجز التي نسجت عليه المقصورة الذائعة الصيت.

كجنة الخلد تسرُّ من رأى　　فَيزدري الخُلْدَ وسُرَّ من رأى[4]

---

[1] القرطاجني، الديوان، تحقيق عثمان الكعاك، ص59.

[2] المقصورة: الأبيات 55 وما بعدها أما مقصورة ابن دريد فمطلعها:

يا ظبيةً أشبه شيء بالمها　　ترعى الخزامى بين أشجار النقا

[3] المقصورة الأبيات 83.

[4] قصر الخلد: بناه أبو جعفر المنصور في بغداد، وسر من رأى مدينة قريبة من بغداد.

وقد احتوت هذه المقصورة على كثير من الأغراض والموضوعات الشعرية كما ذكر ذلك في مقدمة مقصورته:

فمن الوصف قوله[1]:

اجريتَ من عين ومن عين بها   نهرين قد عمَّا البـــرايا والبَـــرَى

كأنمـــا الدّهر استـــدار فـــأرى   من جرْيٍ ذاك الماء ما كان أرى

قد كـــان كالنـــائم حتى نبّهت   عين المعـــالي عينَهُ من الكـــرى

ثم ينتقل إلى مدح المستنصر حتى (175)

ثم يذكر مواتاة الأيام له قائلا:

طابت به الأيام لي حتَّى لقد   ذكرتُ فيمـــا قـــد خـــلا عيشا حلا

فيـــا خليـــلي اسقياني أكؤسا   تكسر من خمر الصِّبا من قد صحا

أملأ سمعي ويدي من كل ما   تهـــواه نفسي من عنـــاء وغـــنى

فالدهر عيدٌ والليالي عرسٌ   والعيش أحـــلامٌ كأحـــلام الكـــرى

---

[1] المقصورة: البيت 95...

أبو الفتح محمد بن عبد السلام التونسي[1]

ولد في تونس، ثم قصد البقاع المقدسة فحج، وعند عودته استقر بالشام. وتفرغ للتدريس، فاستفاد منه كثير من الطلبة. وذاع صيته في الأدب والشعر، والفقه. وعندما أصيبت تونس بالاستيلاء الإسباني في سنة 941هـ. وعبث الإسبان بحضارة هذه الأمة و أحرقوا كتبها وشردوا أهلها، وقف الشاعر مصورا ذلك في هذه القصيدة -التي اخترنا منها أبيات رغم أهميتها- ذكر فيها أمجاد الحفصيين في العلم والعمران، والأمن والأمان، ثم أصبحت أثرا بعد عين، قائلا[2]:

ففي هذه الأبيات تحية إلى أهله في تونس:

سلوا البارق النجد عن سحب أجفاني	وعما بقلبي من لواعج نيران
ولا تسألوا غير الصَّبا عن صَبَابتي	وشدة أشواقي إليكم وأشجاني
فما لي سواها من رسول إليكم	سريع السُّرَى في سيره ليس بالواني
فيا طالما الأسحار ما قد تكفلت	بإنعاش محزون وإيقاظ وسْنَان
وتنفيس كرب عن كئيب متيم	يحن إلى أهل ويصبو لأَوطان
فلله ما أذكى شذى نسمة الصبا	صباحا إذا مرت على الرند والبان
وسارت مسير الشمس وهنًا فأصبحت	من الشرق نحو الغرب تجري بحسبان

ثم يذكر فضائل مدينة تونس ويشيد بالحفصيين ودفاعهم عن الاسلام بقوله:

وحيي ربوع الحي من خير بلدةٍ	تخيرها قدما أفاضل يونان
هي الحضرة العليا مدينة تونس	أنيسة إنسان رآها بإنسان
لها الفخر والفضل المبين بما حوت	من الأنس والحسن المنوط بإحسان
لقد حل منها آل حفص ملوكها	مراتب تسمو فوق هامة كيوان
وسادوا بها عظم الملوك وشيدوا	بها من مباني العز أفخر بنيان
وكان لهم فيها بهاء وبهجة	وحسن نظام لا يعاب بنقصان
وكان لهم فيها عساكر جمة	تصول بأسياف وتسطو بميران
جيوش وفرسان يضيق بها الفضا	وتحجم عنها الفرس من آل ساسان
وكان لأهليها المفاخر والعلا	وكان بها حصنا آمان وإيمان
وكان على الدنيا جمال بحسنها	وحسن بنيها من ملوك وأعيان
وكانت لطلاب المعارف قبلة	لما في حماها من أئمة عرفان

---

[1] المقري التلمساني، نفح الطيب، دار صادر،1968م. بيروت- لبنان.ج5. ص29.

[2] النيفر، محمد، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة من عالم الأريب، ص 119.

ففي هذه الأبيات يرجع سبب الفراق إلى مصائب ونكباته:

فما الدّهر إلا هكذا فاصطبر له ... رزية مال أو تفرق خلان
أأحبابنا إن فرق الدّهر بيننا ... وطال مغيبي عنكم منذ أزمان
فإنّي على حفظ الوداد- وحقّكم- ... مقيم وما هجر الأحبة من شاني
ووالله والله العظيم النيَّة ... على صدقها قامت شواهد برهان
لقد زاد وجدي واشتياقي إليكم ... وبرح بي طول البعاد وأضناني

ثم يختم قصيدته بشوق وحنين إلى الأهل وأمل في العودة إلى أرض الوطن:

فلا تحسبوا أني تسليت بعدكم ... بشيء من الدنيا وزخرفها الفاني
ولا اختلجت يوما ضمائر مهجتي ... لغيركم في سر سري وإعلاني
ولو لم أسل النفس بالقرب واللقا ... لأدرج جسمي في المقاطع أكفاني
فما أنا من عودي إليكم بآيس ... فما اليأس إلاَّ من علامة كفران
عليكم سلام الله في كل ساعة ... تحية صَبٍّ لا يدين بسلوان
مدى الدّهر ما ناحت مطوقة وما ... تعاقب بين الخافقين الجديدان

فإذا تأملنا هذه الأفكار وجدناها تصدر عن نفس أبية تدفع بالدولة إلى أخذ زمام الأمور في الدفاع عن الوطن وعن الشرف الذي داسته سنابك خيل الإسبان في جميع أنحاء الدولة الحفصية.

وعندما لم يجد الشاعر حيلة في رد الأذى عن أهله عبّر عن مشاعره وأحزانه لما أصابهم متمنيا أن يزول الذي حل بهم من الأذى وأن تستبدل أيام الأحزان والآلام بأيام الفرح والسرور.

ويستمر الشاعر في تصوير تلك الأحزان من أخريات أيام الدولة الحفصية في دقة متناهية[1] فيعرض للأحداث الداخلية والخارجية التي عصفت بهذه الدولة وبتطاول الإسبان على المسلمين في الأندلس وإخراجهم منها قبل سنين قليلة. ثم واصلوا زحفهم على المسلمين في عقر دارهم فأخرسوا أصواتهم بعد أن انقسم المغرب العربي إلى دويلات صغيرة لم تعد قادرة على درء الخطر القادم إليها من الغرب. وهكذا أصبحت هذه الدولة في حال من الاحتضار والانهيار السريع الذي أوصلها إلى نهايتها المعلومة. ثم تشهد هذه المنطقة عهدا آخر بدخول الأتراك العثمانيين وإزاحة الإسبان عن المدن التي احتلوها. ولله الأمر من قبل ومن بعد.

---

[1] قال هذه القصيدة مصورا تلك الأحداث سنة 951هـ.

إن اختيارنا لهذه القصيدة مرده إلى حسن تصوير حال المسلمين في مواجهتهم للإسبان في أخريات الدولة الحفصية، فكانت هذه القصيدة وثيقة تاريخية مهمة ووثيقة فنية تصور حركة تطور الشعر ومسايرته لأحداث الأمة في ظل الحفصيين.

وسيبقى ابن عبد السلام شاعرا كبيرا وشاهدا على عصره، لأنه رصد في هذه القصيدة الآمال وصور الآلام، داعيا قومه للدفاع عن الشرف، وجسبه ذلك.

الباب الثاني: في الخصائص الفنية

الفصل الأول: هيكل القصيدة الحفصية

الفصل الثاني: شكل القصيدة الحفصية

الفصل الأول
هيكل القصيدة الحفصية

الفصل الثاني
شكل القصيدة الحفصية

1) هيكل القصيدة الحفصية:

إذا كانت المطالع هي عنوان القصيدة الجيدة ودليلها إلى قلب القارئ في جميع الأغراض الشعرية، وعند النقاد والدارسين للأدب، فإن هذه المطالع يتأنق فيها الشعراء ويتنافسون أكثر إذا كان الغرض غزلا وقد سارت مطالع قصائد الغزل على ألسنة الناس يلهجون بذكرها مأسورين بلغتها وبصورتها وخيالها وعاطفتها وأسلوبها ورقة معانيها حتى صدرت في ذلك آراء للنقاد بقولهم هذا أحسن بيت، غزلي وهذا أحسن بيت ختامي إلى غير ذلك، مما طرحه النقاد، وأصبح تقليدا يسير على نهجه الشعراء، كما هو الشأن عند شعراء الدولة الحفصية. قد لا يختلف شعراء الدولة الحفصية كثيرا عن شعراء العربية وبخاصة في العصور القديمة.

إذ يرى الناقد الجزائري الكبير ابن رشيق في المطالع والمقاطع:

« اختلف أهل المعرفة في المقاطع والمطالع، فقال بعضهم: هي الفصول والوصول بعينها، فالمقاطع أواخر الفصول، والمطالع أوائل الوصول...ثم يقول: لأنا نجد في كلام جهابذة النقاد إذا وصفوا قصيدة قالوا: حسنة المقاطع، جيدة المطالع»[1]

كما يؤكد هذا الرأي الناقد والشاعر حازم القرطاجني[2] .

وأنه من المعروف في الدراسات الأدبية أن القصيدة التقليدية تشتمل على:

المطلع والغرض الأساس وحسن التخلص والمقطع أو الخاتمة ولكنني سنقف في هذا الفصل من القصيدة الحفصية عند المطلع والمقطع وذلك لصعوبة الحديث عن كل هذه الجزئيات في فصل واحد هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن كثيرا من الخصائص الفنية التي يتميزبها أعلام الشعر قد تتركز في هاتين الجزئيتين وذلك ما لاحظناه بالفعل عند وقوفنا بالدراسة للقصيدة الحفصية كما سيأتي لاحقا ومع ذلك فإننا لن نغفل التلميح إلى **الأفكار الكبرى** التي ترد في ثنايا القصائد المدروسة ما بين المطلع والمقطع فضلا عن أن الأغراض قد تفرض نفسها أحيانا على دراسة هيكل القصيدة مما يسجعلها مرشدا لتتبعنا لمطالع القصائد ومقاطعها.

وسنقف مع هذه المطالع الغزلية لنتبين مدى قدرة الشاعر الحفصي على رسم صورة فنية لهذا الشعر عبر حياة الدولة الحفصية.

المطلع:

يقول ابن الأبار في قصيدة مطلعها[3]:

---

[1] ابن رشيق، العمدة، في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط5، 1981م، ص 215.

[2] القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 280.

[3] ابن الأبار، الديوان، ص 284.

وحمامةٍ ناحت فَنُحْتُ إزاءها   فَلَوِ استمعتَ لَقُلْتَ: هذا المأتم

مطلع استهلالي بحمامة تنوح؟ في رأي الشاعر - فأبكته، كما بكت، ومن يستمع إلى هذا النواح يقل إنه مأتم حزن، فالشاعر يدخل على القارئ مباشرة بتقرير حقيقة الأسى والحزن الذي يعانيه، وكأن حياته قد أصبحت مأتمًا، وغيره في عرس...

المقطع: وكما بدأ في مطلع القصيدة فإننا نجده ينهيها بقوله:

فإذا أصاخ لشدوها وتأوهي   واعٍ يقول: خَلِية ومتيم

بنفس المعنى الذي أحال عليه القارئ في الاستهلال، إذ يقرر أنها تشدو ... بينما الشاعر في توجع وتاوهٍ، وعلى هذه الصورة الباكية الحزينة ينهي الشاعر مقطعه، ليستقر في ذهن القارئ شيئان: حمامة خالية من الحزن والشجا

وشاعر متيم، يعاني الحزن والشجا

لأن الشجا يبعث الشجا.

كما يقول ابن نويره في رثاء أخيه مالك[1].

ويقول ابن الأبار في مطلع آخر معبرا عن شوقه وحزنه في مطلع قصيدته[2]

المطلع:

تُهاب السيوف البيض والأُسْلُ السُمْرُ   وأَقتُلُ منهن الغلائل والخُمْرُ

فهذا المطلع المباشر في التعبير عن فكرته ومعاناته التي لا يقوى عليها حتى الصبر نفسه وبذلك فهو يمهد لشرح معاناته وحاله. في القصيدة التي ينهيها بهذا المقطع الآتي.

المقطع:

يقول مصورا آلامه العميقة وجراحاته التي لا مزيل لها فيقرر في مقطعه هذه الوضعية التي يعانيها:

وأُبرئ من يشكو وإن شَفَنِي الضنى   وأنفع من يرجو وإن مَسَني الضر

ولو تأملنا هذا الختام البارع لوجدنا موازنة تامة بين الصدر والعجز، في العواطف، في المشاعر، في الفكرة المقابلة لأختها، فهو بيت متوازن لغة وفكرة وأسلوبا وإحساسا بالألم فهذا بقدر هذا.

وتلك مزية الشعر عند النقاد القدماء، يشيدون بالمقاطع والمطالع إذا كانت متناسبة في المعاني والأفكار والعواطف وفي الأسلوب والصياغة الجميلة...

وربما عُدَّ هذا المقطع من أحسن المقاطع والنهايات المعبرة في القصيدة الحفصية عامة!

<u>أما عند حازم القرطاجني</u>، في قوله: يا ظبية الربرب....

---

[1] البيت لتميم بن نويرة في رثاء أخيه القتيل:

فدعني إن الشجا يبعث الشجا   فهذا كله قبر مالك

[2] ابن الأبار، الديوان، ص 216.

المطلع: فالاستهلال عنده يبدأ باستفهام إنكاري مستغربا حسن هذه الحسان وجمالها البارع، فمن أعطاها هذا الحسن وهذا البهاء.

وهي إحالة موفقة من الشاعر لما سيأتي من حديث عن الحبيب الذي لا يماثله أحد في جماله.

إذ يقرر في ختام القصيدة.

الختام:

ظبي غدا يرتعي حَبَّ القلوب ولا   يرعى عرارًا بموماةٍ وظيَانَـــا

هذا المحبوب لا يرعى في المروج، بل يقيم في قصور وخدور.

غير أن خاتمة القصيدة فعلا، هي هذا البيت[1]:

كُنْ كيف شئت وصالاً أو مقاطعة   فلست عنك أطيق الدَّهْرَ سلوانا

فختام الحديث عنده يعجز كثير من الشعراء عن صياغة هذا المعنى الرقيق فإنه يعلمنا في الأخير بأن«العظة» التي نأخذها من الشاعر هي الوفاء مهما كانت أحوال المحبوب، وصالا أو هجرانا لأن حبه خالص وصادق، ولن يسلو عن حبيبه مهما قسا عليه الزمان أو تغير؟

فهذا الإبداع الشعري عند حازم القرطاجني من مطلع ومقطع يدل على تميز هذا الشاعر ضمن شعراء العهد الحفصي، وهو يدحض فكرة-الضعف على الإطلاق- لدى ما يسمى بعصور الانحطاط أو الانحدار على رأي أستاذنا جودت الركابي.

---

[1] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص: 211.

وتأمل في قوله: أدر المدامة[1].

وقوله: نبّه جفونك[2].

وقوله: سلطان حسن عليه للصّبا علم[3].

وقوله: يا ظبية الربرب الحالي سوالفه[4]

فالصدور عنده بقدر الأعجاز، شكلا، ومضمونا وصياغة. ومن يمعن النظر في شعر حازم، ويتملّى لغته وحسن تعبيره يُقِرُّ بمزية وحسن وحلاوة المطالع والمقاطع في أغلب قصائد شعره، وقد عدَّه كثير من الدارسين واحدًا من أعظم وأكبر وأشعر شعراء الدولة الحفصية بما قدم لهذه اللغة وللشعر خاصة، من جميل القول وعمق الفكرة، وصدق العاطفة، وحرارتها، وقوة الخيال، وعمق الإحساس بالألم والحزن الذي مَسَّ وطنه وأهله في الأندلس وفي المغرب على حد سواء.

وقد تَجَلَّى ذلك في شعره كما رأينا في جميع الموضوعات والأغراض التي طرقها حازم.

المطلع:

يا ساهرا لي بطرف منه ذي وسن   ومسكرا بلحظ منه سكرانا

الافتتاح يحيلنا بسرعة إلى حالة نفسية يعانيها الشاعر من سهر وسهاد سببه هذا الحبيب الذي أثمله بلحظ فاترٍ فاتنٍ.

المقطع:

إذا كان الاستهلال إحالة على الأرق والسهاد والمعاناة فإن المقطع أبلغ من الاستهلال وأدل على حب الشاعر ووفائه.

إذ يقرر: في عزم وإصرار وألم دفين عما يعانيه، فيقول:

كن كيف شئت وصالا أو مقاطعة   فلست عنك أطيق الدهر سلوانا

ولا أقدر على نسيانك، مهما كانت حال قربنا أ و بعدنا أو صدك وهجرك. لأنك سكنت قلبي فهواك لا يبرح مهجتي.

أما **المطلع** عند أبي بكر بن حبيش في قصيدة الغزل، والذي يعارض فيه رائية عمر بن أبي ربيعة[5] على النحو التالي:

سرت ولواء الصبح قد كاد ينشر   وحبر الدجى عن مهرق الأفق يبشر

يبين الشاعر عن رحلة حبيبته وظعنها عن الحي باكرا فهو مدخل للحديث عن البين والتشوق والحنين.

---

[1] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص: 65.

[2] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص: 65.

[3] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص: 65.

[4] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص: 65.

[5] رائية عمر بن أبي ربيعة: أمن آل نُعمٍ أنت غاد فبكر   غداة غد أم رائح في هجر.

أما في **المقطع**:

وقالت: أقم في لذة مُتَسَتِّرًا وما العيش إلا لذَّة وتستُّر

فيدعو الشاعر في آخر قصيدته ويبين عن رؤيته، للحب، فيقول في جرأة وسفور على لسان الحبيبة كما فعل عمر بن أبي ربيعة، إذ استنطق حبيبته وجعلها تتعلق قائلا: «وما العيش إلاّ لذة وتستّر».

وهي دعوة إلى الغواية والمجاهرة بها. عكس شعراء الغزل العفيف الذين يرضون من الحبيب، بما قل أو كثر، ولا شأن لهم بالمنافع والمكاسب غير رضى الحبيب.

أبو عبد الله (الجزائري):

يقول في **المطلع**:

لَعَلَّك بعد الهَجْرِ تَسْمَحُ يا بَدْرُ بِوصلٍ فقد أَوْدَى بِمُهْجَتِي الهَجْرُ

مطلع ملائم لما سيبثه الشاعر في قصيدته من آلام الفراق وحرقة الشوق ومعاناة الهجر والصد، وهو بكل ذلك بيت متوازن في المعنى، في صدره وفي عجزه، وتأمل ذلك فإنه من المطالع الحسنة في المبنى والمعنى.

وأما المقطع فهو نتيجة لمطلع القصيدة، وجواب عن معاناة الشاعر من حرقة الصد والهجر، ويقرر أن ذلك من عمل الوشاة والعذال. ودعوة الشاعر إلى كل محب هي:

الوفاء وكتم أسرار الحبيب، والإشاحة عن أقوال الحساد، وهي دعوة تقع في النفس موقعا ملائما ومؤثرا في الوقت نفسه.

يقول أبو عبد الله الجزائري: وقد أضفى على قصيدته طابعا صوفيا واضحا، ظاهره التغزل والتشوق إلى الحبيب وباطنه التطلع إلى بيت الله وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم غير أن الشاعر يصرح بعجزه وضعفه وكثرة ذنوبه... التي أقعدته عن الزيارة وتحقيق أمانيه.

كما في قوله في مقطع قصيدته التي ينهيها بهذا البيت الرمزي وللرمز في أشعارهم دور مهم إذ يجعل القاريء في حيرة من أمره بين مقاصد المطالع ومؤدى المقاطع.

فكم رمت أن أقضي فريضة حقكم فلما أردت السَّعْيَ أثقلني الوِزْرُ

وهو يقرر في مطلع فتح قصيدته عجزه وضعفه كإنسان تتجاذبه الأهواء وتعثر به خطواته وفي القصيدة الثانية لأبي عبد الله المعروف بالجزائري يوظف الرمز الصوفي توظيفا واضحا وهو لفظ [ليلى] إذ توظيف لفظ "ليلى" عند الشعراء الصوفيين لا يقصد من ورائه الحب المباشر الحسي الذي يعرفه الناس

ولكن ترميز، وإحالة على الحب الإلهي الذي يتغنى به الشعراء الصوفيون، وقد كان تأثر شاعرنا بهذا المنحى واضحا.

- إذ كما نعلم أن حركة الشعر الصوفي وإن كانت قديمة غير أنها ازدهت في تلمسان بالجزائر وفي الأندلس وكان الفضل لبعض العلماء من أهل المغرب الذين نقلوا هذه الطريقة وأذاعوها في المشرق العربي في أواخر القرن السادس الهجري[1]

المطلع: وتأمل في هذا المطلع للشاعر الجزائري، إذ يقول:

أهل الحمى هل لكم عن قصتي خبَرُ   وأن ليلي بلَيْلَى كله سَهَرُ

في هذا الاستهلال الموفق إخبار عن شاعر متيم أضناه السهر والسهاد.

أما **المقطع** فهو:

وقمت ألــقط من ألفاظهـــا دررا   وأنظم السِّحر حتى أقبل السَّحر

ختام يطابق المطلع وينافسه في الحسن والجمال

لقد أوحت إليه هذه الحبيبة من الكلام الجميل والألفاظ المنتقاة، وكأنها اللآلئ والدرر فأغار الشاعر على ذلك ونسج منها حرَّ شعره، وسحر بيانه مروِّحا عن نفسه بشعره الذي يؤانسه وقت الضيق والضعف.

مبنى القصيدة الحفصية:

يقول حازم عن بناء القصيدة[2]:

«فأما ما تجب العناية بالتألق فيه على الوجه المختار فتحسين المبدأ والتخلص وأما ما تتأكد به العناية ولا سيما عند من أخذ بمذهب أيمة المحدثين فتحسين البيت التالي للبيت الأول من القصيدة لتناصر بذلك حسن المبدأ» ومثل هذا قول أبي تمام: (طويل)

شَهِدتُ لقد أَقْوَتْ مغانيكمُ بَعْدِي   ومحَّتْ كما محَّت وشائع من بُرْدِ

وأنجدتم من بعـــــد إتمام داركم   فيا دمْعُ أنجدْني على ساكني نَجْدِ

ومثل قول أبي الطيب المتنبي:

منِ الجـــآذر في زيِّ الأعاريب   حُمْرُ الحُلى والمطايا والجلاَبِيبِ

إنْ كنت تسأل مِثْلاً في معارفها   فمَن بـــلاكَ بتسهيــد وتعذيبِ

---

[1] الجيلالي، تاريخ الجزائر ص29.

[2] القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص 306.

وقوله:[1] (طويل)

لعَيْنَيْكِ مــا يــَلْقَى الفُؤاد وما لَقِي   وللحُبِّ ما لم يَبْقَ مِنِّي وما بَقِي

وما كنت ممن يــدخل العشقُ قلبَهُ   ولكن من يُبْصرْ جفونَكِ يعشَقِ

وهذه الأمثلة التي ساقها حازم، ليدلل على حسن المطالع وما يليها... وحسن المقاطع عند الشعراء الموهوبين.

فالمطالع والمقاطع على رأي من قال: «هي أوائل البيوت وأواخرها.»

يقول حازم القرطاجني في ذلك[2]:

«فأما ما يجب في المطالع على رأي من يجعلها استهلالات القصائد... فإن النفس تكون متطلعة لما يستفتح لها الكلام به. فهي تنبسط لاستقبالها الحسن أولا وتنقبض لاستقبالها القبيح أوَّلاً أيضا»

وفي هذا المعنى يقول القاضي الجرجاني[3]

«والشاعر الحاذق يجتهد في تحسين الاستهلال والتخلص وبعدهما الخاتمة»

وقد حاول الدفاع عن هذه القضية البالغة الخطورة في النقد الأدبي حتى أتى على كل جزئية من جزئيات بناء القصيدة، وطبق ذلك على شعره، وعلى شعر القدماء، وما حَسُنَ منه[في المطلع، والتخلص إلى المقطع] لأن مدار الحديث كما يقول أبو عبيدة الدينوري: «أن الجماعة فضلوا النابغة الذبياني على جميع الشعراء لأنه أوضحهم كلاماً وأقلهم سَقَطًا وحشْوا وأجودهم مقاطع وأحسنهم مطالع...»[4]

فإذا أخذنا كمثال: غرض الإخوانيات نجد التركيز على: الوفاء، الصفاء، الحب، التآزر، والتكافل، والدعوة إلى نشر الفضيلة ونبذ الرذيلة، ونشر العدل ونبذ الظلم، وهكذا كما في هذه **القصيدة: (الغزلية):**[5] وغيرها، سنعرض إلى المطالع وحسن التخلص وخير المقاطع، في القصيدة الحفصية.

المطلع: يبدأ الشاعر في مطلع هذه القصيدة الغزلية على عادة القدماء مستلهما مطلع قصيدته من قصيدة أبي فراس الحمداني.

وحمامة ناحت فنحت إزاءها   فلو استمعت لقلت: هذا المأتم!

وهو استهلال ملائم من الناحية النفسية إذ يأخذ بالقارئ إلى معاناته وبكائه مما يجد، أو من وجده وشوقه.

ليكون هذا المدخل (الافتتاح) خير مقدمة نفسية إلى غزل ابن الأبار الذي سيبوح للقارئ بما أفصح به من آلام وأحزان غير أنه معرب عن مشاعره، وأما الحمامة فمعجمة عما تعاني؟!

---

[1] المصدر نفسه، ص 307.

[2] المصدر نفسه، ص 282.

[3] بناء القصيدة في النقد العربي القديم، يوسف حسين بكار. دار الأندلس بيروت، لبنان، ص235.

[4] الشعر والشعراء، ج1 ص107 طبعة بيروت لبنان. وانظر بناء القصيدة في النقد العربي القديم د. يوسف حسين بكار .دار الأندلس.بيروت. لبنان. ص 236

[5] ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، الديوان. تحقيق د/ عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر. تونس، 1985م، ص 284.

ولكن المعري يجيب عن غناء الحمامة وهديلها فوق الأغصان :
أبكاء شدوها أم حزن دفين؟!
يقول:

غير مجدٍ في ملتي واعتقادي نَوْحُ بَاكٍ. ولا تَرَنُّمُ شادِ
أبكتْ تلكم الحمامة أم غـــ ــنَّتْ على فرع غُصنها الميَّاد؟

أما **المقطع**: لقد وفق الشاعر إلى إنهاء قصيدته، بعد أن باح لنا بأشواقه وأحزانه، وأنه يعاني الهجر والفراق. يقرر في آخر مقطع: أنه يعيش الهجر والقطيعة: وهي أكثر إيلاما للنفس فلا أحد يقوى على ذلك، ثم يدعو أن تزول تلك الحال وتستعاد الأيام الجميلة في أحضان القرب والوصال.

الفكرة عند ابن الأبار:

هي فكرة تدور حول معاناة المحبين وأشواقهم، وطريقة البوح بها، فالشاعر في هذه قصيدته؛ في معانيه ووصف مشاعر يجري على نهج أبي الفراس وأمثاله، ففكرته قديمة معادة، غير أنها تحمل الكثير من الحسرة والألم والضيق الذي يحياه الشاعر.

الفكرة عند حازم: قصيدة (الغزل)

مهما كانت براعة حازم في نقل مشاعره ومعاناته وإعجابه بالمحبوب، فإنه يأخذ من القدماء فكرة (الحسد والحساد) الذين يفسدون على المحبين حياتهم، ويلقي باللائمة على سعيهم وسعايتهم، وهم سبب القطيعة والعذاب الذي يعانيه كل محب فيقرر عدم الالتفات إلى مكرهم وخديعتهم، ليختار لنفسه طريقا واضحا خاليا من العذال، وبغضهم وحسدهم.

أما أوصافه فهي تقليدية (كما ذكرنا في قصائده الغزلية)، غير أنه أضفى عليها من جمال أسلوبه، وحسن تعبيره ما يجعلها من روائع القصائد الغزلية العفيفة التي لا خدش فيها للشرف والأخلاق، والمثل....

الفكرة عند ابن حبيش: (قصيدة الغزل نموذجا)

يأخذ من معاني وأفكار عمر بن أبي ربيعة للتعبير عن مشاعره وأحاسيسه وعواطفه وأفكاره! وإن كان في هذه القصائد بصدد معارضة رائية عمر بن أبي ربيعة[1].

أما أفكاره الجزئية لهذه القصيدة الغزلية، فالشاعر قد اكتفى بوصف المظاهر الخارجية والاحتفال بالمحاسن الظاهرة دون الولوج إلى عالم الروح، ومدى عمق التجربة الروحية والنفسية لديهما.

المقطع في قصيدته الغزلية: ينهيه نهاية جميلة معبرة عن عمق تجربة، وصدق إحساس، فيرسل هذه الفكرة البالغة على لسان حبيبته قائلة له:

---

[1] انظر: مختارات من الشعر المغربي والأندلس (لم يسبق نشرها)، د.ابراهيم بن مراد، ط: دار الغرب الإسلامي 1986، ص 95-101.

«وقالت: وقاك الله كل مخافةٍ تخوَّفْ عيونًا في ارتقابك تسهرُ»

فلولا الرقباء والحساد لملئ العالم محبة وصفاء.

<u>الفكرة عند أبي علي الحسن بن موسى بن موسى الهواري الطرابلسي:</u>

الفكرة في غزله فكرة قديمة، إعجاب بالمظاهر الجسدية للمرأة والتعلق بها كما يقرر الهجر والبعاد، والبين على عادة القدماء، ولكن له فضل الصياغة الفنية وهو أمر يستحق صاحبه التبجيل والتفضيل.

<u>الفكرة عند أبي عبد الله المعروف بالجزائري:</u>

لم أجد حتى الآن في هذه الأشعار ما يلفت النظر ويميزها عن غزل القدماء، وحسرتهم على ماضيهم الجميل،، وحزنهم على الحاضر التعيس. وهو ينشد على منوال القدماء : السهاد، الأرق، طول الليل، وبقاء الأنجم في مراصدها لا تتحرك وهكذا...

فالفكرة عند الجزائري: قديمة تراثية، صورة الحبيبة في الصحراء ظاعنة أو مقيمة بين الفيافي، وغير ذلك من الصور والتعابير المتداولة في الشعر العربي القديم.

ففضل الشاعر الجزائري في القصيدتين الأسلوب الرقيق الصافي الذي نقل بفضل الأقنعة الفنية التي وظفها للتعبير عن أفكاره وعانيه.

ولكن الشاعر الجزائري: يوفق في القصيدة الرائية حيث ينهيها بهذه الصورة البارعة، المعبرة عن همومه ولوعته وصبابته، فلا عزاء له غير شعره، ينسج من كلمات حبه دررًا: [1]

وقمت ألقط من ألفاظها دررا وأنظم السحر حتى أقبل السحر

<u>الفكرة عند ابن حبيش:</u> [2]

لولا الحياء من الرقيب الراصد لجعلتُ قصدك من أجلِّ مقاصدي

في هذا **المطلع**، يحلق الشاعر في فكرته بعيدا حتى يجعل من قصد المحبوب زيارة الحبيبة من أسمى مراميه في الحياة؟

ويستمر الشاعر على ذلك المنوال، من وصف للإعراض، والتسويف في المواعيد ... وهو في حالة من المرض لا أحد يعوده.

المقطع: أما مقطع هذه القصيدة وخاتمة فكرته فيها، فإنه يؤكد المطلع الجميل بهذا المقطع الذي يدل على حب ووفاء الشاعر وخوفه من الوحدة ومن الهجر الذي يعذبه، فيقول:

أفنيت أيامي بهجركِ لي، فَصِلْ قبل الممات ولو بيوم واحد

بالله ما باليت بالدنيا وَمَنْ فيها إذا كان الحبيب مساعدي

---

[1] الحفناوي، تعريف الخلف برجال السلف، ص 356.

[2] ابن حبيش، مختارات من الشعر المغربي القديم، ص 125.

فكرة الشعراء في القصيدة الغزلية:

تأكد لنا من خلال النصوص المختارة من الشعر الحفصي، في غرض الغزل أن فكرة الشعراء كانت:

1) تقليدية، مكررة، في روحها، وبمعانيها القديمة، شكلا ومضمونا.
2) طغيان الوصف المادي للمرأة في القصيدة الغزلية واستعمال الصور والتشابيه القديمة.
3) تنوع أفكار الشعراء (في الغزل) حول هذه المعاني:

- الهجر.
- الوصال.
- الرقباء.
- الحساد.
- العذال.
- الجمال البارع.
- الدلال.
- الصد والإعراض.
- حسن القوام.
- حسن الشعر والعيون، والجيد، والخد الأسيل، والأعجاز، والأرداف الممتلئة ... والأقراط، والخلاخل في ساق ممتلئ، وسوار في معصم، وقدود ضامرة...

وغيرها من الأوصاف التي عرفها الشعر القديم غير أن مزية هذه القصيدة هي في نسجها وصياغة هذه المعاني، وخاصة عند المقتدرين من الشعراء، مثل: حازم القرطاجني.

التعليق على هيكل القصيدة في ظل الحفصيين (كافية حازم القرطاجني):

فحازم في هذه القصيدة[1] يبدؤها بمطلع غزلي:

لم تدر إذ سألتك ما أسلاكها أبكت أسى أم قطعت أسلاكها

ثم يخلص إلى مدح الخليفة (يحيى) الحفصي، فيتخلص تخلصا فنيا بارعا فيقول مصورا حاله وقد علق بشباك المحبوب فأسر وحبس، ولا مهرب له إلا إذا تدخل الأمير الذي يقوى على تخليص الناس من شراكهم التي وقعوا فيها كحال الشاعر في قوله:

تأميلها أسر النفوس وإنَّ في تأميل مولانا الأمير فِكاكها

أما **المقطع**: أو ختام القصيدة فيجمل فيه الشاعر خلاصة نظره في بني حفص وفي ممدوحه أولا فكل ما تطلبه من الدنيا يأتيك مواتيا لملكك ولعدلك؟ بقوله:

---

[1] القرطاجني، الديوان ص 87، القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص 176.

ما قُلْتَ للأيام: هات تقاضيا   عدةَ المنى إلا وقالت: هاكها

فيكون الختام بمنزلة الاستهلال في المبنى والمعنى غير أن الاستهلال أحسن وأبلغ إذ يقع في النفس موقع الرضا والارتياح، لما في معاني البيت من ظلال تخفيها الألفاظ، وتبوح بها للقارئ المتذوق لفن القول.

المطلع عند الرحوي:

يقول الرحوي[1] مشيدا بأبي الحسن المريني في مطلع رائق المعنى، متوازن مع المعاني التي لمح إليها في مطلع القصيدة واستهلاله كان من أروع ما يكون به الابتداء، إذ ساوى بين الصدر والعجز في قوله:

أجابك شرق إذ دعوت ومغرب   فمكة هشت للقاء ويثرب

فالمساواة في البيت قد تحققت معنى ولغة وتعبيرا، ففكرة الصدر بقدر فكرة العجز مما أضفى على المطلع حلاوة وطلاوة وسهلت على القارئ فهمه في سهولة ويسر.

وفي الختام: يريد الرحوي أن يبقى على درة من درر شعره عالقة في أذهان القارئ، بما حباها من جميل القول، وحسن صياغة المعاني في تناسق تام، زادها الوزن خفة ومواءمة. بقوله:

وما تونس إلا كمصر مروَّع   وفي حرمٍ أمست لديك تَسْرب

سأُوجز الحديث في قصيدة الوصف: عن مطلع القصيدة ومقطعها، فهما يغنيان القارئ عن المقدمة والغرض الأساسي الذي .. يلمح إليه الشاعر عادة في مطلع قصيدته، وفي خاتمتها.

ولو تحدثنا عن هيكل القصيدة الوصفية عند ابن الأبار لرأيناها تبتدئ بالغزل ثم يخلص الشاعر إلى مدح الخليفة، ثم إلى الوصف (وصف حديقة قصر أبي فهر)، فيتتبع جزئيات القصر والحديقة والأشجار والثمار متخذا من ألوانها وثمارها وأوراقها وأغصانها ،، مقابلا في المرأة كالعيون والقدود والخدود، وحسن القوام، وما إلى ذلك من الأوصاف، حتى أتى على كل الجزئيات التي في الحديقة، ويعرج الشاعر على وصف المأدبة التي أقيمت في قصر أبي فهر فيصف أنواع الأطعمة، وما ازدانت به مائدة الخليفة ليخلص في الختام إلى إقبال الناس على الطعام بنهم وشراهة، تتسابق الأيدي إلى...

حتى أتوا على كل ما لذَّ وطاب في تسابق وتحابب

فكان هذا الختام: مبينا عن حال من النعيم الذي كان يحياه الحفصيون، وما بنوا من قصور عامرة أزرت بمثيلاتها في الأندلس وبغداد.

<u>في الوصف:</u>

حنين إلى جبل زغوان

---

[1] ابن خلدون، المقدمة، ص 523.

حازم القرطاجني:

قال يصف الماء المتدفق في الحنايا من جبل زعوان إلى (قصر أبي فهر)

المطلع: وهي أبيات مأخوذة من المقصورة:

وقد أجاد الشاعر في وصف قصر أبي فهر والوليمة التي أقيمت في حديقته الغنّاء التي ذكرها ابن الأبار عندما وصف هذا القصر وأشار إلى الوليمة التي أقيمت للضيوف في هذا البستان المبارك.

وحازم الخبير ببناء القصيدة العربية، قد ألزم نفسه بهذا الاستهلال المعبر في وصف الماء المتدفق في الحنايا من جبل زغوان حتى قصر أبي فهر فيصفه بالعبد الطائع التائب الذي جاء طائعا ضارعا متضرعا كما يتضرع الإنسان لخالقه جل وعلا.

أما **المقطع**: فقد جعله الشاعر، صدًى للمطلع إذ قرر في الأول الانقياد والطاعة فيختم قوله: بأن جبل زغوان قد انقاد لجبل شامخ هو (قصر أبي فهر) قصر المستنصر الذي زرى بكل قصر ... وقد أشار الشاعر في تورية رائقة ومقابلة حسنة كيف كان ماء هذا الجبل منقادا للرومان في القديم ثم أصبح طوع الحفصيين ورهن إشارتهم.

ابن الفكون القسنطيني في وصف بجاية:

المطلع: يبدأ بهذا الاستهلال المباشر، مقررا في جرأة ويقين بأن الناصرية: أو بجاية ما مثلها بلد؟!

دع العراق وبغداد وشامهما   فالناصرية ما إن مثلها بلد

المقطع: أما الختام، فهو تأكيد للاستهلال، يؤكده ويدعمه في ثقة وتأكيد، بأن بجاية يصعب وصفها والإحاطة بجمالها وإن شئت وصفها فقل:

جنة خلد، فيها الأهل والولد

إنه يفخر في إباء وشموخ بجمال بلدته الذي لا يضاهيه جمال أو حسن، ذلك هو رأيه وقراره وتقريره الذي يريد أن يبقى في ذهن القارئ في آخر قصيدته.

أما القصيدة الثانية: القافية

المطلع: فيبدأ الشاعر بذكر شوقه واشتياقه إلى القصر الذي شهد فيه الكرم وحسن الضيافة.

المقطع: أما الختام فيلمح الشاعر إلى شاعرية الشباب وطيشه مع فئة من أصحابه،، استهوتهم هذه الروحة في بحر بجاية الذي زادها حسنا وبهاء، والنهر الذي جعله كمرآة في يد غادة تتملأ فيه محاسن وجهها ولو اعيدت هذه الرحلة مع لداته وأترابه لتخلوا عن كثير من نسكهم ووقارهم.

وهذا المقطع كما يلاحظ القارئ يقع من النفس موقعا حسنا، بفضل حسن الصياغة وصدق التعبير عن هوى النفس الإنسانية في حالات الانعتاق، من قيودها الاجتماعية والأخلاقية؟! وما يطرأ على النفس من الأحوال والأهوال؟

أما حازم القرطاجني: فيبدأ وصفه لجبل زغزان والقصر المنيف (أبي فهر) بهذا الاستهلال:

وانساب في «قصر أبي فهر»الذي بكل قصر في الجمال قد زرى

إنه يقرر منذ البداية أن أبا فهر أزرى بكل قصر جميل في المغرب والمشرق، ليقرر تلك الحقيقة في آخر مقطع يصف به القصر الجميل قائلا:

طودٌ رست على الدُّنَى أركانه قَدْ رَكَنَ الدين إليه وانضوى

هذا قصر كأنه الطود العظيم، قد استقر به الدين وانضوى تحت لواء حكم الحفصيين.

فالشاعر في هذا المقطع يبقى على رأيه الثابت في بني حفص الأمجاد، الممجدين للدين المنافحين عنه في بلاد المغرب والأندلس.

حازم (في الوصف)

المطلع: ولو تتبعنا استهلال حازم في قصائد الوصف لوجدنا في شعره ألوانا ملونة من الفن الرفيع الذي أضفاه الشاعر على مطالع قصائده ومقاطعها إذ يقول في جيميته الشهيرة (التي فاقت رائية ابن عمار[1]).

أَدِرِ المدامَةَ فالنسيم مُؤَرَّجُ والروض مرقوم البرود مدبّجُ

مطلعه حسن في صدره وفي عجزه، في معناه وفي مبناه، وفي تناغم ألفاظه وعباراته حتى الوزن قد انسجم مع الكلمات، فكأن الكل قد عجن في لحظة واحدة فلا تعرف أيهما أشد أثرا وتأثيرا عليك أهي المعاني أم الألفاظ أو الوزن والنغم المنساب؟

أما **المقطع**: لقد حلق حازم في هذا المقطع عاليا، بإيراد حكمة استخلصها من تجاربه العميقة بقوله:

فترقب السراء من دهر شجا فالدهر من ضدٍّ لضد يُخْرِجُ
وَتَرَجَّ فرجةَ كلِّ همٍّ طارقٍ فَلكلِّ همٍّ في الزمان تَفَرُّجُ

إنها نظرات شاعر خبر الحياة وسبر أغوارها فأطلق هذه الآراء عن خبرة ودراية ....فلا شيء يبقى على حاله، حتى الزمن الذي يقسو على الناس ويؤلمهم، سيتبدل من حال الحزن والألم إلى حال الفرح والسرور ولا يتسع الأمر إلا إذا ضاق، أو هو تضمين لمعنى الآية الكريمة: «إن بعد العسر يسرا». مهما قست الأيام والأزمان، فإن لها تفرجا وانفراجا كما قال حازم.

الوصف عند ابن الخلوف:

المطلع: مطلع واستهلال فني متوازن فيه: الصدر مع العجز.

رأى البرق تعبيس الدجى فتبسما وصافح أزهار الربى فتنسما

ففي الصدر: لمع البرق ليبدد الظلام.

وفي العجز: لامس البرق الأزهار بضيائه، فتنسم وتنفس ضاحكا.

---

[1] يقول ابن عمار: شاعر المعتمد بن عباد:

أَدِرِ الزجاجة فالنسيم قد انبرى والنجم قد صرف العِنَانَ عن السُّرَى

وقد عد غير واحد من النقاد جيمية القرطاجني أفضل من رائية بن عمار.

المقطع: أما المقطع الخاص بالوصف فهو البيت المناسب الملائم لمطلع القصيدة واستهلالها إذ يقول فيه:

فريت به فود الفلاة ولم أزل   أروح وأغــدو طائرا ومحوِّما[1]

المعنى: بهذا الفرس أشرفت على الفيافي أغدو وأروح في حيوية ونشاط ولم أزل على حالتي تلك أزهو بفرسي وفروسيتي.

وفي قيمة المطالع والمقاطع ويقول ابن رشيق الجزائري في كتابه العمدة:

«أحسن الشعر ما كانت مطالعه ومقاطعه حسنة».

الزهد: يقول ابن الغماز:

هو الموت فاحذر ان يجيئك بغتة   وأنت على سوء الفعل عاكف[2]

المطالع غايتها الحسن والاستهلال السهل على النفس،، البعيد المرمى والغاية التي يقصد إليها الشاعر في مطالعه وفي قصيدة الزهد أحاول تتبع هذه المطالع ومدى موافقتها للمقاييس النقدية والفنية.

المطلع: هذا مطلع مناسب للغرض الذي أراد الشاعر، وهو: حثّ الإنسان على عدم الغفلة والنسيان، والدعوة إلى عدم الاستمرار في الغواية والعصيان... فالموت يأتي بغتة، دون إنذار...وهي دعوة صادقة، سيسلمنا هذا المدخل إلى روح القصيدة وإلى مقطعها الذي سنرى ماذا يفعل ابن الغماز في نهاية قصيدته الزهدية، ورغم ذلك فهذا المطلع، صدامي، مرعب ومخيف في بدايته،، وهو لا يتلاءم، مع دعوة الناس إلى التوبة والرجوع عن الغواية؟!

المقطع: إذا كان المطلع تخويفيا، فالمقطع، عكسه،، يؤكد الشاعر أن رحمة الله بعباده، ولطفه،بهم كبير... فإذا عظمت ذنوب الناس فعفو الله أعظم. فالمقطع مطمئن للإنسان، عكس المطلع.

حازم وقصيدة التسبيح

في مطلعه: مدح تميز في الإشادة بعظمة الله وتسبيح الكائنات له.

أما **في المقطع**: فيدعو الشاعر إلى الرجوع إلى الله، فعفوه واسع وغفرانه ثابت في القرآن الكريم، قال تعالى:﴿**غافر الذنب قابل التوب، شديد العقاب ذي الطَّوْلِ لا إله إلا هو إليه المصير**﴾[3].

الرثاء عند ابن الخلوف القسنطيني

يقول في **مطلع** قصيدته[4]:

---

[1] لغة: فرى يفري: أتى بالأمر العجيب المدهش، وفيما قيل عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «لم أر فريا يفري فريه»، وفي التنزيل الحكيم قوله تعالى في سورة مريم: «لقد جئت شيئا فريا»: عجيبا، يتحير منه؟!

[2] الغبريني،عنوان الدراية، ص129.

[3] سورة غافر الآية 03.

[4] ابن الخلوف، الديوان: تحقيق: هشام بوقمرة، ص 250.

[البسيط]

أصبتَ عينَ المها يا موتُ بالرَّمَدِ وقد أهضْتَ جناحَ المجد فاتئد

إنه مطلع حزين، مؤلم، يحيل القارئ في سهولة على هول المصاب وأن المجد قد أصيب في هذه الواقعة.

فهذا المطلع يحيل القارئ على ما سيأتي من كلام..وعجز البيت مماثل للصدر ففي الجزء الأول إصابة في العين – والإصابة الثانية في الجناح.

وهذا كناية عن الإصابة البالغة التي يحيلنا عليها الشاعر في مطلع قصيدته، التي يتهيأ القارئ لاستقبال المزيد من الحديث عن الأحزان والمآسي التي لابد أن تلحق الشاعر وتترك في نفسه أثرها البالغ وفعلا سيخلص إلى المقطع قائلا.

وصبَّر الله قلب الوالدين على من حرَّك الوجْدُ فيه ساكن الجَلَدِ

المقطع: إذا كان المطلع في تصريح بالفاجعة وبالمصيبة التي كسرت مجد الشاعر فإن المقطع: فيه دعاء لقلب الوالدين برباطة الجأش واحتمال الأذى على من حرك فيهما شوقا وحزنا على صغيرها الذي طواه الردى...

وفي مطلع رثائية ابن البار للفقيه أبي الربيع بن سالم، وهي قصيدة نعنونها (العلماء):

المطلع: يطل علينا ابن الأبار في مطلع هذه القصيدة بتناثر المعالي والمكارم تحت ضربات سيوف الأعداء ... الذين مزقوا كل شرف وكل مجد، وقتلوا رموز هذه الأمة من العلماء الكرام كأبي الربيع بن سالم. إذ يقول فيها[1]:

أَلِمَّا بِأَشْلَاَءِ العُلَى وَالمكـــــــارِمِ تُقَدُّ بأَطْرَافِ القَنَا والصَّـــــوارِمِ

المقطع: ويأتي المقطع مناسبا لما قدم الشاعر في هذه القصيدة من بكائه على زوال شرف ومجد هذه الأمة ممثلا في خيرة العلماء والشهداء، مثل: سليمان بن موسى بن سالم.

وهو مقطع حزين، فيه من العبرة والاعتبار، ما يؤهله لأن يكون من أحسن الخواتم في قصيدة الرثاء عند شعراء الدولة الحفصية. حيث ختمها بقوله:

سقى الله أشلاء بسفح (أنيشة) سوافح تزجيها ثقال الغمائم

الرثاء:

وفي رثاء أبي زكرياء: هذه القصيدة البالغة الأثر للشاعر (ابن عربية)

يقول في **المطلع**:

يلذ زمان للفتى ثم يوقع ويضر هذا الدهر ثمة ينفع

---

[1] ابن الأبار، الديوان، ص 275.

في حكمة بالغة يستخلصها الشاعر من تجاربه،، ومن قراءاته للشعر القديم يصوغ رأيه في الزمان فيقرر أنه زمان يفرح ثم يُبكي- ويضر ثمة ينفع.

والشاعر بصدد التعبير عن حال من الحزن لفقد مؤسس هذه الدولة العظيمة الخليفة (أبي زكريا[1]) فهو استهلال بارع يحيل القارئ على الحزن والألم الذي عم الأمة بفقد أميرها، ثم لابد للشاعر أن يخرج من حال الحزن إلى حال الفرح والاستبشار بالمستقبل، وبولي العهد الذي سيجيء بعد هذا المصاب.

فيقول **في المقطع**:

وَرَأَوْا جلال محمّدٍ فتباشروا وتذكروا يحيى الرِّضَى فَتَــفَــجَّعُــوا[2]

فهذا الختام من أجمل ما ترى وتقرأ في حال الرثاء، إذ جمع الشاعر في هذا البيت الأخير بين حالين كما بدأ في المطلع:

ففي الصدر استبشار وفرح، وفي العجز حزن وتفجر وتفجع على الذي ذهب.

وهذا هو الفن الراقي الذي يقدر على نقل مشاعر الأمة في أبيات قليلة ليعبر بها على الحزن الذي طرأ وعن الخير والأمل الذي سيأتي.

والواقع أن ما ذكرناه من مطالع ومقاطع الشعراء هذه الفترة لا يكاد يختلف عن هذا الأخير الذي نراه قد أجاد أيما إجادةفي الملاءمة بين مطلع قصيدته ومقطعها.

ولعلنا سنقف على جزئيات جمالية أخرى لدى شعراء الدولة الحفصية من خلال ما سنعرضه في الفصل المتعلق بشكل القصيدة الحفصية.

---

[1] أبو زكريا الحفصي: حكم بين (625- 647هـ).

[2] ورد البيت في الفارسية لابن قنفذ (ص: 113): وَرَأَوْا خِلاَلَ محمّدٍ فتباشروا وتذكروا يحيى الرِّضَى فَتَــفَــجَّعُــوا

2) شكــل القصيـــدة الحفصية:

في هذه الدراسة التطبيقية على شكل القصيدة الحفصية لا أريد أن أكرر المواقف النقدية فيما بخص بناء القصيدة شكلا ومضمونا. فإن ذلك مبسوط في كتب النقد الأدبي قديما وحديثا.

لذلك سأكتفي بإظهار مدى مطابقة تلك المقاييس المتعارف عليها عند النقاد، وإبراز وجهها في القصيدة الحفصية خاصة. وسأوجز الحديث حول هذه الجزئيات

في القصائد التي اخترتها للدراسة الأدبية في مختلف الموضوعات: من مدح، ورثاء، وغزل، ووصف، وإخوانيات إلى غير ذلك.

وتلك الجزئيات التي أومئ إليها في هذه القصائد هي:

1) الأفكار.
2) الأخيلة والصور.
3) العواطف.
4) الأسلوب.
5) الوزن.

- الأفكار: ماذا ندرس في الأفكار؟ عند شعراء الدولة الحفصية؟

هل هي أفكار تقليدية عادية مكرورة؟

أم هي أفكار جزئية، طرحت موضوعات جديدة عميقة تحتاج إلى وقفة من الدارس؟

أم ننظر إليها على أنها أفكار إنسانية، نشيد بالقيم الإنسانية والقيم الإسلامية والقومية.

أم أن أفكار شعراء الدولة الحفصية كانت تهتم بالمظاهر الخارجية لقضايا الأمة دون الغوص في لب حياتها وتطلعات الناس إلى المستقبل، كما يحلمون به.

-إن الأفكار التي حصرتها ويمكن الإشارة إليها في سهولة ويسر لأنها موجودة في الأغراض الشعرية التي تحدثنا عنها في الفصل الثاني. هي في رأيي أفكار معتدلة، تمجد كل القيم الإسلامية والعربية وتمجد في الوقت نفسه بعض الخصال والمواقف التي تحقق للأمة بقاءها وتطورها ودوامها:

- كالجهاد ونبذ التقاعس والميل إلى الملذات
- والعدل ونبذ الظلم
- والوفاء ونبذ الغدر، ونقض العهود
- والصدق وترك الكذب
- والخير وترك الشر

ولقد آثرت الحديث عن الأفكار في القصيدة الحفصية. ضمن المطالع والمقاطع في هيكل القصيدة الحفصية (الفصل الأول من الباب الثاني).

العاطفة

العاطفة: عندما نتحدث عن الجانب الشكلي في القصيدة الحفصية فإن العاطفة: هي إحدى المقومات الأساسية للنص الشعري خاصة فلو خلا نص من العاطفة لقلنا عنه: إنه نص علمي.

غير أن العاطفة في النص الشعري تجري على أحوال النفس الإنسانية فتارة ثائرة هائجة متفجرة قوية وتارة فاترة راكدة

وهذه العواطف أنواع منوعة:

- منها العواطف الذاتية
- ومنها العواطف الدينية
- ومنها العواطف الوطنية
- ومنها العواطف الإنسانية
- ومنها عواطف الإعجاب أو الكره، والبغض، والمقت... وما إلى ذلك من العواطف والمشاعر الإنسانية.

الصدق والكذب في العاطفة:

علينا أن نذكر بأن التجربة الشعرية نوعان

أ- تجربة شعورية حقيقية:(كحضور إنسان لزلزال، أو طوفان ...إلخ)

ب- تجربة فنية: فيها الصدق الفني، ولو لم يكن الشاعر قد عاش التجربة فعلا. لأن القدرة على تقمص الحادثة، كفيل بان يصورها الشاعر وكأنه رآها أو حضرها . فيكون صادقا فنيا.

والذي يهم دارس الأدب هو الصدق، والصدق الفني، لأن منبع العواطف هي المشاعر الصادقة، أما العواطف الكاذبة الزائفة فسرعان ما تترك وتنسى، لأنها لم تنقل التجربة الإنسانية كما هي.

وأما إذا كانت متكلفة مصطنعة، فبلا شك ستأتي فاترة باردة وكاذبة لأنها لم تنبع من تجربة شعورية حقيقية أو فنية،، بل أملتها الظروف والمجاملات. لذلك فهذا الأدب محكوم عليه بالموت والفناء أما الشعر الخالد فهو الذي يصدر عن عواطف عامرة بالحب عامرة، بالمشاعر، صادقة فيما عبرت عنه وسنتتبع بعض العواطف في القصيدة الحفصية لنبين مدى صدقها ومدى تعبيرها عن هم صاحبها، في مختلف حالاته النفسية في حال الرضا أو حال السخط..،أو في حال الفرح والسرور أو في حال الحسرة والتفجع. ولعل عاطفة الحنين إلى الأوطان تسبق غيرها في القصيدة الحفصية

العاطفة في القصيدة الحفصية (الحنين إلى الأوطان):

وأقفر رسم الدار إلا بـــــــقية   لسائلها عن مثل حاليَ تخبِّر

فــلم تبق إلا زفرة إثر زفـــرةٍ   ضلوعي لها تنقدُّ أو تتفطَّـــرُ

لقد أقفرت الدار وخلت من صوت أهلها، وهي حالة تخبر عن نفسها بعد خروج أهلها منها.

ولم يعد للشاعر إلا زفرات يرددها حسرة وألما على ما ضاع ، تكاد أضلعه تتكسر. فهذه عواطف حزينة، تدعو إلى المواساة والحسرة لما آل إليه مصير الشاعر؟ ثم يختم قصيدته بهذه العاطفة الحزينة

كذاك إلى أن صاح بالقوم صائح   وأندر بالبين المشتت منذر

وفرقهم أيدي سبأ وأصابـــهـــــم   على غِرَّةٍ منهم قضاءٌ مُقَدَّرُ

من هذا النذير؟ إن هذا النذير هو الزمن الذي أدار ظهره لهم وأنزل بهم الهزيمة والهجر و التشتت فتفرقوا "ستذر مر[1] " لقد أصابهم قضاء مقدر ولا راد لقضاء الله. إن هذه العواطف ملأى بالمعاني الإنسانية لأنها تصور بؤس أناس وتفرقهم في البلاد، على حين غفلة.

وهي عواطف تدعو إلى المواساة والتعاطف والتحسر لأنها تشكو الفراق بعد الاجتماع والهوان بعد العز.

أما ابن الأبار فيرسم هذه الصورة، مشحونة بعواطف جارفة إذ يقول:

براحتي راية الأشجار أحملها   وإن غدا الجسم وهناً ليس يحملني

لا شك أن القارئ لهذا البيت يصدم بحال هذا الشاعر الذي شبه حاله بحال من يحمل راية القوم يتقدمهم إلى ساحة الوغى غير أنه يحمل راية من الأحزان والآلام! وأن جسمه قد أوهنته المصائب فلم يعد يقوى على حمل نفسه.

إن مثل هذه العواطف لا يمكن أن تصدر عن إنسان متكلف. فلولى صدق الشاعر وصدق التعبير عن مشاعره وأحزانه لما فجّر في القارئ هذه العواطف الحزينة.

-أما ابن عميرة المخزومي فينقل لنا هذه المشاعر الفياضة والعواطف الصادقة بقوله:

زدنا على النائين عن أوطانهم   وإن اشتركنا في الصبابة والجوى

ما الذي زاده الشاعر عن النائين عن الأوطان؟

الهجر والفراق؟ أم أن النائين عن أوطانهم لهم أمل! وعودة وهم الآن بلا أمل!وهذا ما زادهم حزناً على غيرهم من النازحين عن أوطانهم... وهو بذلك يغوص في أعماق الإنسان الذي نزح عن وطنه ويصور

بدقة حسرة هذا الإنسان وشدة شوقه وغاية مراد الشاعر أنه لا يشبه غيره في حزنه وفي غربته، والذي يزيده ذلك حتى يبلغ مداه. هو قوله في مطلع القصيدة : زدنا على النائين عن أوطانهم!

ويقول ابن عبد السلام التونسي في وصف ما حل بأهله في تونس، أواخر أيام الدولة الحفصية، قوله:

سلوا البارق النجدي عن سحب أجفاني   وعما بقلبي من لواعج نيران

الشاعر يرسم صورة، ويركب صورته على الفاظ منتقاة قد ملئت حسرة وأسى لتنقل مشاعره وحزنه إلى أهله، فيشبه قلبه الحزين على أهله كالنار المشتعلة على سبيل المجاز.. وقد أبان عن عواطفه المتأججة بقوله في المطلع:

سلوا البارق النجدي عن سحب أجفاني.....

والغرض من الأمر هنا هو التعبير عن عمق الألم والحزن، أو التقرير بما يعاني. إذ يقرر الشاعر: أن دموعه المنهمرة كالمطر، قد جاء بهذه الصورة الجميلة فالاستعارة في قوله:سحب أجفاني والغرض منها كثرة بكائي وحزني على أهلي، فالسحاب يتبعه المطر، والحزن يتبعه الدمع. وهي عاطفة مؤثرة لصدقها وحسن صورتها.

ثم يكمل صورته الحزينة بعواطف دينية وذاتية وقومية كما في قوله:

فما الدهر إلا هكذا فاصطبر له   رزية مال أو تفرق خلان

إنه يشكو الدهر الذي أصابه في أهله وفي وطنه، وفي تفرقهم على الأوطان والأقطار. وعزاؤه وسلاحه الصبر الجميل،على ما حل بهم من مصاب.

فهو يقر أن الدهر لا يسلم منه أحد: فهو مجبول على الرزايا والأحزان وتلك حال الشاعر وحال قومه مع الزمن.

ولنتأمل هذه العواطف المشبوبة لشاعر سارت به الأيام وأقعدته عن زيارة الحبيب يقول: مترجما ومفصحا ومعبرا عن كل مسلم عجز عن زيارة بيت الله وضريح النبي الكريم (ص).

أرى العمر يفنى والرجاء طويل   وليس إلى قرب الحبيب سبيل

هي آهة وحسرة أظهرتها العبارات والألفاظ وحسن التراكيب لتشيع في القارئ عاطفة الحسرة والإشفاق لحال هذا الإنسان الذي عجز عن تحقيق أمله فخاب رجاؤه وأمله. ثم يوضح الشاعر في مدحه للرسول (ص) هذه المعاني التي يصعب الإحاطة بها جميعا وهي تلك الآيات والمعجزات التي خص بها نبينا عليه السلام.

مثل:

- الشمس وقفت له.

- والجماد.
- وهو صاحب الشفاعة.
- وهو كليم الله مثل موسى عليه السلام. إلى غير ذلك....

وقد أشار إلى ذلك ابن الجنان نزيل بجاية بقوله:

والشمس قــد وقفت لـــه   وجها وسيما للنبي وسيمـــا
ثم آية نطقت تصدق أحمدا   حتى الجماد أجابه تكليما

ثم يقول:

فله لواء الحمد غير مدافع   وله الشفاعة إذ يكون كليما

الإخوانيات:

يقول أبو العباس أحمد التجاني: يصف شوقه وحنينه

لأهل الحمى أصبو وإن جدَّ لائم   وإني على ورْدٍ به الدهرُ حائم

إنه يعبر عن عواطفه المتأججة نحو أهله وأحبابه، غير مبال باللائمين والعذال.

ثم يصور شدة حنينه وشوقه إلى أخيه(عبد الله) صاحب الرحلة.

لقد طال هذا البعد واشتطت النوى   وجَارَ علينا الدهر والدهر ظالمُ

إنه يصدر عن نفس مشتاقة إلى رؤية الأخ الذي بعد عنه وطال هذا البعد، فيلصق الشاعر ذلك بالدهر الذي فرق بينهما وظلمهما. إنه يشكو حرقة الفراق بلغة مناسبة، عبرت بصدق عن عواطفه القوية الحزينة.

أما ابن سعيد فيستبد به الشوق وقد فارقه ابنه فيقول:

أودعك الرحمان في غربتك   مرتقبا رُحْماه في أوبتك

بعد أن حصل الفراق ولاشيء يستعيد به الشاعر ابنه غير أمله ورجائه في الله الذي يرد إليه ابنه، فهو وديعة عنده، فلعل وعسى تعود الودائع. فهي عاطفة الحب الخالص للولد، وقد صبغ عاطفته بصبغة دينية هي رجاؤه في الله.

ونراه وهو ينقل مشاعر الأبوة الصادقة دون لف أو دوران، وكأن الكلمات قد قيست حسب المعاني فكونت هذه العاطفة الصادقة الحارة بقوله:

فلا يطل حبل النوى إنني   والله اشتاق إلى طلعتك

فلا أطال الله البعاد بيننا.

وقد حلّى صورته بهذا التعبير الجميل عندما شبه البعد عنه /بحبل النوى/ وهو مجاز الغرض منه طول النوى.

ثم يأتي الشاعر بحرف التوكيد (إنني) والقسم (والله) ليخبرنا أنه مشتاق إلى طلعته...وهل أصدق من قوله" إنني أشتاق إلى طلعتك". فإنها تحمل الكثير من المعاني والحب الصادق وهذه العبارة يرددها كل أب فارقه ابنه فيتمنى رؤيته ، بل طلعته، لأنها تشيع في نفسه الفرحة والسرور.

ومن العواطف الأخوية بين فارسين جمعت بينهما المحبة والفروسية وفرقت بينهما المصالح والمواقف السياسية. ما خاطب به ابن أبي الحسين صديقه زعيم قبيلة مرداس بقوله:

عزيز علينا يا عنـــــان ضلالــة   حــدت بك لا تلوي على زجر زاجــر

تبصر ولا تحمل على النفس غيهــا   أعـــــيذك من كرات دهــــر جواســر

فهذه العواطف المشحونة بالود والوفاء،، حملت في طياتها النصح والإرشاد وحملت التهديد، والتخويف من عدم تقدير عواقب الأمور.

ويرد عنان ابن جابر على صديقه بهذه المعاني المنتقاة، وبالتعابير التي تخيرها، فخمة مجلجلة، غريبة بقوله:

ولمَّا رأيت الوُدَّ قد بان وانقضـــى   دعوت ونار الشوق تغزو ضمائري

ثم يقول فيها:

وعـــــــــادت علي الأرض حلقة خاتم   بلا ذلة مني سوى طوع آمر

فعنان ابن جابر يجيب ويرد على حب بحب أكبر منه ويبين أن خروجه إلى الجزائر مغاضبا للأمير الحفصي ، كان ذلك تعبيرا عن رأيه وطوع خاطره.

ثم هو الآن يشكو الضيق الذي يعيشه فيصف حاله بقوله:

وضاقت عليَّ الأرض كما ضاق خاتم بالإصبع. وهو تشبيه كناية في غاية الجمال ودقة المعنى،(كناية عن الضيق والقلق).

<u>الصورة البلاغية في القصيدة الحفصية:</u>

لن أتحدث في هذا الباب عن البلاغة ودورها في إيصال المعنى الجميل بأقرب طريق وبأحسن آداء إلى القارئ ولن أعرض إلى آراء القدماء في الصورة وأثرها البالغ في النص الشعري ولكنني أكتفي في هذا المجال بذكر أهم الصور البلاغية في القصيدة الحفصية لإظهار جمالها وأثرها في النص الشعري في مختلف الموضوعات التي خضعت للدراسة التطبيقية من مدح ورثاء وغزل ووصف وإخوانيات...

فمن قصيدة الشاعر ابن عميرة المخزومي:

فلم تبق إلا زفرة إثر زفرة ضلوعي لها تنقد أو تَتَــفَطَّرُ
هل النهر عِقْدٌ للجزيـــــرة مثلما عهدنا وهل حصباؤه وهي جوهرُ؟

1- تشبيه الزفرات بالضلوع وهي تتكسر

2- شبه الشاعر "ابن عميرة المخزومي" :النهر بالعقد في جيد الحسناء والحجارة فيه بالجوهر.

وقد خرج الاستفهام في البيت إلى غرض التحسر والتفجع على ضياع بلنسية

3- ثم يستمر الشاعر في رسم تلك الصورة الملاحظة عن مدينته الضائعة بقوله :

ملاعب أفراس الصَّبابة والصِّبا تروح إليها تارة وتبكر

ثم يكني عن ضياعهم وتشتتهم بقوله:

وفرقهم أيدي سبأ وأصابهم على غرة قضاء مقدر

بل أصابهم الزمان وقد فرطوا في حالهم، ولم يهيئوا الأسباب لردّ الهزيمة، ومباغتة العدو لهم.

4- ويقول ابن الأبار في وصف النكبة، ومصائب الدهر:

براحتي راية الأشجان أحملها وإن غدا الجسم وهنا ليس يحملني

هذه الصورة الجميلة يقدمها ابن الأبار في حلة رائعة.

وكأنما أحزانه وجراحاته، علامة قد وسم بها، والتصقت به.

غير ان جسمه النحيل قد أصبح غير قادر على النهوض بصاحبه لكثرة آلامه وأحزانه. وهي استعارة دالة على المعنى كما رأينا.

وفي القصيدة نفسها يصور الشاعر قوة العدو وانكفاء المسلمين على حالهم فيقول:

أتيح للروم ما وفَّى مراميَّهمُ فيها وبؤنا بطول الغَبْنِ والغَبَنِ

وهي كناية عن الضعف والذل الذي ألمَّ بالمسلمين.

وفي قصيدة أخرى يصور فجيعته في بلنسية ويرسم عواطفه الإسلامية المؤثرة بقوله:

قد أسلم الإسلام فيه إلى العدى فأساه بَرْحٌ لايُتاحُ براحُه

هذه العواطف المتدفقة والحسرة تملأ القلوب لما آل إليه أمر المسلمين من ضعف وهوان. يصوغها الشاعر في أجمل صورة وأجمل آداء. تهز كل نفس إسلامية أبية.

وفي قصيدة أخرى يصف وصفاً دقيقاً حالته النفسية ومعاناته الغريبة غربة المكان وغربة الروح. فحزن الشاعر هنا حزن مضاعف وأَلَمٌ دفين وتأمل قوله في بلاغة نظم وحسن بيان.

زدنا على النائين عن أوطانهم   وإن اشتركنا في الصبابة والجوى

حسناء طاعتها استقامت بعدنا   لعدوِّنا أفيستقيم لـــهـــا الهـــوى؟

إنها صورة بارعة في نقل المشاعر وحرقة الشوق والحزن على ما ضاع.

وأي شيء أعظم أثراً وألماً من ضياع الأهل والأحباب، وقد استبد بهم عدوهم؟! ثم يستفهم في إنكار الاستقامة للعدو الذي بغى وظلم.

ويصف الشاعر التونسي: ابن عبد السلام شوقه وحنينه إلى مدينة تونس وقد استباحت حماها جيوش الإسبان بقوله:

سقى الله هاتيك الديار وأهلها   سحائب تحكي صوب مدمعي القاني

فهو يدعو لها والدمع يجري من عينه لما أصابها فيشبهه بالمطر المنهمر، فكثرة دمعه أحال جفنه ومقلته إلى احمرار، لأنه يذرف دماً لا دمعاً على أهله ووطنه!

ويصور الشاعر الرحوي الهرج والمرج الذي حدث في تونس بعد دخول المرينيين وانتشار الفتنة بين الناس مصوراً ما آل إليه حال الناس بقوله:

استغفر الله كُـــلَّ حيـــن   قد ذهب العيش والهناء

أُصْبِحُ في تُونس وأمسي   والصبح لله والمســـاء

الخوف والجوع والمنايا   يحدثها الهرج والوباء

فهذه صورة دقيقة تنقل للقارىء في دقة وحسن صياغة معاناة الناس وانتشار الخوف والموت بينهم، عندما تقطعت بينهم أواصر المحبة ووشائج القربى.

ويكمل تلك الصورة، وقد عم الفساد، وكثر الخراصون والمشعوذون والمنجمون يضحكون على هموم الناس، يمنونهم بانفراج قريب، وما ذلك إلا تخرسًا وكذبا وزعما منهم.

يقول مخاطبا المدعين من المنجمين:

يا أشعري الزمان إني   أشعرني الصيف والشتاء

انظر إلى الشاعر كيف وظف لفظة أشعري لتدل على العلم والمعرفة واللفظة الثانية لتدل على الشعور والإحساس بالواقع الحقيقي لا بما يدعيه المنجمون، إن كنتم تدعون معرفة الغيب واستكناه المستقبل فخير من يعرفنا بذلك: هو الواقع وتوالي الأيام والفصول من صيف وشتاء فإنها تكذب وتدحض مايدعون.

وهي صورة شعرية رائعة في نقل معاناة الناس وإحساسهم بالواقع.

الصورة في قصيدة: الإخوانيات

ومن الصور الجميلة التي عبر بها التجاني عن مشاعره نحو أخيه وهو في رحلته قائلا:

لأهل الحمى أصبو وإن جدَّ لائم وإني على وردٍ به الدَّهْرَ حائم

ثم يقول:

فيا نائيا عني ومثواه في الحَشَا ومن أعجب الأشياء نَاءٍ ملازم

وإنها صورة جميلة حيث جعل البعد والهجر ملازما لحياته

غير أن مسكن أخيه قد استقر في أحشائه، وفي نفسه ، لا يغيب عن باله ثم يخلص إلى هذه المفارقة، والتضاد في المعنى بين لفظتين: ناء وملازم

وهي التي تعطينا تلك الظلال من المعاني الجميلة في البيت إذ التضاد يضفي على المعنى كثيراً من الحيوية وينقل القارىء من حال إلى حالٍ. ليستقر المعنى في النفس في أجمل صورة وأَقْشَبِ ثوبٍ.

- فنرى هذه الصورة الجميلة في الوفاء والثبات على العهد في قول الشاعر الهواري

لقد ضيع الصحاب عهدي ولا نوىَ وأنت بظهر الغيب تحفظ لي الودَّ

إنها صورة جميلة يقارن فيها الشاعر بين شخصية قريب وبعيد ثم يلاقي من الغريب الصد والإعراض ويلاقي من البعيد الحب والوفاء والإقبال في صورة من أحسن الصور.

فالوفاء لاوطن له ولاموطن إلا النفوس الأدبية.

و لابن سعيد هذه الصورة. في وصف عوادي الزمن قوله :

وللرزايا وثبة مالها إلا الذي تَدْخَرُ من عدَّتك

فهذه الإستعارة التي صور بها الشاعر "الرزايا" وكأنها تثب وثبا كالحيوان المفترس ، لايقوى على ردها إلا الذي أعدّ لها العدة من خبرات ورباطة جأشه.

- ويقدم ابن سعيد في هذه القصيدة لابنه وصية وحكما خالدة خبرها من طول حياته وصدق تجاربه قائلا:

"واصحب أخاً يرغبُ في صحبتك"

فغرض الأمر هنا فرج لغرض النصح. ومن أصدق نصحا من الوالد، إذا كان ذا عين بصيرة.

فالحكمة من مصاحبة الناس تبقى صالحة مادام الإنسان يبحث عمن يبادله حباًبحب ووُدًّا بودٍّ. وإلا فإن الصداقة قد تفسد؟!

ويرد عنان بن جابر الثائر على رسالة صديقه ابن أبي الحسين في هذه الصورة البلاغية الموحية قوله:

تحمَّلْ إلى ترشيش عني تحية　　　كما سلم الأحباب عند التزاور

يلتفت الشاعر إلى صديقه ملتمسا منه إبلاغ التحية الحارة الصادقة إلى تونس وأهلها، وموطن صديقه عنان بن جابر، مشبها لتحيته بتحية المتزاورين، فيها حرارة الشوق وصدق المشاعر.

والغرض من الأمر كما نرى قد خرج إلى غرض الالتماس.

ومما جادت به قريحته في وصف ضيقه وغضبه وقلقه قوله في هذه الصورة البديعة من التشبيه:

وعادت عليَّ الأرض حلقة خاتمٍ　　　بلا ذِلَّةٍ مني سوى طوع آمر[1]

فالصورة التي رسمها الشاعر في ضيق الأرض عليه بما رحبت كما يضيق الخاتم بالإصبع؟ أو يضيق الخلخال بصاحبته؟ تشبيه بديع صريح، أدى وظيفة إضافية للمعنى الذي أراده الشاعر فهو لا مهرب له ولا مخرج كالأصبع في الخاتم.

ومن الصور الجميلة المعبرة عن المعنى بدقة عند شعراء الدولة الحفصية. قول عنان بن جابر[2]:

وفي الأرض أوطانٌ ومأوى ومسرح　　　وفي الناس من يرجى لدفع الضرائر

إذا كانت الأوطان موئلا لكل ثائر أو قاصد أو نازح، فإنه في الناس من ترجى مساعدته ونصرته ويطلب عونه وهي صورة تشبيهية رائقة عندما أعاد العجز على معنى الصدر فكان المعنى أدلَّ وأعمقَ على مراد الشاعر.

الصورة في قصيدة المدح:

يقول بن الأبار مستصرخًا الأمير الحفصي (أبا زكرياء) من قصيدة اشتهرت بالسينية[3]

---

[1] آمر: الضمير والعقل.

[2] المقري، أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس ، دار صادر –بيروت- 1988،ج1، ص: 23.

[3] ابن الأبار، الديوان، ص367.

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا   إنَّ السَّبيلَ إلى نجاتها دَرَسَا

فهذه الصورة البلاغية في عبارته التي ابتدأ بها مطلع قصيدته الرائقة

أدرك: تفيد الاستصراخ والنجدة، والاستغاثة، لأن الخطر محدق بالمسلمين، فكانت الأة من جنس الطلب.

بخيلك خيل الله ،،عليها مجاهدون يكافحون عن الدين والوطن .إن السبيل إلى إدراك غايتها يكاد يتلاشى ويندثر إذا لم تكن منكم نجدة واستجابة لصرختنا.

وغرض الأمر في قوله أدرك: الغرض منه الدعاء لعل ذلك يأتي وعسى أن يكون قريبا.

ولو تتبعنا جميع الصور في القصيدة الحفصية لطال الأمر بنا و أصبح عملنا بلاغيا أكثر منه أدبيا، ونحن هنا - كما أرى- نبحث عن الصورة الجميلة والتشبيه الكامل الأطراف، الدال على حسن المعاني وصياغتها في أجمل ثوب.

ويكفي أن نشير إلى أهم تلك الصور لأنها لا تعد ولا تحصى، والعبرة في عملنا ليس حصر جميع الصور بقدر ما نكشف عن الجميل المبتكر فيها، أو القديم المعاد على طريقة السابقين، ولكن الصورة البلاغية تبقى من أساسيات العمل الفني، وهي الملمح الدال على جمال التعبير ودقة المعاني وحسن صناعة الصور البلاغية في نص فني متكامل. وتلك مزية الصورة في خدمتها للنص الفني الرفيع.

- وقد لاحظت تكرار الصورة القديمة في القصيدة الحفصية من حيث المعاني، والأفكار، والأخيلة كقول ابن الأبار يشيد ببني حفص:

تناضل عن دين الهدى وتدافع   كأنك في الهيجـــا أبوك مـــدافع
وتثبت يوم الروع في حومة الوغى   كـــأنك ثهـــلان، أو "متـــالع"

فهذه الصور التي اقتبسها ابن الأبار، شاعت في نقائض جرير والفرزدق.

- والصورة الأخرى هي (الدفاع عن الدين)

كما في قوله:

يمينا بما قدمت من حسن لقد   حَمَيْتَ ذِمَارَ الدين والدينُ ضائع[1]

فهو يمدحه بحماية الدين، وصيانة عهود الناس، وأعراضهم. ثم يسبغ على بني حفص هذه الصورة الدينية بقوله:

صلاة وصوم واحتساب وخشية   وعدل وإحسان لها الغزو سابع

فهو إذ يشحذ هذه الصورة بهذه المعاني والقيم الإسلامية، إنما يريد من وراء ذلك بعث هذه المعاني في نفس الممدوح،، وقد سبق إلى هذه المعاني الشاعر أيمن بن خريم في مدح بني هاشم[2]:

---

1 الذِّمار: ما ينبغي حياطته، والذوذ عنه. كالأهل والعرض. ويقال: هو حامي الذِّمار.

2 الشايب، أحمد، تاريخ الشعر السياسي إلى منتصف القرن الثاني، مكتبة النهضة المصرية، ط4، 1966م، ص 66.

«نهاركم مكابدةٌ وصومٌ   وليلكم صلاةٌ واقتراءٌ»

وتتكرر هذه الصور رغم-تقليديتها- بحسن الصياغة والتركيب كقول ابن الأبار في نفس القصيدة:

تحف بزيان الأمير كأنه   فؤاد وهم فوق الفؤاد أضالع

فهذه الصورة الجميلة لوصف الأمير (بالقلب) والناس حوله كأنهم – أضالع ، وهي صورة معبرة عن المعنى، فهي دالة عليه، في سهولة ويسر وتلك علامة من علامات الصورة الفنية الدالة على المراد.

ويصور لنا حازم القرطاجني[1] حال أهل الأندلس في هذه الصور الرائقة بقوله:

يا ربوعا أقفرت من   ناطق فيها وقاطن

فهذه الصورة التي مطلعها النداء، يعبر فيها عن خلاء ربوع الصبا وموطن الشباب وخلت من كل ناطق أو مقيم فيها بعد أن شملهم الهجر والنزوح عن الأوطان فكان النداء للتفجع والتحسر.

ويستمر حازم في حشذ هذه الصورة الإسلامية في معظم قصائده في مدح المستنصر بقوله:

يا ناصر الدين الذي آراؤه   في نصرة الإسلام توري أزندا

يا من تأمل للإسلام نصرته، كن للعدا زندا قادحا ، فإنه يشبه الخليفة بالزند التي تقدح النار ، وتقذف بها الأعداء ليحمي الدين وينصره.

ويستمر الشاعر الحفصي يشحذ الصور الجميلة لنقل تجاربه وأحاسيسه وعواطفه كما نقلها القدماء، بل أضاف إليها من الحلي اللغوية والأسلوبية، ماجعل هذه المعاني والصور الشعرية،، ترتقي إلى حالة من التعبير العميق عن التجربة الشعرية كما في قول الرحوي الذي مدح السلطان المريني عند دخوله إلى تونس 747هـ . بهذه الأوصاف والصور التي نختار منها :

في هذه الصورة التقريرية المباشرة ينقل الرحوي عواطفه ومشاعره بقوله:

أجابك شرق إذْ دعوت ومغربُ   فمكة هشت للقاء ويثرب

وهي إشادة بدعوة المرينية في المغرب العربي، وقد رأى في حملته دعوة إلى توحيد المسلمين في المغرب والمشرق، وتلك أمانيه.

ثم يصف دعوته بهذه الصورة المتقابلة ، معتمدا على التضاد في اللغة ليدخل إلى القارىء من باب هذا اللون البلاغي المعبر بقوة عن مراد الشاعر في قوله:

شرعت من الإحسان فينا شريعة   فتاوى بها ناءٍ ومن يتقرب

---

[1] ابن الأبار، الديوان، ص 201.

فشريعة العدل والمساواة حققتها كلمتا(ناء.. ويتقرب).

وإذ تحقق ذلك في يسر، وفي أحسن صورة، فذاك ما نطمح إلى إبرازه في النص الشعري.

إذا كانت الصورة الشعرية مواكبة لكل غرض فإنها في قصيدة الوصف أكثر وضوحا وجلاء. والشعر الحفصي قد أحاط بهذا اللون الشعري من جميع نواحيه:

من وصف للسماء،ولصور الرياح، ولصورة المطر، والحيوان والنبات والماء...

وسنمثل لأحسن وأجمل الصور الشعرية في هذا الغرض.

وصف قصر أبي "فهر" في تونس:

نمت صُعُدًا في جِدَّةٍ غرفاته   على عَمَدٍ مما استجاد لها الجَدّ

فهو يعطينا صورة لعرصات القصر وغرفاته المشرفة على البستان الزاهر مما جادت به قرائح الفنانين والمبدعين. فيكمل الصورة بقوله:

تخيلن قامات وهن عقائل   سوى أنها لاناطقات ولا ملد

وهي صورة دقيقة : يخيل لديك أنها أمامك تحاول لمسها، لتعرف أهي تماثيل ودمى أم عقائل حقيقية؟ وما ذاك إلا لحسن صنعتها ودقة تصويرها .

- ثم يعرج الشاعر على بستان (أبي فهر) فيصف الأشجار والثمار، والخمائل والجداول، ثم يصف ريح الصبا وهي تداعب البركة.
- ثم يصف أشعة الشمس التي لامست تلك البدائع المذهبة ليتشكل من ذلك كله هذا المنظر العجيب إذ يقول:

تــندى أصائلها صــفرًا غلائـــــلها   كــــأن ماء نُضَارٍ فوقها يكف

في حَبَــْرَةٍ وأمــانٍ مَنْ نبــــرأها   كجنة الخُلْدِ لا رَوْعٌ ولا أســف

أضحكت إلى غُرفِ الرضوان داعية   تلك المحاريب والأبيات والغرف

فهذه الصورة الشعرية : قد أضفى عليها الشاعر من فقه ومن حسن صياغة أسلوبه حتى كادت هذه الصور الجامدة أن تنطق عما في جواها.

ثم يلج الشاعر إلى البستان العامر فيصف الماء المتدفق والموج المتلاطم بقوله:

يمده للفرات العذب مُطَّرِدٌ   خُضْرُ البحار إذا قيست به نطف

كأن أمواجه الأبطال مدرعة   كَرَّت تلاقي ولا بيضٌ ولا جُحَفُ

فهذه الصورة الشعرية للماء المتدفق وكأن الموج المتلاطم مواجهة بين الأبطال والفرسان في صراع واقتتال بلا سيوف ولا قتل .. إذ القتل هنا انكسار الموج، وانزياحه، ثم اندفاعه، وتوالي موجه ... وكأنما هو بحر لجيٌّ...

ويذكر الشاعر على عادة القدماء النجوم والأفلاك الدائرة والبروج وما عرفه الشعراء وصاغوه في أشعارهم فيرسم لنا في القصيدة السابقة هذه الصورة الشعرية:

مطالع للنجوم السُّعْدِ يَكْنَفُهَا   قصر الإمارة نعم القصر والكَنَفُ

لو تهتدي الشمس أن تختارها فلكا   لسيرها لم تكن تَخْفَى وتنكشف

فهذه الصورة الحية، وكأن بركة القصر، هي مطالع للنجوم، وقد احتضنها قصر أبي فهر العامر فهذه البركة لو اتخذتها الشمس مدارا فلكيا فلن تختفي عن الأنظار، وينكشف أمرها على صفحة هذه البِرْكَةِ.

- وفي نفس الغرض ينقل لنا حازم القرطاجني هذه الصور الشعرية:

وَطَوْدَ زَغْوَان دَعَوْتَ مَاءَهُ   فَلَمْ يَزِغْ عَنْ طَاعَةٍ ولا ونَى

وهي صورة تبين تطويع المستنصر للماء، مستجلبا له من جبال زغوان البعيد طائعا مسرعا، كما يذعن الإنسان ويخضع لآمره، وخالقه.

وانظر إلى الصورة التي ركبها الشاعر من كلمتين متضادتين لنقل المعنى في غاية من السهولة والجمال، إذ يرسم ذلك بقوله:

وكفرت طاعتُه لمؤمن   طاعته لكافر فيما مضى

فقد كفرت طاعة الماء للخليفة المستنصر، عن طاعته سابقا للرومان.

وقد استعمل الشاعر لنقل هذه الفكرة صورة تقابلية بين ماض وحاضر وبين طاعة وكفر، فجاءت هذه الصورة في غاية الجمال والإبانة عن المعنى. وذلك لايتأتى إلا للشعراء الكبار أمثال حازم القرطاجني الذي وشى شعره بهذه الدُّرر البلاغية والصور الشعرية لتدل على جملة من الأفكار الراقية.

يقول حازم في قصيدته التي عارض فيها رائية ابن عمار:

طربتْ جمادات وأفصح أعجمُ   فَرَحًا وأصبح من سرور يهزج

لقد افتتن الشاعر بالصور والتماثيل التي في حديقة المستنصر فعبر عنها بهذه الصورة الشعرية الرقيقة.

إذ أضفى على هذه الطيور والتماثيل صفة الطرب وكأنها تحس وتشعر بهذا الجمال الذي ملأ القصر حسنا وبهاء، ثم يجعل هذه التماثيل التي يتدفق الماء من منافيرها، أو يتدفق الماء المنساب في

الحنايا، ليتدفق في البركة، فيصف ذلك المشهد وكأن هذه الجمادات قد أفصحت عن نفسها وأظهرت جمالها وحسنها للناس.

وحازم يوالي شحذ الصور الجميلة البارعة كما في قوله:

فترقب السراء من دهر شجا   فالدهر من ضد لضد يخرج[1]

وغرض الأمر هنا للنصح والإرشاد. وهي صورة رائقة تبين عن مدى عمق تجربة الشاعر في تصوير معانيه وأفكاره.

ويرسم لنا ابن الخلوف القسنطيني هذه الصورة: للظلمة والبرق والروابي والأزهار فيقول:

رأى البرق تعبيس الدجى فتبسما   وصافح أزهار الربا فتسنما

فلمعان البرق يبدد الظلام، وعندما يلامس أزهار الروابي العالية فكأنما هو يتنسم أو يتنفس.

ويستمر في رسم تلك الصور للطبيعة الفاتنة وقد زهت بأزهارها وظلها في ربيع بهيج قائلا:

وشاب لجين الظل عسجد بارق   فدثر أزهار الربيع ودرهما

لقد شبه قطرات الندى بالفضة المذابة، ضوء ذهبي فألبس الأزهار، وشكلها دراهم.. لأن الضوء الذي يخترق الأغصان والأوراق يشكل منها دنانير ودراهم.. يكاد الإنسان يلتقطها؟!

وإذا تأملنا صور ابن الخلوف في الوصف فإننا نراه ينسج على طريقة القدماء صورة ولغة وأسلوبا، وكأنك تقرأ لشاعر جاهلي يقول:

قصير المطا والرسغ أتلع صامتًا   طويل الشوى والذيل أعظم شيظما

ومازال يدقق في صورة الفرس وكأنه امرؤ القيس فيقول:

تخيل سرحانا وساير كوكبا   ولا حظ يعفورا ولاعب أرقما

فأوصاف الشاعر من بيئة الصحراء جميعها: كالذئب، والغزال، والأراقم وهو يعيش بين قسنطينة وتونس.

فهذه الصور هي محاكاة للقدماء في كل شيء، ولم يضف الشاعر لهذه الصورة غير لغته وأسلوبه الجزل الفخم الذي تخير له تلك الألفاظ الغريبة لتدل على موطن البيئة التي أراد الشاعر وصفها، وصف حيواناتها.

فلون الشاعر صورة من التشبيه البليغ إلى الكناية عن ضخامة وقوة فرسه.

ثم ينقل صورا للأبطال والفرسان العرب، ولصور الفتوة في العصر الجاهلي فيشبه فرسه بهذه الأوصاف:

---

[1] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص 105.

إذا خَبَّ عاينتَ الحرونَ وداحسًا وإن سار أنساك الجديل وشدقما

فهو قد ماثل الفرسان في المكانة والرفعة.

<u>الصورة الشعرية في القصيدة الغزلية:</u>

لقد كان مدار وصف الشعراء للمرأة في شعرهم منذ القديم مرتكزا على جانبين:

الأول: الوصف الحسي المباشر وهو الأغلب الأعم في شعر القدماء.

الثاني: وهناك وصف مثالي يضفي على المرأة الكمال فتصبح وكأنها النموذج والمثال.

عناصر المشابهة بين المرأة وغيرها، مما اختاره الشعراء من حيوانات أو أجرام أو أفلاك أو نور أو ظلام أو شجر أو زهر، أو عطر، وما إلى ذلك.

ونحن هنا سنكشف عن صور شعراء الدولة الحفصية للمرأة وما الذي أضافوه لهذه الأوصاف القديمة، يقول ابن الأبار:

وحمامة ناحت فنحت إزاءها فلو استمعت لقلت: هذا المأتم!

فالشاعر يربط أحاسيسه وشوقه بصوت حمامة غنت فوق غصنها، ويرى كل ذلك مبعثه الألم والحزن، وأن صوتها ليس شدوا؛ بل نحيبا وبكاءً، ثم يمعن في وصف تجلده ومدى صبره على الفراق بقوله:

ومن أين أو كيف التجلد للنوى و"مد" الأسى في القلب ليس له "جزر"

تأمل هذا التشبيه الجميل بين اضطراب الشاعر قلقه، كأنه: البحر المتلاطم، أمواجه متلاحقة وليس لها وقف أو هدوء، واللقطتان زادتا المعنى جمالا لا حد له. فحالة البحر الهايج تتلاحق أمواجه بعض فوق بعض في حركة مستمرة.

ويقول الشاعر في الصورة التي يعانيها من ضيق الهجر والصد مختتما قصيدته:

حياتي هجر كلها وقطيعةٌ أما آن أن تفنى القطيعة والهجر؟

يكمل الشاعر صورة حزنه ومعاناته، فيقرر أن حياته: هجر وقطيعة، وهو تشبيه بليغ في غاية التعبير عن المراد النفسي للشاعر، ثم يأمل أن تزول عذاباته وقطيعته وهجره الذي أضناه أشد الضنى.

وهذه الصورة تكاد تتكرر عند شعراء الغزل، لأن معاناتهم واحدة صد، وهجر، وقطيعة، وتمنع، وإعراض، وما إلى ذلك من الحالات النفسية التي يقاسيها المحبون.

- أما حازم القرطاجني فنراه في تصوير مشاعره وأحاسيسه في قصيدة غزلية بين سلطان حسنها وجمالها على نفسه بقوله:

يا ظبية الربرب الحالي سوالفها   من قلَّد الحلي آرامًا وغزلانا؟

إن حازما يصور تصويرا بارعا بفضل الكلمات والتعابير المنتقاة لوصف ظبية، من ظباء الحي، صفحة عنقها في غاية من الحسن والجمال، أما الاستفهام في البيت فهو إنكاري، أي أنهن جميلات بطبعهن، وهذه الصورة تثبت المعنى وتؤكده، بل تضفي عليه كثيرا من إطلال الجمال والحسن الخفي. ثم يختم بهذا التعبير الفني الرفيع قوله:

كن كيف شئت وصالاً ومقاطعة   فلست عنك أطيق الدهر سلوانا

إن الشاعر المجرب الذي يعرف كيف يخاطب الحبيب الذي قد يصدر منه بعض الإعراض أو الجفاء، فيدلي برأيه قائلا:

كوني كما شئت فإنني لن أسلو عنك، ولا أطيق فراقك.

وهو رأي محمود عند المحبين،، والمتغزلين.. فليس ينفع العناد، ورد الجفاء بجفاء أو إعراض بإعراض..

- وفي قصيدته الجيمية ينقل لنا أحاسيسه وتجاربه بكل صدق وعمق كما في قوله:

فترقب السراء من الدهر شجا   فالدهر من ضدٍّ لضد يخرج

وترج فرجة كل هــم طـــارق   فكل هم في الزمان تفــرج

انظر إلى رأيه الواضح في البيت الأول عندما يقرر أن الدهر: يومان

فهو من: حزن إلى فرح. أنطقته بهذه الحكمة تجاربه العميقة وحتى اختياره للكلمات كان موفقا ودالاً على المعنى:

السراء- الشجا والدهر - من ضد إلى ضد.

هذه المقابلة في الكلام هي التي أضفت على البيت حلاوة وطلاوة، ثم يختم قصيدته بهذه الحكمة الخالدة:

وتَرَجَّ فُرْجَةً، فلكل هَمٍّ تَفَرُّجُ.

إن التوافق بين هذه الكلمات وبين هذه التراكيب التي حملت لنا معاني الشاعر في أجمل ثوب وأحسن نسيج أدبي هي التي ارتقت بالمعنى إلى هذه المكانة الفنية الرفيعة.

- أما ابن حبيش فينقل لنا هذه الصور الشعرية والبلاغية مقتفيا طريقة عمر بن أبي ربيعة في فنه الشعري، وفي تهتكه والجهر بغوايته فيقول:

وقد يصبر الصادي إذا الماء عزه   ولكن متى يبصر عزَّ التصبرُ

فهو يقدم لنا هذه الصورة الجميلة، للعطشان الذي يقاوم الظمأ، في غياب الماء أما إذا رآه فلات حينئذ مكان للصبر والتصبر.

فالشاعر في هذه الصورة يعزف على ثنائية لغوية، فالعجز ردٌّ على الصدر والكلمات المتقابلة تحيل القارئ إلى استنتاج حقيقة يقررها الشاعر في الصدر من البيت.

فالإنسان يقاوم رغباته ويكبتها إذا فقد الشيء. وأما إذا توفر فيصعب عليه الأمر، ويستحيل الصبر والتجلد.

ومن جميل صوره. رسمه للسهاد والأرق الذي استبد بالشاعر فيقول:

ما خطط النوم في جفني رسم كرى إلا محا السهد ما قد خَطَّ أو رسما

يشبه تخطيط النوم في جفنه بالسهاد الذي يمحو الكرى، فالنوم يغمض الجفن والسهاد يفتحه.

بصورة مقابلة في غاية الدلالة لمقابلتها للمعنى، ولتركيبه للكلام على حال من التضاد، والتعارض.. فالنوم يخطط الجفون بالنوم والسهاد يمحو النوم ويقر في العيون الأرق والتسهيد.

وهي صورة جميلة لحال شاعر أخذه التفكر في الحبيب فغاب عنه النوم، وسكنه السهاد.

والصورة عند ابن حبيش: صورة فنية راقية أضفى عليها من حسن تراكيبه، وجميل صياغته فجاءت صوره ناطقة بالمعاني والمشاعر كقوله:

بنفسي معرضة باخلة أجد وتقتلني هازله

وقدّ حكى ناعمات الغصون ويفعل فعل القنا الذابلة

يمنعني وصلها والفتو ر. يوهمني أنها باذلة!

في الصورة الأولى، يصورها الشاعر بالمعرضة البخيلة وهو يشكو وجده وشوقه، فتقتله بهزلها، وقد استغل الشاعر في هذا البيت الكلمات وحسن التراكيب لينسج منها هذه الصورة المعبرة.

ثم يشبهها: بالغصون الناعمة الطرية، ولكن هذا القد الجميل يفعل به ما تفعل الرماح الحادة بالأعداء.

وتكتمل الصورة عنده وهي صورة مباشرة، ولكنها مصاغة في أحسن أسلوب والرماح تمنعنى وصلها،، كما يمنعني قدها الناعم.

غير أن فتور عيونها، وانكسار جفنها،، يوهمني ويغري بي أنها باذلة للقرب والوصال..ولكن هيهات أن يظفر منها بقرب...إنها أوهام شاعر...

ثم يستمر ابن حبيش في رصد هذه الصور الخارجية لامرأة إذ يقول:

فسوار الشوق يؤلمني   وسوار الحَلْي يؤلمها

صور الشاعر في هذه القصيدة تقوم على ثنائية اللغة وتضاد المعاني، ليصل إلى غاية في رسم صورة بلاغية رائقة، فالشبه واقع بين سوار الشوق، وسوار الحَلْي:

فهو متألم بسبب أشواقه، وهي متألمة من سوار حليها الذي تتزين به.

وهو بذلك يكني عن شوقه وتعلقه، وهي: غير مبالية بما يعاني.

الأسلوب:

الأسلوب هو الشخص، إذ الحديث في الأدب قوامه الأسلوب ففي الأسلوب يختلف الكتاب والشعراء ويتفاضلون فيما بينهم بسبب أسلوب كل شخص.

إن التعبير عن الأفكار والمعاني والأحاسيس والمشاعر والعواطف وجمعها في إطار واحد. هو الأسلوب الذي تحدث عنه النقاد وأفاضوا في تعريفه. واختلاف الناس في أساليبهم والتعبير عن عواطفهم ومشاعرهم، هو مدار حديث النقاد وتفضيل شاعر على شاعر آخر. بسبب اختلاف أسلوبيهما، لغة، وعاطفة، وخيالا، وفكرة، ولو كانت هذه المعاني ثابتة لا لاتفق حولها الشعراء والكتاب، وتشابهت أساليبهم.

ولذلك يقول الأستاذ عبد الحميد حسن في كتابه[1]:«ومن هذا يتبين أن الأساليب تختلف كاختلاف الأشخاص في أصواتهم وعقلياتهم وأمزجتهم»

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الكيالي في حديثه عن الأسلوب[2]: «الأسلوب هو الطريقة التي يتبعها الأديب في نسج الجمل والعبارات والتراكيب، ولا نعني بالطريقة الفن الأدبي الذي يظهر في النص كالمقالة أو القصة أو الخطبة أو الحوار مثلا ولا النوع الأدبي كالشعر أو النثر، وإنما نعني بالأسلوب طريقة حبك الكلام ورصفه، وضم الكلمات والجمل والعبارات بعضها إلى بعض، حتى يتكون منها نسيج كلامي كامل.

ومن هذا النسيج يصنع الشاعر شعره، والناثر نثره. ويصوغ الكاتب قصته...

ونسيج الكلام يبدأ بالكلمة فالجملة... وهذه الأعمال الكثيرة التي تبدأ من الكلمة وتنتهي بالكلام هي الأسلوب[3]»

---

[1] الأصول االفنية للأدب عبد الحميد حسن، مكتبة الأنجلو المصرية ط2 1964م. ص 207.

[2] التأسيس في النقد الأدبي: عبد الرحمن الكيالي وعلي حسن عودة ص 49.

[3] المرجع نفسه. ص50.

فهو كالشجرة: أجزاؤها: الجذع، والأغصان، والأوراق، فإذا جمعت هذه الأجزاء كونت الشجرة ونحن سنتبع جزئيات البناء في أسلوب االشعراء لقصائدهم في ظل الدولة الحفصية. لتبين عن مدى تمكنهم من أساليب اللغة العربية، وحسن توظيفهم لتلك الأقنعة الفنية التي أشرنا إليها من قبل كاللغة والصورة والتراكيب والخيال والفكرة، ليتشكل بعد ذلك هذا الكلام الفني الجميل، الذي يمتع النفس ويحدث الأثر فيها، بمتعة فنية هي غايتنا من هذه الدراسة الفنية.

ويرى الأستاذ عبد الحميد حسن[1] أن الأساليب أنواع هي:

1) الأسلوب العلمي: عناصره: معان، وأفكار، وتعبير. عماده الحقائق والمعلومات وتجارب الباحثين. قوامه الحقائق والمعلومات وتجارب العلماء والباحثين.

2) الأسلوب الأدبي: هو الطريقة الكلامية التي يسلكها الكاتب أو الشاعر لعرض الأفكار على سبيل الدفع والإثارة للعاطفة والوجدان، وهو أسلوب النثر الفني.

وعناصره: المعاني، الأفكار ، الصور، التعبير، التأثير.

3) الأسلوب الشعري:ويكون فيه عنصر العاطفة بارزا. وهدف الأديب أن يملك زمام الوجدان والأحاسيس.

ويتحقق هذا الأسلوب بفضل هذه العوامل: كالخيال والانفعالات وجمال اللغة وحسن اختيار الألفاظ والمعاني.

وبعد: فإن الأسلوب الأدبي نوعان:

أ. تقريري

ب. تعبيري

- فالتقريري ما كانت الأفكار فيه مباشرة، تقريرية، لا أثر فيه لأعمال فكر القارئ لأن الحقائق تعطى له جاهزة وله أن يقبلها أو يردها. وهذا طابع أغلب الشعراء والأدباء في الجاهلية إلى عصر النهضة.

- أما التعبيري: فهو الأسلوب الذي يحترم رأي القارئ ولا يبوح له بكل جزئيات الموضوع، لتبقى له فسحة من الرأي يبديها في هذا النص، فهو لايقدم الحقائق جاهزة بل يترك لك المجال واسعا، لتبعد بخيالك حول معنى الفكرة أو الغرض من قصده... لأنه يحجم عن عرض أفكاره دفعة واحدة.

---

[1] االمرجع نفسه ص208.

ونلاحظ كثرة هذا الأسلوب الفني الرفيع في الأدب الحديث شعره ونثره.

والأسلوب التعبيري هو الذي يقدم لك التجربة التي عاناها الشاعر لتستنتج وحدك مراده وقصده في نقل تلك المشاعر والأحاسيس[1].

وسنحاول في عرض أساليب الشعراء في ظل الدولة الحفصية. أن نبين عن طبيعة تلك االأساليب

أهي تقريرية أم تعبيرية

وسأقف على بعض القصائد التي اخترتها للدراسة الأسلوبية كقصيدة المدح، الوصف، الغزل، المولديات. للبحث عن طريقة شعراء الدولة الحفصية في نسج قصائدهم وطبيعة أساليبهم وبعض خصائصها.

الأسلوب واللغة:

إذا كنا قد تحدثنا عن أهمية شكل القصيدة فإننا نؤكد هذه الحقيقة بما بين أيدينا من النصوص التي برزت بقوة في كل القصائد، لأنها عماد العمل الأدبي والشعري خاصة كالفكرة والصورة والخيال واللغة والأسلوب والموسيقى وهذه الأجزاء تكون مع بناء القصيدة في هيكلها كلا متكاملا متلاحما يعضد بعضه بعضا.

وفي أسلوب شعراء الدولة الحفصية لاحظت ظاهرة تكررت في بعض القصائد: هي الوحدة الموضوعية الوحدة النفسية والوحدة اللغوية.

ففي قصيدة ابن عميرة المخزومي [2] التي يصف فيها شوقه وحنينه إلى وطنه بلنسية:

ألا ليت شعري والأمـــــانيُّ ضـــلَّة   وقولي ألا يا ليت شعري تحيرُ

كذاك إلى أن صــــــاح بالقوم صائحٌ   وأنذر بالبيـــنِ المشتِّتِ مُنْـــــذِرُ

لو تأملنا أسلوب ابن عميرة المخزومي في هذه القصيدة البكائية على بلنسية نراه يتخذ من الأسلوب التقريري أداة للتعبير عن أفكاره وعواطفه ومعانيه. وقد جاء أسلوب الشاعر سهلا سلسا بسبب اختياره لكلمات دالة على الحالة النفسية الحزينة التي يعيشها الشاعر فكانت الألفاظ عونا له على وحدة نفسية في رثاء بلنسية فقد دار عليهم الزمن، وتشتتوا وتفرقوا، بعد أن كانوا في أمن واجتماع.

ويسير ابن الأبار على الطريقة نفسها في تخير ألفاظه ومعانيه، في أسلوب مباشر تقريري مثل قوله[3]:

---

[1] التأسيس في النقد الأدبي، ص62.

[2] المقري التلمساني، نفح الطيب، ج4، ص 494.

[3] ابن الأبار، الديوان، ص 320.

وطِّن على الدائبين: الدمعِ والشجنِ يا نادب الذاهبيْن: الأهلِ والوطنِ
وجنةٍ حلَّ أهل النار ساحتها لم يغن حمل القنا عنها ولا الجُنَنِ
كأننا لم نصل تلك الأصائل في شحذ القرائح بالآداب والفطن

إن أسلوب ابن الأبار كما عهدناه فيه المباشرة والتقريرية ولكن ليس في ضعف وإسفاف، فقد اختار من الصور البلاغية والأخيلة ما يضفي على المعنى رونقا وجمالا.

فهو يقرر أن بلنسية لم تغنها رماح أهلها ودفاعهم عنها فسقطت، وانهزم أهلها كما يكني عن ذلك في قوله: «وبؤنا بطول الغَبْنِ والغَبَنِ»[1]

ولكن الشاعر يستدرك في آخر بيت بأنه قدم ما عليه ويبرئ ساحة نفسه مما حل بقومه. إذ كان داعيا لهم ومرشدا وناصحا حتى لا تقع الهزيمة على المسلمين ولكنهم مالوا إلى الدعة... فدارت عليهم الدوائر.

- ويقف ابن عميرة المخزومي يصف ماحل ببلنسية قائلا:

زدنا على النائين عن أوطانهم وإن اشتركنا في الصَبَابَةِ والجوى

في هذه الأبيات يسجل ابن عميرة موقفه مما حدث ويبين أنه أكثر من النائين عن أوطانهم في المعاناة، وإن اشترك معهم في الشوق وحرقته، ثم يبين كيف بعد المسلمون عن أوطانهم وتركوها، للشرك والمشركين ثم ينهي صورته لبلنسية بهذا الاستفهام المفزع عندما يقول:

حَسْنَاءُ طاعتُها استقامت بعدنا لعدونا أَفَيستقيمُ لهـــا الهــوى ؟

إذا كانت هذه المدينة قد استسلمت لعدونا لأننا لم ننصرها، ولم نقدر على رد الأعداء عنها، فإن كان ذلك قد حصل؟! فهل تحصل المحبة والود بينهما؟

وفي رأيي أن الاستفهام للتحسر والتفجع وللإنكار وهو هنا بقدر ما يقرر الحقائق في أسلوبه غير أن توظيفه البارع لهذه الأقنعة الفنية يسمو بالتعبير إلى أعلى الدرجات حتى لا نجد مفرا من الإذعان لهذا التعبير والأسلوب البارع في اختيار الألفاظ والتراكيب بعناية واقتدار. وربما جاز لنا أن نقول إن ابن عميرة في هذه المقطوعة، لم يكن مباشرا في كل ما قال. بل إنه اتخذ من الأسلوب التعبيري مطية له في البيت الرابع!

- وإذا وقفنا مع الرحوي في وصف حال المسلمين في تونس بعد دخول المرينيين وانقلاب الناس عليهم ورأينا تلك الأحداث في أسلوب جذاب بلغة منتقاة، وتعابير وتراكيب متناسقة يعضدها نغم موسيقي أخاذ مع توفيقه في الكلمات الدالة على معاناة الناس فيقول

---

[1] الغبن: غلبه ونقصه، والتغابن، يوم التغابن، قال تعالى: ﴿**يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن**﴾**آية 9 سورة التغابن.**

استغفر الله كـــلَّ حين قد ذهب العيش والهناءُ
أُصبحُ من تونسَ وأُمسي والصبـــح لله والمســـاءُ
الخوف والجوع والمنايا يُحْــدِثُـــهَا الهرج والوبـــاءُ

ثم يصور في دقة متناهية استبداد المنجمين والدجالين بالناس، فيتخذ الشاعر ممنهم موقفا قائلا:

مـــا هذه الأنجــم السواري إلا عبـــاديــد[1] أو إمـــاء
يُقضى عليها وليـــس تقضِي وما لها في الورى اقتضاء
ضــلّت عقـــول ترى قديما ما شـــأنه الجُرمُ والفنـــاء
وحكمت في الوجود طبعـــا يحدثـــه المـــاءُ والهـــواء

وبعد أن يتحدث عن ذلك الزيف والضلال في أحسن تعبير وصياغة، يخلص إل حقيقة الإيمان والتوحيد فيقول:

الله ربـــي ولـــستُ أدري ما الجوهر الفرد ما الخَلاَءُ

ثم ينتهي إلى هذا الرأي الناصح الواضح، وقد أتى بكل حجة بالغة وبصور ناصعة. زانها أسلوب سهل سلس، يلج القلوب في سهولة ويسر إذ يقرر:

يـــا أشعريَّ الزمان إنِّي أشعرني الصيفُ والشتـــاء

يا أيها المدعي العلم ومعرفة الغيب فالحقيقة أقوى وأظهر من ادعائك وأن الناس قد فطنوا على حقيقة واحدة كشفتها لهم توالي الفصول وتعاقبها.

فهذا صيف مر وشتاء قدم، وحال الناس من سيء إلى أسوأ هذا الذي يجب أن يضطلع به الفنان وينقله للناس ويتخذ منه موقفا فنيا كما فعل الرحوي، يوم اختلطت الأمور على الناس بين حاكم ومحكوم... وعالم ودجال، أو منجم أفَّاك.

فإذا تتبعنا شيئا من صناعة الشعر عند ابن أبي الحسين الكاتب الكبير بتونس أو عند عنان بن جابر رئيس قبيلة مرداس نلاحظ هذه الملاحظة الفنية على أسلوبيهما:

1) الميل إلى التقليد، الإغراب في اللغة، ولكن في أحسن ثوب وأجمل صياغة في قصيدتيهما في (الود والوفاء) بينهما.

قال ابن أبي الحسين، يخاطب عنان بن جابر

---

[1] عباديد: والعباديد(بلا واحد)، الفرق من الناس أو الخيل، وعبابيد: من فعل: عبَّد: الرجل أسرع. وتعبدد القوم: تشتتوا.

سلوا دمنة بين الغضا والسواجر هل اسْتَنَّ فيها واكفاتُ المواطر[1]
ودونكـم يـا للرجـال تحيـة يخص بها عنِّي عنان بن جابر
فتى ما دعته زَلَةٌ فأجابها فكيف طوى كشْحًا على نفس غادر
على كل حَوْرَاء القنان كأنه ربيبُ سعالٍ لاح في شكل طائر[2]
نشاوى على خيلٍ نَشَاوَى كأننا وأسيافنا لم تستفق من تساكر

ثم يختم نصائحه لصديقه بقوله:

هدتك الهوادي يا عنان وأمطرت ذَرَاكَ الغوادي بين بادٍ وحاضرِ

يبدأ الشاعر في مخاطبة صاحبه على طريقة القدماء في ذكر الأماكن ثم يرسل بتحيته إلى عنان بن جابر، ويشيد بفروسيته وشجاعته ويدعو له بالخير العميم والرأي الحصيف في العودة إلى جادة الصواب دون أن يخدش كرامته، مستعملا تعابير منتقاة من قاموسه اللغوي القديم.

وكأننا نستمع إلى شاعر جاهلي ولكن في غاية الوضوح والصدق في الإحساس، والعواطف بأسلوب تقريري مباشر، أراد الشاعر ابن أبي الحسين أن يبلغه إلى عنان بن جابر سيد قوم ورئيس قبيلة مرداس، والدعاء له بالخير العميم.

أما عنان ابن جابر فيرد بهذه القصيدة الطنانة لغة وأسلوبا، وصورة، فيقول:

خليليَ عوجَا بين سِلِع وحاجرٍ بعُوجٍ عناجيجٍ نواجٍ ضوامرِ
قِلاصٍ خِماصٍ شازباتٍ عرامسٍ مـواضٍ نواضٍ مرقلات عوابر
طوال الهوادي عند كل تَنُوفَةٍ هَمَلَّعَـةِ الأطراف هَـدْلِ المشافرِ
وعوجا على دار لنـا في جنابها أَفَانينَ لَهْـوٍ دائـمٍ غيـرِ داثـرِ

يبدأ عنان بن جابر قصيدته بهذا المطلع الجميل على عادة الشعراء في التجريد وبعد أن يفخر بنفسه وبأهله، وأنهم في منأى عن كل أذى يرسل هذه الكلمات إلى ابن أبي الحسين وإلى أهل تونس قائلا[3]:

---

[1] دمنة: آثار الديارالباقية. الغضا: شجرمن الأثل، خشبه صلب واحدته غضاة وأهل الغضى: أهل نجد والمعنى: اسألوا أهل الغضى ومجاري المياه التي نزلت بها الأمطار لتعيد لها الحياة كما كانت. السواجر: السيل. –واكفات:سائلات

[2] سعال: الغول، والسَّعلي: الغول ج السعالي. الحوراء: من النساء البيضاء. القنان، ج قنن: الجبل المرتفع. والمعنى: على كل بيضاء الجبال العالية، مهتديا بضوئها وبنجمها، كأنه سليل غول يطوي المسافات كالطائر المحلق. وهو بيت يشيد فيه بفروسيته.

[3] ح.ح.عبد الوهاب، المنتخب، ص 119.

تحمل إلى "ترشيش" عني تحية   كما سلّم الاحباب عند التزاور[1]
بلاد بها نيطت على تمائمي   وفيها نما عقلي ولبيّ وخاطري
وَبَلّغْ لِنَدْبِ أريحيٍّ سَمَيْدَعِ   سلاما يؤدَّى عن عنان بن جابر[2]

ثم يرسل كلمة إلى ابن أبي الحسين مخاطبا إياه:

بعثت أبا عبد الإله بدائعا   مُحبَّرة منظــومة كــالجواهر
ليال وأيام نعمنا بوصلها   على كرم منا وحفظ سرائر
وكنا إذا ما الجيش صَفَّت جنوده   ترانا على خيل عتاق ضوامر
عِرابٍ طِرَابٍ صافنات سلاهب   خفاف التوالي مدمجاتُ الحوافر[3]
نمد القنا المِرَّان فوق خدودها   نقدمها للطعن لا عن تحاسر[4]
نخوض وَغَاهَا والقنا تقرع القنا   بكلِّ حسام مشرفـــيٍّ وبــاترِ

فالشاعر ينسج هذا النسيج الشعري البارع معتمدا في لغته وأفكاره على السابقين من الشعراء مُمَجِّدا للفروسية والإباء والشرف، مذكرا بالأيام التي جمعتهما في جهاد الكفار والمناوئين والذي نلاحظه على أسلوب عنان بن جابر هو ميله إلى الإغراب، وتخير الكلمات والألفاظ الصعبة في وصف فرسه أو في التعبير عن مشاعره وعواطفه المتأججة التي تراوحت بين الحب والإعجاب والولاء في أداء أسلوبي تقريري أصيل.

- ثم يبين سبب هروبه إلى الجزائر محتميا بالقبائل العربية:

فلما بدا لي بعض ما كنت أتقي   وحانت أمور ضيقات المصادر
وعادت علي الأرض حلقة خاتم   بلا ذلة مني سوى طوع آمر
رأيت رجالا من رياح ومالك   وعوف ودباب وزغب وحاجر[5]
لهم مرقب دوني وقد كنت قبلهم   بسيفي ورمحي في الوغى وعشائري
إلى بلد لا يعرف الذل أهله   كرام العشايا من هلال بن عامر[6]

---

[1] ترشيش: بلدة وموطن عنان بن جابر./ وقيل: اسم لمدينة تونس في القديم.

[2] الندب: السريع الإجابة لما يندب إليه. أريحي : مرتاح لفعل الخير. سميدع: من فعل (سَمَدَ)، الشجاع، الشريف الكريم.

[3] عراب: خيل كريمة، أو إبل كرائم

[4] ديوان المتنبي: شرح البرقوقي، دار الكتاب العربي بيروت.لبنان .1980 م.ج4، ص421.

[5] القبائل العربية الموجودة في الشرق الجزائري التي احتمى بها عنان بن جابر.

[6] العشي: وقت العشاء. وهي العتمة بين المغرب والعشاء: العشاءان: المغرب والعشاء، والمعنى: أن من قصدهم الشاعر كرماء، لا يتيه ولا يضيع من يقصدهم. (أناس فيهم إباء وقوة ونصرة).

في صراحة الفارس المقدام، يبين أنه اتخذ هذا الموقف لأنه أملاه عليه ضميره، فلجأ إلى قومه في الحضنة بالجزائر فاحتضنته هذه القبائل التي لا تعرف الضيم ولا الذل.

في أسلوب عربي فصيح متخير الألفاظ والكلمات محكم التعابير والتراكيب، فكون ذلك كله هذا النسيج الفني في فكرة الرجولة والفحولة والكرامة والسؤدد.

ليختم حديثه إلى ابن أبي الحسين (وهو كاتب (العلامة السلطانية) عند المستنصر الحفصي آنذاك)، وقد أظهر من الحكم التي تستحق أن تردد في كل زمان ومكان قوله:

وفي الأرض أوطان ومأوى ومسرح   وفي الناس من يرجى لدفع الضرائر
وسيفي ورمحي واعتزائي وســابقي   ودرعي وقومي كالأسود الهزابر
وعز يصون النفس عن طارق الأذى   ويحمي الفتى عن جور باد وحاضر

يستمر عنان بن جابر في صياغة أفكاره ومعانيه بهذه الرقة في اللغة والألفاظ وفي تخير الأسلوب السهل الذي ينساب كخرير الماء ليقرر في هذا البناء المتلاحم بين الكلمات والألفاظ وحسن التراكيب، ليمجد نفسه وقومه أهل العزة والذود عن الشرف في البوادي والحواضر. ومهما كان أسلوب الشاعرين يميل إلى تقليد القدماء في أوصافهم أو تراكيبهم، فإنهما قد صنعا للقارئ شعرا مؤثرا فيه إشادة بالقيم الإنسانية والإسلامية والفروسية وبالعز والشرف، مبعدين عنهما الضيم والظلم مهما كان مصدرهما فالشاعران في قصيدتيهما جددا لنا روح القصيدة العربية في بناء محكم العبارة والتراكيب.
ولو حذف الشاعران بعض ألفاظهما الثقيلة لقلنا هذا أسلوب حديث.
- ويقول حازم في قصدته الكافية التي عارضها التجاني[1]. فأصبحت بناء يحتذى حذوه، وينسج على غراره.

وهي قوله: في مقدمة غزلية يخرج بعدها إلى مدح الخليفة الحفصي[2]

لم تدر إذ سألتك ما أسلاكها   أبكتْ أسىً أم قطعت أسلاكها
فغدت سوالفها تحلَّى لؤلؤا   من أدمع لم تستطع إمساكَها
أفلتن أشراكي، غداة رميتها   وعلقتُ حين رَمَيْنني أشراكها

فهذا المطلع أفاض فيه النقاد وامتدحوه، لأن حازما هنا يطرح قضية شائكة على المحب الذي يسلو، وهل يسلو محب حبيبه؟ فاختلط الأمر عليه حين مباغتته بسؤالها هل بكت وجدا وصبابة لحالها، أم أن الدموع

---

[1] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص 176 – يا ساحر الألحاظ يا فتاكها   فتوى جواز الصد من أفتاكها

[2] القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص 176 .

التي ذرفتها حبات عقد تناثرت على صدرها؟ وهي وإن تبادر بهذا السؤال، فإنما تستدعي أشجانها وسواكن نفسها فتتفجر باكية بدمع منهمر غير قادرة على حبسه.

وحازم في هذه القصيدة يقدم لنا صورة في غاية الجودة والتأثير فيها من التقرير والتلميح الفني والترميز، ما يجعلك تردد البيت وتعيد قراءته، لحسن تعبيره، وجمال صورته، وبراعة أسلوبه.

يقول ابن الخلوف القسنطيني:

لشاهد الدمع بالتجريح تعديل وما لجفني لحُلْوِ النوم تعسيل

يبين الشاعر شوقه وحنينه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم وأنه لم يذق طعم النوم، فقد أرقه بعده، وأرقه حبه، ومزاره ثم يخلص في هذه القصيدة على عادة القدماء إلى مدح الرسول صلى الله عليه وسلم مقررا أنه لن يتطاول على مدح خير البرية وقد مدحه القرآن وذكره الإنجيل لكنه تلطف منه وخضوع... وقد اعترف الشاعر بعجزه فنيا فقد سبقه كعب بن زهير في بردته ومدحهٍ للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فمن أين له أن يبدأ.

وبرغم هذا الاعتراف بالضعف والعجز عن بلوغ مأربه ومرامه... إلا أنه يقرر أن يدلي بدلوه في مدح خير الأنام عليه الصلاة والسلام، مستعينا بمعاني كعب وبأفكاره، وبلغته وأسلوبه عله يبين عما بنفسه من شوق وحنين أرغمه على قول الشعر فيبادر:

ولاح لي من معاني كعب صورتها كعبٌ سعيــدٌ على الأعناقِ محمولُ
وكــم لكعبٍ يــد بيضَــاءَ سابقــةٍ لَنَـــا بها في بيوت المدح تنقيــلُ[1]

وبعد أن يبحر الشاعر ويطيل في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم معددا معجزاته وبراهينه يقرر

أليس مدحُك وافى في النِّساءِ وفي آَيِ القتال، وفي حمِّ تنزيلُ

وهو يشير إلى قوله تعالى[2]: ﴿**أُذن للذين يُقاتَلُون بأنَّهُم ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ على نصرِهم لقَدِير**﴾

إذا كان الأمر كذلك، مهما بلغت أمداحي فلن تبلغ ذلك. غير أنني أتخذها وسيلة وتقربا إلى الله عز وجل.

وقد استعمل الشاعر في هذه القصيدة الطويلة، أسلوبا تقريريا متكئا في لغته وصوره على التراث القديم، وعلى القرآن والسنة النبوية الشريفة.

---

[1] يقصد كعب ابن زهير ولاميته الشهيرة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم ومطلعها :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يُفْدَ مكبول.

[2] الحج. آية 39.

- ومما يؤخذ على قصيدة المدح النبوي: ميلها إلى النظم وخلوها من العاطفة التي تؤجج المشاعر وتحركها.(كما في مطولات ابن الخلوف وغيره).
- كما تميل القصيدة المولدية في العهد الحفصي إلى البساطة والاقتباس الكثير والإشارة إلى الحوادث الدينية والتاريخية التي يصعب على القارئ أن يلم بها جميعا ومن عادة ابن الخلوف القسنطيني في قصيدة المدح النبوي أن يعرج في آخر القصيدة على الموضوع الثانوي فيمدح الخليفة ويدعو له وللإسلام والمسلمين أو يدعو لنفسه وقد أجاد في حسن تخلصه إلى الغرض الثانوي بقوله[1]:

[الطويل]

وكـــن لأميـــر المؤمنيـــن الذي حمى ... لنا الدين بالهنديِّ والصَّعدة السَّمرا
وكـــن غَوْثَـــهُ يـــوم المعـــادِ ونجِّـــهِ ... من النار وارفعْ في الجِنَانِ له قدرَا
وكـــن شافعاً في ابن الخلـــوف بجاهـــك ... العظيم الذي أعددتـــه لغدٍ ذخراَ
فـــأنت شفيـــعُ المـــذنبـــِيـــنَ إذْ دعَـــوْا ... لعَرْضِ حسابٍ هوله يقصِمُ الظَّهراَ

فهو يدعو لأميره ولنفسه بالنجاة والظفر بالجنة ثم يجعل من الرسول الكريم صلوات الله عليه شفيعا للمذنبين من أمته يوم الحساب فمشاعره في هذه القصيدة وعواطفه هي عواطف الخوف والرجاء ولكن هذه العواطف لم يلبسها الشاعر لباس التأثير من الألفاظ المنتقاة والتراكيب الجميلة. ولذلك جاء أسلوبه بسيطا خاليا من الحلي الفنية، والصور البلاغية، والأخيلة البعيدة. لذلك جاء أسلوبه تقريريا داعيا وواعظا في شعر خلت منه لذة التأثير ومتعة التذوق، فهو أقرب إلى الناظم منه إلى الشاعر.

فهو أقرب إلى الناظم منه إلى الشاعر.

القصيدة الحفصية وبحور الشعر

عندما اخترت هذه القصائد الشعرية للدراسة الفنية، لم يكن في ذهني اختيارها على أساس من الوزن أو البحر الذي نسجت عليه هذه القصائد، اعتقادا مني أن علاقة الوزن بالغرض الشعري أمر لم يحسمه النقاد والعروضيون حتى الآن.

وإن كانت الآراء تجمع على أن العلاقة موجودة على هذه الصورة التي أشار إليها النقاد.

---

[1] ابن الخلوف، شهاب الدين، ديوان جني الجنتين مدح خير الفرقتين، تحقيق وتعليق.العربي دحو.نشر اتحاد الكتاب الجزائريين. ط 2004 ص313، والقصيدة طويلة بها أكثر من (250) مائتين وخمسين بيتا.

أما البحور الشعرية[1] في القصيدة الحفصية فوجدتها مرتبة بحسب كثرة تناولها عند الشعراء حسب الترتيب:

1) البحر الطويل22 مرة.[2]
2) الكامل 20مرة.
3) البسيط 19 مرة.
4) الوافر 8 مرات.
5) المتقارب02 مرتان. [3]
6) السريع 01 مرة واحدة.
7) مجزوء الرمل 01 مرة واحدة.
8) الرجز 01 مرة واحدة.
9) المديد 01 مرة واحدة. [4]

من يلاحظ هذا الجدول يتبادر إلى ذهنه أن شعراء الدولة الحفصية كانوا أوفياء للتراث القديم في الشعر سواء في الأغراض، مع تغير بسيط في الاهتمام بموضوعات جديدة: كرثاء الأماكن، والحنين إلى الأوطان، والمولديات التي كان لشعراء الدولة الحفصية، فضل التأسيس والتقنين لها ونشرها في المغرب عامة وفي الأندلس والمشرق بما قدموا من أشعار رائقة.

أما في الأوزان فقد نسجوا قصائدهم على البحور الصافية كما يسميها العروضيون[5]

ونسجوا على بحور متوسطة ونسجوا على بحر مهجور هو المديد.

غير أن الملفت للنظر هو غياب أحد البحور الصافية كالخفيف من الأشعار التي أوردناها.

ولكنه بحر لم يغب عن شعراء الدولة الحفصية في موضوعات وأغراض أخرى فهو موجود بكثرة عندهم.

---

[1] البحور الشعرية كما يراها حازم هي: **الطويل، والبسيط، والمديد**، والوافر، والكامل، **والرجز، والرمل، والهزج**، والمنسرح، والمضارع، والخفيف، والسريع، والمتقارب، والمقتضب، والمجتث، وإن كان المقتضب والمجتث ليس لهما تلكم الشهرة في كلامهم. المنهاج، 243.

[2] يقول عنه العروضيون: يلقي بظله على ثلث الشعر العربي القديم. وهذا البحر مع البسيط: يمثلان الجلال والرصانة، والعمق، ويصلحلن للعرض القصصي، والملاحم، والحكايات القديمة كالأساطير.

[3] المتقارب **فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن فعولن** نادر في الشعر العربي ويدعوا ابراهيم أنيس إلى تركه.

[4] يقول عنه الخليل بن أحمد الفراهيدي، سمي بذلك لتمدد سباعيه حول خماسيه، أي أنه يتكون من تفعيلتين مكررتين أربع مرات هما:

فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن فاعلاتن فاعلن «مجزوءا وجوبا»

[5] صابر عبد الدايم، نظر موسيقى الشعر، ص113.

وإذا ما تتبعنا هذا الجدول وجدنا شعراء الدولة الحفصية كأمثالهم من القدماء يقرضون أشعارهم على هذه البحور الصافية.

ولعلة ما تأتي هذه البحور مناسبة لأغراض شعرية محددة، ولا تأتي في غيرها، وقد أشار إلى هذه الظاهرة الفنية كثير من النقاد ومنهم حازم القرطاجني، شاعر الدولة الحفصية وناقدها الكبير، إذ يرى رأيا سديدا في البحور الشعرية وأوزانها والأصيل منها إذ يقول[1]:

«ولنقل الآن مقالا مختصرا في تعديد التركيبات والأبنية الوزنية التي يصوغ أهل النظم في هذا الزمان الكلام عليها...

مما ثبت وضعه عن العرب وما لم يثبت، وما شك في ثباته.

فنقول:

أن الأوزان الشعرية منها ما تركب من أجزاء خماسية ومنها ما تركب من أجزاء سباعية، ومنها ما تركب من أجزاء تساعية...»

القافية:[2]

لقد بحث العروضيون في القافية وأتوا على كل صغيرة وكبيرة فيها والذي أريد أن أشير إليه في هذا المضمار هو دور القافية في الشعر الحفصي، ومدى التزام الشعراء بقيود النقاد والعروضيين في ميدان الوزن، فهل كان الشعراء الحفصيون ينسجون على منوال القدماء في البحور وفي القوافي؟ وهل عيوب القافية فيما وجدناه، في أشعارهم من العيوب التي تحصل لكل شاعر مهما أوتي من قوة البيان ودراية بالأوزان والقوافي؟

لقد وجدت الشعر الحفصي. (في معظمه) أنه قد نسج على البحور المشهورة بالفخامة والجزالة كالطويل، البسيط، والكامل والوافر. لأنها تتناسب مع المضامين التي تصدت لها القصيدة الحفصية. من رثاء، ومدح، وفخر، وحنين إلى الأوطان، وإخوانيات ومولديات.

أما باقي البحور الخاصة: الرجز، الرمل، المنسرح، المتدارك، المتقارب والخفيف فقد وجدت للشعراء بعض القصائد: بعضها في الوصف وبعضها الآخر في الغزل أو الحكمة، وفي بعض أشعار المناسبات، التي لا تحتاج إلى تجربة عميقة ومعاناة نفسية، لأنها تجارب أملتها ظروف طارئة وتجارب عابرة لذلك عبر الشعر عنها بهذه الأوزان التي توصف (بالنزقة) أو غير الوقورة.

وقد أشار علماء الشعر إلى ذلك، ورتبوا هذه البحور بحسب عظمتها وقوتها فكان منها الجليل المهاب وبعضها بسيط يقترب من لغة الحديث من حيث بناؤها وتشكيلها كبحر الرجز والخبب.

---

[1] القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966م. ص 227.

[2] القافية في العروض والأدب، د. حسين نصار، دار المعارف، مصر. ص17.

القافية في القصيدة الحفصية:

لاحظت أن معظم قصائد الشعر في ظل الدولة الحفصية التي اخترتها للدراسة. كانت قافيتها مطلقة وما جاء منها مقيدا فهو قليل، شأنه شأن الشعر العربي عامة.

والقافية المطلقة مقسمة إلى ثلاثة أنماط هي:

- القافية المردوفة: [1]

هذا الردف له دوره المميز في إيقاعية القافية، حيث تبدو القافية أكثر جرْسا وإيقاعا. وخاصة في القصائد ذات الروي كالهمزة والهاء وغيرهما.

القافية المطلقة المؤسسة[2]:

1- وهي القافية الموصولة بهاء متحركة.
2- موصولة بحرف لين.
3- موصولة بهاء السكت.

القافية المطلقة المجردة

وهي الخالية من الروي والتأسيس.

وهذه القوافي تعتبر في نظر العروضيين أقل شأنا من أخواتها المردوفةالمؤسسة.

عيوب القافية:

لقد تبين لي أن القصيدة الحفصية لا تخلو من عيوب القافية شأنها شأن القصيدة العربية ومن هذه العيوب التي حصرتها:

السِّـــنَـــاد[3]:

وهو من عيوب القافية، يعني: اختلاف حركة الروي من قافية إلى أخرى أو هو: اختلاف حركة الدخيل(الإشباع) أو هو اختلاف حرف اللين (حرف الردف) أو سناد الحذور[4].

وهويمثل خللا في التماثل الصوتي.

الإكفـــاء:

وهو انتقال من روي إلى آخر، نتيجة التباس في مخارج الحروف كقصيدة الحنين إلى الأوطان.

في قول ابن الأبار :

---

[1] المسبوقة بحرف لين(أ، و، ي)

[2] مثل قافية تنتهي بقولنا: كواكبها. أي ذات الروي المبوق بألف التأسيس، والذي يفصل بينهما حرف دخيل وكان الروي موصولا بهاء متحركة.

[3] السناد: هو اختلاف الأرداف. انظر القافية في العروض والأدب، حسن نصار، ص 99، وقيل: هو اختلاف حركة الروي(المجرى) بالفتح.

[4] مثل: وقورِ، صغير، كبارِ.

فكم لقينا على الأمصار من فَنَدٍ   وكم تركنا لدى الكفار من فنــدِ
واهًا وآهًا يموت الصبر بينهمَا   مرَّت المحامِدُ بين البخلِ والجُبُن

فالقافية فيها الإكفاء، في حرف الروي.

لقد حاولت في هذه الدراسة أن أتتبع كل القصائد التي اخترتها للدراسة التطبيقية وما طرأ عليها من عيوب القافية فكانت هذه الملاحظات.

1) تكرار القافية قبل البيت السابع في قصيدة الهواري:

يقول: جفــا أو مــال أو مَلَّ أو سَــلاَ   أو حال عن الإخلاص أو نسيَّ الــوُدَّا
لقد ضيعَ الأصحاب عهدي ولا نَــوَى   وأنت بظهــر الغيب تحفظ لي الــوُدَّا

2) وفي قصيدة ابن سعيد يوصي ابنه: (من السريع) فالقاية: مكسوفة مطوية:

أُودِعُكَ الرحمنَ في غربتكْ   مُرتقباً رُحمــاهُ في أوْبَتكْ

3) خطأ في القافية [في حركة الروي، مرة مكسورة ومرة مفتوحة] من قصيدة حازم في صاديته المشهورة.

4) وفي قصية المدح عند حازم[1] لم يلتزم الشاعر حركة الروي وهي واجبة الالتزام.

5) خطأ في القافية (سناد الردف):

لبست ثيابه عزا إلى أن   تحدّرتْ الرُّجوم من النُّجوم
فنهر كالسَّجنجل قد تراءت   على شطَّيه جنَّات النعيم

6) خطأ في القافية (سناد المجرى)

فيا حسن ذاك القصر لازال آهلا   ويــا طيب ويــا نشره المتنشَّق

رتعنا به في روضة الأنس بعدما   هصرنا به، غصن المسرة مورق

7) وفي قصيدة الزهد لابن الغماز قوله:

تَقَضَّى الزَّمَانُ ولا مطمعٌ   لِمَا قَدْ مَضَى منه أَنْ يَرْجعَا

خطأ في القافية (تغير حركة الدخيل) أثر على النغم الموسيقي للقافية.

8) وفي قصيدة ابن الأبار[1]

---

[1] القرطاجني، الديوان، ص 87.

بفتح «رباط الفتح» ترتبط المنـــى ويحظى بها من بات نار الوغى يحظـى
وأجدر «بفاس» أن تراجع رشدها وقد رحضت «مراكش» غيها رحضـــا

خطأ في القافية خلط الشاعر بين حرفي الروي(ض، ظ).

هذه بعض عيوب القافية في القصيدة الحفصية وهي بسيطة لا تخدش في جمال القصيدة ولا تنقص من قيمتها الفنية، بل أن مثل هذه الأخطاء لاتخلو منها قصائد الشعراء الكبار في القديم والحديث.

وفي رأيي أن هذه القوافي مع البحور التي نسجت عليها هذه القصائد تشكل في النهاية إيقاعا شعريا منسابا فيما بينها.

الموسيقى:

لا أريد في هذا المقام أن أتتبع آراء النقاد والعروضيين في هذا الباب، ولكنني سأوجز الحديث عن دور الوزن الخارجي في القصيدة الحفصية وأنواع البحور الشعرية التي كانت شائعة في قصائدهم التي اخترناها للدراسة التطبيقية ولماذا تظهر هذه الأوزان وتختفي عند شعراء آخرين؟ وهل العلاقة بين الوزن والموضوع ثابتة عندالنقاد،لا يعاد فيها النظر أم الثابت عندهم هو نظمهم للشعر على بحور معلومة، إذا كانوا في حالات نفسية تستدعي ذلك كالفرح والغضب والفخر والحزن والنصر، وما إلى ذلك...

ثم نربط الحديث بين الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية للقصيدة.

الموسيقى الداخلية:

يختلف الدارسون للقصيدة العربية من حيث الموسيقى. في تحديد الموسيقى الداخلية تحديدا يتلمسه القارئ بسهولة ويسر، وإنما مدار الحديث حول هذه الموسيقى الحسية والثابتة والمتغيرة، والموسيقى الفكرية واللغوية في القصيدة.

وعندما لم يتم الاتفاق حول مفهوم وتحديد المصطلح مال النقاد إلى أن الموسيقى الداخلية يمكن أن تلاحظ ويمسك بها القارئ إذا اعتمد في تقديره على ما يلي:

أن من مظاهر هذه الموسيقى:

في الحروف والألفاظ والتراكيب التي تحيل القارئ إلى نوع من التأثير الداخلي، يتجسد في النغم والنبض الموسيقى للقصيدة عندما يكتمل بناؤها.

وبعد:

فإن هذا المجال يحتاج إلى نفس ذواقة في الشعر حتى تلمس ذلك الجمال الذي يُرَّد مرة إلى الوزن الخارجي ومرة إلى أجزاء هذا الوزن كالقافية، وفي بعض الأحيان إلى أثر داخلي لدلالة الكلمة وتطور معناها عبر الزمن فإنها وحدها تحدث ذلك الرنين الموسيقي في نفس القارئ وإذا تطور معناها وتبدل فقد

---

[1] القرطاجني، الديوان، ص 348.

لا تعني لنا شيئا. ولهذا نرى أن الموسيقى الداخلية هي إدراك وجداني نفسي لغوي كإدراك الصورة البلاغية تماما.

ويرى الأستاذ صابر عبد الدايم[1] في الإحساس بالموسيقى ودورها الجمالي في الشعر أن:

هناك ثلاثة مجالات يتم من خلالها تكوين الإحساس الجمالي للفن الموسيقي وهو الاستقبال عن طريق فهم القوالب الموسيقية، والاستقبال عن طريق التخيل والاستنباط ثم الاستقبال عن طريق العاطفة. أي أن اللحن يثير في حواسنا إمكانية الإحساس بالشكل والقدرة على إطلاق الخيال ثم الانفعال العاطفي وتكتمل هذه العناصر الثلاثة عن طريق العقل بتشكيل يجعل من الاستقبال الفني مجالا للاستمتاع الجمالي.

ويرى علماء النفس في تفسير ظاهرة حبنا للكلام الموزون المقفى والجميل أن هناك موهبة تسمى الموهبة الموسيقية ويرون أننا نختلف في القدرة على خلق الوزن فيما نسمع، ويضربون في ذلك مثلا لهذه الظاهرة:

بميل بعضنا إلى تكتيل دقات الساعة أو حركات لقطار فوق القضبان، بحيث يكون هذا البعض من تلك الأصوات نغما منسجما.

بل يرون أن هذا النوع من الناس قادر على تكوين النغم في خياله دون نطق به أو سماع له، فكأن هاتفا خفيا يصيح بتلك الأنغام على مخيلتهم فتكون نغما موسيقيا قبل أن تصبح مسموعة مجهورة.

ولذلك لابد لسامعي الشعر أن يكتل من مقاطعه حتى يسمعها موزونة مقفاة منسجمة[2].

ويرى الأستاذ صابر عبد الدايم: أن الموسيقى الداخلية التي تأسرنا وتشدنا إليها هي:

- الإيقاع الداخلي الذي تحسه ولا تراه.
- القيم الصوتية في النص الشعري.
- وظاهرة الصوت وانخفاضه أثناء الإنشاد

وللأصوات أثر في الشعر، فمنها المجهورة وهي ثلاثة عشر:

«ب-ج-د-ذ-ر-ز-ض-ظ-ع-غ-ل-م-ن».

ويضاف إليها أصوات اللين (أ، و، ي).

أما الصوت المهموس، فهو الذي يهتز معه الوتران الصوتيان. وهي اثنا عشر:

«ت-ث-ح-خ-س-ش-ص-ط-ف-ق-ك-هـ»

ويعلق الأستاذ/ إبراهيم أنيس على هذه الأصوات بقوله:

إن نسبة شيوع الأصوات المهموسة في الكلام لا تكاد تزيد على خمس المائة. في حين أربعة أخماس الكلام من الأصوات مجهورة[3].

---

1 صابر عبد الدايم، موسيقى الشعر بين الثبات والتطور، ص 12.

2 صابر عبد الدايم، موسيقى الشعر بين الثبات والتطور، ص27.

3 أنيس إبراهيم، موسيقى الشعر، ص32.

والموسيقى الداخلية فيها ماهو فكري معنوي يدرك من خلال النص الشعري الذي تتزاحم فيه المعاني، في شكل متواتر، تنشأ عنه نغم يطرب القارئ ويمتعه، وتلك هي بعض علامات الموسيقى الداخلية، التي يمسك بها القارئ المتذوق للفن، وللكلام الجميل وقد لا يحس بهذه الموسيقى ولا يدركها من قلَّت ثقافته وفسد ذوقه. مكتفيا بالأثر الخارجي المحسوس.

<u>**أبعاد العلاقة بين الموسيقى والشعر:**</u>

إن الطبيعة هي الأم الرؤوم لكل الفنون تتكامل فيها الحركة المرئية والحركة السمعية (اللون والصوت) وكافة الظواهر الأخرى، ولذلك عندما يحصل هذا الاتحاد بين الإنسان والطبيعة تتكامل فيه عناصر الحياة، ولذلك يتمكن الإنسان من الرؤية وهو كفيف ومن السمع وهو أخرس أصم، وهذا مصداقا لقوله تعالى: ﴿**فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾[1] وقوله: ﴿ **الله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون**﴾[2].

فالعمى للبصر.

والعمه للبصيرة.

وإذا اختل أحدهما عند الإنسان لم يكن اتحاده بالطبيعة اتحادا تاما.

ولذلك فهو لا يرى كما يرى الموهوبون والعباقرة لجزئيات الأشياء ودقائقها، وفي هذا المعنى يقول كارلايل[3]: إذا تأملت الشيء ونظرت إليه بعمق وتفحصته فإنك حتما ستستمتع بموسيقيته لأن النغم يكمن في قلب طبيعة الأشياء.

إن الاستمتاع بمنظر طبيعي تصاحبه أصوات من الطبيعة كحفيف الشجر وأصوات الطيور وخرير الماء ...إلخ.

ومن أجمل ما قيل في الموسيقى وتأثير النغم على النفس قول الإمام الغزالي[4]:« أنه لا سبيل إلى استثارة خفايا القلوب إلا بقوادح السماع، ولا منفذ إليها إلا من دهليز الأسماع، فالنغمات الموزونة تخرج ما فيها ، وتظهر محاسنها أو مساويها، فلا يظهر من القلب عند التحريك إلا ما يحويه، كما لا يرشح الإناء إلا بما فيه، فالسماع للقلب محك صادق ومعيار ناطق، فلا يصل نفس السماع إليه ولا قد تحرك فيه ما هو الغالب عليه.»

ويؤكد الإمام الغزالي على أن العلاقة بين النغم والروح هي سر من أسرار الإله يعجز عن تفسيره البشر.

---

[1] الحج، آية 46.

[2] البقرة، آية 15.

[3] موسيقى الشعر العربي صابر عبد الدايم، ص 15.

[4] يوسف السيسي: عالم المعرفة، ص ص (45، 46).

الخاتمة

الخاتمة

وبعد هذه الرحلة مع نصوص وأخبار هذا العصر الثري بشعره وشعرائه يمكن أن نوجز أهم النتائج التي توصل إليها هذا البحث.

1- الأغراض الشعرية: لاحظنا من خلال تتبعنا للمسار الشعري في ظل الدولة الحفصية أن الأغراض الشعرية لهذا العهد قد اتسمت بمجموعة من السمات يمكن إيجاز خصائصها الفنية فيما يلي:

في غرض الحنين إلى الأوطان:

سبب ظهور هذا اللون الشعري هو: الاغتراب المكاني الذي لازم حياة الإنسان المغربي منذ أن ذهب إلى الأندلس ثم خرج منها وحاول أن يستقر في المغرب العربي –وفي الدولة الحفصية خاصة- ولكن الرحيل الاجباري ظل يلازمه حيثما حلَّ.

ولهذا نجد نزعة الإحساس بالاقتلاع المكاني تطل علينا من معظم أشعاره. حتى غدا لونا متميزا في المغرب والأندلس. أي صار ظاهرة فنية يعرف بها الشعر الحفصي.

في غرض المولديات:

نتيجة: إحساس المغربي بعدم الأمان، والخوف من المجهول نظرا للمخاطر التي تحيط به، بدءً بالعدو الأجنبي المرابط على حدوده وانعدام ملجأ يلجأ إليه....

فكان هذا المناخ دافعا للشعراء للبحث عن المخلص والمنقذ، فكان (الرسول صلى الله عليه وسلم)، الذي تحلقوا حوله لاستمداد القوة لمواجهة واقعهم المرير.

ولذلك فإن بدايات هذا الشعر المولدي المغربي تنم عن روح ثورية رافضة للواقع الذي فرض على الإنسان المغربي.

في غرض الغزل:

1- تميزت القصيدة الغزلية في عمومها بالعفة وبعدها عن المجون إلا فيما ندر.

2- إعراض الإنسان المغربي عن البوح بمشاعره. نظرا لاعتقاده أن ذلك يحط من قدره.

فهو رجل قادر على كبح مشاعره والتحكم فيها. وهذا ليس معناه أنه خاوي القلب أو عديم الإحساس.

3- والقصيدة الغزلية المغربية-الحفصية- نشعر بأنها تفتقر إلى الأصالة، لأن الشاعر لا يقولها تعبيرا عن مشاعره وعواطفه وإنما يقولها مجاراة للشعراء القدامى.

ولهذا وجدنا قصائده مثقلة بالتضمين والمعارضات الكثيرة التي تذهب معالم شخصية الشاعر الحقيقية وتبديها باهتة.

في غرض الوصف:

شعر الوصف في ظل الدولة الحفصية لا يكاد يمايز عن غيره من الشعر العربي في المشرق والأندلس، فهو يحمل الخصائص نفسها التي يحملها هذا الشعر. أي أنه شعر بصري، يقوم على مبدإ تجميع عناصر المشهد، دون استنطاقها. أي أنه شعر استعراضي تتحكم فيه عناصر الموقف.

غير أن بعض القصائد التي كتبها الشعراء المهاجرين إلى بجاية وتونس. أضفت على هذا اللون من شعر الطبيعة مسحة مميزة تتجلى في دقة تصويرها وتناغم مشاهدها وتنوعها، وطرافة خيالها، وحسن سبكها.

إن شعر الوصف كما هو معلوم يتسم بالموضوعية. أي أن الشاعر لا يكاد يلمح خلال قصائده. غير أن الشاعر المغربي – الحفصي- استطاع أن يسقط ذاته في أشعاره الوصفية، فبدت قصائده لينة لم تحمله من مشاعر وخواطر ومخاوف قائلها، أي نستطيع أن نتلمس موقف الشاعر مما يصف.

كما أضفى على قصيدة الوصف عنصرا هاما هو الخيال وابتكار الصور وإخراجها في ثوب قشيب.

- § في اللغة: كانت لغة قصيدة الوصف متميزة بالرقة وبالسلاسة كما في قصائد الغزل.
- § في الأسلوب: حافظت القصيدة الحفصية على الأسلوب الصافي ولم تتأثر بموجة عصر الضعف والانحدار.
- § في الموسيقى: لقد سار شعراء الدولة الحفصية على منوال القدامى في تخير الأوزان المناسبة والموسيقى التي طبعت شعر الوصف بطابع خاص مميز.

فالنغمات التي تتكرر بشكل ملفت للنظر، وبنسق معين، ينشأ عنها الإيقاع، جعلت قصيدة الوصف تساير حركة التطور التي عرفتها الأندلس من قبل.

2- أهم الخصائص الفنية في القصيدة الحفصية (في المبنى والمعنى)

الصورة البلاغية :

1- كانت الصورة تقليدية تراثية في منبعها ومثالها لا شيء تميز به شعراء الدولة غير تجويد هذه الصورة في قالبها الفني والجمالي مع ربطها بأخية بارعة.

2- وفاء شعراء الدولة الحفصية إلى الصورة النمطية في تشبيهاتهم بشكل واضح (في علمي البيان والمعاني).

المطلع والمقطع في قصيدة الغزل العذري والمولديات في الشعر الحفصي:

في الشعر النبوي والغزلي والصوفي هناك خيط رفيع يجمع هذه الأغراض الشعرية في الحب المشترك بينها جميعا، ثم في اللغة التي تختار بعناية ودقة لتدل على المحبوب الذي لا مثل له، بل هو المثل والنموذج، فكل كلام قد لا يصل إلى نقل تلك المشاعر الدافقة وذلك الحب الغامر في جميع هذه الموضوعات حتى إن اللغة تكاد تقصر عن نقل تلك الانفعالات والتجليات الروحية، والنفسية... وعندها

يصطنع الشاعر من فنه الراقي ومن إحساسه وعواطفه الجارفة لينقل تلك المشاعر التي قد تعجز عن نقلها تلك الحيل الفنية والأقنعة التي يمتلكها من لغة ومن وزن ومن إحساس داخلي يضفي على الموضوع تلك المهابة وذلك السحر الأخَّاذ، فنعجب به أيما إعجاب ونطرب لهذا الفن المتميز في نقل الأحاسيس الإنسانية تجاه موضوع من أغنى مواضيع الشعر ألا وهو شعر الحب والوجدان الخالص...
ومن خصائص القصيدة المولدية في ظل الدولة الحفصية

- الإحساس بالعجز والضعف في نقل العواطف والمشاعر.
- الإحساس بالمرارة لبعد المسافة وضيق الحال،، وعثرات الزمان.

يلتقي شاعر الحب مع شاعر المدح النبوي، وتجليات الشعر الصوفي.

- إن الإحساس بالغبن، وبالهوان والضعف جعل الشعراء يلجأون إلى هذا الشعر للتعبير عن أحلامهم وآمالهم.

- كما اتخذوا من مفاهيم الشعر الصوفي،، في خلوته وتوحده وحبه لله، وابتعاده عن ملذات الدنيا والإتحاد بالذات الإلهية،، متخذين من العبادة محرابًا تتطهَّرُ فيه النفس مما علق بها من أدران، حتى تبلغ درجة التوحد،، ودرجة العبودية والكمال، وتصبح نفسًا مسيرة، نفسا خيّرة، بعيدة عن النفس الأولى التي تأتي الخير وتأتي الشر... وعندها تنكشف لهم عوالم الغيب المحجوبة ويصبحون جزءا من الحقيقة الكبرى...

وخلاصة رأيهم في المعرفة:

أن المعرفة الحقيقية هي ما كانت عن طريق الأنوار الإلهية، أما غيرها من العلم والمعرفة، فقاصرة عن بلوغ الحقيقة؟!

- هذه التجليات الصوفية قد أثَّرَت بشكل من الأشكال في الشعر المولدي، ولوَّنَتْهُ بكثير من تلك التجليات الروحية، واللغوية.

القصيدة الحفصية وعصر الضعف: فيما يسمى بعصر الضعف والانحدار كان الأمر عند شعراء الدولة الحفصية، مخالفا لما عند غيرهم فقد استمر الحال عندهم من امن وأمان، وقصد هذه الدولة ألمع الشعراء والأدباء من الأندلس وغيرها.

مما جعل حالة الأدب تعيش فترة ازدهار وتطور وكأننا لم نتأثر بالصدمات التي صدمت الأمة في بغداد، وفي بلنسية وغيرهما، وهذا الضعف العسكري، سيتبعه ضعف وانهيار سياسي وأدبي، ولكن إلى حين من الزمن.

- إذا كانت منطقة المغرب العربي قد شهدت نهضة أدبية في زمن نكسة وخراب القيروان،، تلكم الحادثة التي تعتبر بؤرة الأحداث في المغرب العربي حيث سجل الشعر تلك الحادثة بأحسن ما يكون الحال بفضل شاعرين عاصرا حادثة خراب القيروان هما:

1- ابن رشيق المسيلي الجزائري.

2- محمد بن شرف القيرواني.

واعتقد أن بكاء القيروان من هذين الشاعرين قد كان لهما فيه السبق على شعراء الأندلس، وبكائهم على المدن التي بدأت تسقط هناك.

غير أن تأصيل ذلك وكثرته، قد شاع فيما بعد، عند الأندلسيين، وعند شعراء الدولة الحفصية الذين نقلوا لنا أحزانهم وآلامهم على خراب مدنهم وسقوطها بأيدي النصارى مثل بلنسية وغيرها.

- أن الشعر في هذه الفترة من حياة الدولة الحفصية كان يمثل بحق جميع الحيوات التي عرفتها هذه الدولة من بدايتها إلى نهايتها على يد الإسبان.
- كثرة الشعر والشعراء في هذه الفترة حتى أن الغبريني[1] قد ترجم لأكثر من سبعمائة عالم وأديب، مع أنه صرف النظر عن المتوسط من الشعراء، مما يشير إلى ازدهار الأدب والشعر خاصة في هذه الفترة.
- وذلك فإن الشعر الغزلي يعد قليلا بالنسبة التي أشار إليها الغبريني ولعل السبب يعود إلى العادات والتقاليد، وعدم بوح الشعراء بمشاعرهم لأن ذلك يعتبر "عدم رجولة" وحتى الغزل الذي جمعناه لبعض الشعراء، فهو غزل عفيف في أغلبه، بعيد عن كل غواية أو مجون إلا في القليل النادر.

وفي قصيدة "المدح": لاحظت:

- كثرة هذا الغرض، وبخاصة عند الشعراء الوافدين على الدولة الحفصية بل إن عبد الرحمن بن خلدون، سنراه يتكلف الشعر عند إنجاز كتابه «الضخم» العبر ومقدمته اللامعة بقصيدة في مدح الخليفة الحفصي (أبو العباس أحمد 772- 796هـ) حتى لا يقال عنه، إنه استنكف أن يمدح خليفته. ومن المعاني التي شاعت نوجزأهمها في الآتي:

أ- التغني بالأمجاد الإسلامية.

ب- الدعوة إلى الجهاد.

جـ- الفخر بالنسب إلى البيت الهاشمي، كما هي الحال مع: الأمراء الحفصيين.

د- الإشادة بالخلفاء والسلاطين ووصفهم بأوصاف الصحابة، والسابقين من المسلمين في الشجاعة، والتقوى، والعدل، والعلم، والغيرة على بيضة الإسلام وأهله

الرثاء:

بقي فن الرثاء كما هو عند القدماء صادقا بل أصدق الأغراض في التعبير عن الأحاسيس والمشاعر:

---

[1] الغبريني، عنوان الدراية، ص 36.

- العاطفة الحزينة.
- التأسي والاعتبار بالأمم السابقة.
- التحلي بالصبر والتجلد أمام المحن.
- كما تتجلى في هذا الغرض الصفات الحميدة التي يعددها الشاعر في قصائده ويدعو إلى التعلق بها لأنها من أفكاره ومعتقداته.
- اللغة: كانت تتسم، برجوعها إلى قاموس القدماء، وكذلك صورهم وخيالاتهم.

العاطفة: دائما قوية متأججة، مبالغة في الحسرة والأسى، كما هي الحال عند ابن الخلوف القسنطيني. الذي يشبه رثاء ابن الرومي لأبنائه، ولست أحدد هنا هل الشبه في اللغة أو في الأسلوب أو في الفكرة، أم في عمقها وتفريع معانيها أم في عاطفتها أم في موسيقى الشعر وإيقاع بحرها الذي انساب مع الموضوع انسيابا، كما أن تلك اللغة المنتقاة، تكاد تكون هي الوزن وهي النغم وهي النبر المتواتر في هذه القصيدة وكأنما أفرغ الشاعر في الألفاظ شلالا متدفقا من الأحاسيس والأحزان، وابن الرومي في دقة تصويره لا يضاهيه شاعر من شعراء عصره في باب الرثاء، وحسبه ما أنشد في رثاء أبنائه[1]:

كان الذي خلت أن يكونا   إنا إلى الله راجعــونـــا
أُصِبْتُ فيه وكان عنـــدي   على المصيبات أن يعينا

وفي رأيي أن ابن الخلوف لا يقل عن ابن الرومي في نقل تجاربه وآلامه وتوليد أفكاره وتفريعها، ليصل إلى بؤرة الحزن الدفين الذي يكاد لا يماثله حزن.

فقصيدة الرثاء في ظل الدولة الحفصية احتلت مكانة مرموقة في الشعر العربي، إذ تكاد سمة الحزن والاعتبار تطغى على كثير من الأغراض الشعرية التي ألمعنا إليها: كغرض الحنين إلى الأوطان، والمولديات، وغرض الرثاء وقد تتعدى هذه السمة إلى موضوعات أخرى.

الحنين إلى الأوطان:

- الحنين غربة حقيقية وقد تكون غربة روحية تبعد الشاعر عن أهله ووطنه فيحيى بينهم ولكنه مفصول عنهم، أو هو غريب حقا عن الوطن وعن الأهل كما مثلنا لذلك من قبل بطائفة من الشعراء.
- وهو شعر لا يماثله في الحسرة والتأسي غير شعر رثاء الأندلس، وبكاء مدنها الزائلة ودولها الذاهبة، وإن كان قد سبق إلى هذا الغرض شعراء في رثاء القيروان ونكبتها، كما مثلنا من قبل.

الهجاء: لقد قلَّ هذا الغرض بقدر تخلق الشعراء بأخلاق الإسلام وقيمه السامية وإذا ما جرى الحديث عن موضوع الهجاء بين شاعرين فإنما يكون ذلك من الأمور النادرة، وليس غرضًا مطلوبًا عند شعراء الدولة الحفصية.

---

[1] بطرس البستاني ج4، ص 70.

- وحتى عندما حاولت البحث عن قضية هجاء بن الأبار للخليفة المستنصر، لم أجد في ديوانه سوى مقطوعة، يرفض فيها مجاراة الهجائين وتتبع عورات الناس.

أ. القصيدة المولدية:

الطابع التعليمي السردي للقصص النبوي، وللمعجزات التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم.

- الحديث عن يوم الحساب.
- الحديث عن الجنة والنار.
- الحديث عن الذنوب وعن التوبة وعن الغفران.
- التنسك، والتصوف ، والزهد في الحياة.

وإضفاء تلك المعاني والتجليات التي سادت الشعر الصوفي حتى أصبح الشعر النبوي أو المولديات تتسم بسماته البارزة.

وإذا تحدثنا بشيء من التفصيل والتدقيق عن الشاعر وهو واعظ لوجدنا في شعر الشعراء الكثير من ذلك الإتجاه لأن الشاعر الذي يطول نفسه في القصيدة الواحدة ويتجاوز المائة بيت فإنه لامحالة عائد إلى حالة من النظم إذْ تخبو العاطفة وتزول من شعره الذي لم يبق فيه إلا صورة الوزن والقافية؟؟! وذلك باتفاق النقاد والمتذوقين للفن.

لا يعد شعرا بقدر ما يعد عملا تعليميا وعظيا ، وبالرغم من ذلك فنحن لانقلل من قيمته الأخلاقية والاجتماعية فإنه يربي في النشء حب تلك المبادئ الإسلامية والقيم العالية التي يرى الشاعر أنها بدأت تتلاشى في حياة الناس لذلك كانت هذه الدعوة الشعرية الوعظية...

وبسبب تفشي الجهل بين الناس، وبعدهم عن الإسلام وقيمه السامية، فكان هذا الشعر بمثابة المنبه والنبض الذي يوخز الضمير، لأن الأمة بدأت تفقد أجزاء مهمة من أوطانها. وقد عجز الناس عن رد ذلك الغزو العسكري والفكري.

فكان هذا الشعر عاملا مهما في تجديد دم هذه الأمة وبعث روح الجهاد لاستعادة أمجادهم الماضية.

إن هذا الشعر يحمل قيمة فنية عند شعراء الدولة الحفصية الذين لونوا هذا الشعر في هذه الفترة بألوانهم الدينية الصافية الصادقة التي تعبر بصدق عن حب أهل المغرب للرسول –صلى الله عليه وسلم- ولمبادىء رسالته التي يحاول الشاعر من خلال هذه القصائد أن يجدّد في هذه الأمة روح الإسلام ومبادئه السامية التي تدعوا إلى العمل، وإعداد العدة لإبعاد الخطر عن الأمة.

- ولو وقفنا مع الشاعر حازم الذي حلق في سماء الفن البارع في قصائده (المولديات) بما لم يشبهه أحد من قبل ولا من بعد.

فقد تحقق لهذا الشاعر العبقري والناقد اللامع في سماء هذه الدولة – الحفصية- عند معارضته لقصيدة امرئ القيس، وتشطيرها اللغة المتميزة المناسبة لموضوع المدح النبوي. وحقق لصيدة النبوية كيانا مستقلا ومنهجا فنيا تبعه الشعراء من بعده فقد قصر موضوع قصائده النبوية على مدح الرسول صلى

الله عليه وسلم وإظهار مبدإ عقيدته وغاية رسالته في أسلوب فني بارع، كما أنه لم يثر من شعر المولديات ولكن الذي شارك به كان يتسم بهذه السمات:

1- المعارضة والتشطير لقصائد الشعراء الكبار، كما فعل مع قصيدة امرئ القيس.

2- الارتكاز على الحجج العقلية والدينية، لتقع موقعا حسنا في نفس القارئ.

3- تحسين المطالع وتجويد المقاطع.

4- كانت القصيدة المولدية عنده، أداة للتغيير، والإصلاح.

5- تحقق الوحدة الموضوعية والنفسية في القصيدة المولدية. وفي قصيدة الحنين إلى الأوطان وفي قصيدة الغول.

6- توظيف القاموس اللغوي القديم في اللغة، والصورة، والأسلوب.

7- الالتزام بروح العصر من حيث الأساليب اللغوية التي كانت سائدة في منطقة المغرب العربي والأندلس.

8- القصيدة المولدية عند شعراء الأندلس المهاجرين إلى الدولة الحفصية كانت تمثل لهم: أداة للثورة والتغيير، عندما أحسوا بالعجز أمام الآخر، فكان ملاذهم هذا اللون الشعري الجديدالذي بثوا فيه آلامهم وأحزانهم الدفينة المتجسدة في الاقتلاع المكاني، والاحساس الأبدي بالغربة، غربة المكان، وغربة الروح.

فكانت القصيدة المولدية شعارا موضوعيا لتلك المعاناة عند شعراء الدولة الحفصية خاصة.

تأمل كيف طوع الشاعر حازم موضوع قصيدة امرئ القيس وهي في التغني بالشباب وبالصبا وبالغواية وباللهو، والصيد والوصف.

ليحول كل ذلك وبقدرة مقتدر فنيا، مطوعا أعجاز قصيدة امرئ القيس إلى صدور قصيدة حازم، ليبقى المعنى كما هو وكما أراده حازم في مدح النبي والإشادة بمكارمه وبخصائصه، وبأصحابه وبدينه وبمبادئه وقيمه. حتى ليكاد القارئ يعتقد جازما أن هذه القصيدة لشاعر واحد وأن أعجاز قصيدة امرئ القيس التي كانت من قبل تثير الفتنة والغواية قد استسلمت تلك المعاني والأفكار طائعة منقادة ذليلة لصدور قصيدة حازم! فأصبحت قصيدة نبوية مدحية.

ولقد بحثت عن القاسم المشترك بين الشاعرين فوجدت أنهما يفتقدان لشيء ما.

- أن عاطفة الحب والإعجاب كان عليهما مدار الحديث عند الشاعرين.

- التطويع اللغوي وتلك علامة من علامات الموهبة والتفوق عند شعراء الدولة الحفصية.

- إذا كان امرؤ القيس قد تغنى بالمكان وذكره في قصيدته، فالمكان مشترك بينهما. فقد تغنى حازم بالمدينة المنورة وبمكة.

- وإذا كان امرؤ القيس قد تغنى بالمحبوبة وبكى على الديار الخالية فقد اشتركا معا في ذلك.

فحازم شديد التعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم وبالبقاع المقدسة في الحجاز والشام.

- عاطفة الحزن المسيطرة عند حازم. لما آل إليه المسلمون من ضعف وهوان في الأندلس والمغرب وحتى في المشرق فقد عاش الشاعر سقوط بغداد وسقوط كثير من الثغور الإسلامية.

- التركيز العاطفي: عواطف ذاتية ودينية قوية.

- متانة اللغة عند كليهما.
- مناسبة أسلوبهما للعصر، فامرؤ القيس ينسج على منوال عصره وحازم جاراه في الأسلوب وعارضه في الفكرة بلغة عصره مطعمة بالتراث.
- دقة الصورة الشعرية وعمق دلالتها على المعاني في معظم القصيدة.
- الخيال الجامح المركب عند الشاعرين لا يخفى على القارئ لهذه القصيدة المدحية الرائعة.
- تطويل القصائد النبوية، وتكرير المعاني وإعادتها.

ومما تتسم به هذه القصائد النبوية الحديث عن المعجزات وعن شفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن الأخلاق والقيم الروحية والإشادة بها، كما تشيع في القصيدة المولدية آراء وحكم يستخلصها الشعراء من تجاربهم لتكون في شكل نصح وإرشاد.

ب. خصائص القصيدة الحفصية:

أما باقي الخصائص فنجملها فيما يلي:

- لاحظت قلة شعر الغزل العفيف منه والماجن وأن ذلك مرتبط بالتربية والعادات والتقاليد في هذه المنطقة منذ القديم وحتى الآن، فالرجل عندنا لا يبوح بمشاعره الخاصة لعامة الناس، ربما كتب عن تلك المعاناة ولكن تبقى بين لداته وأترابه، وربما استنكف عن نشرها وإذاعتها في الناس، وما كان من هذا الشعر فهو يماثل في كثير من الحالات شعر الأقدمين في الغزل بنوعيه: العفيف والماجن.
- الشعر النبوي أو المولديات : شاعت هذه الألوان الشعرية، وكانت أغلب سمات هذا الشعر ودواعيه فيما أرى هي هذه:

أ- الإكثار من المديح النبوي حتى أصبح هذا الشعر سمة اتسم بها أهل المغرب عامة وفي الدولة الحفصية خاصة.

ب- يتسم شعراء المديح النبوي بصفتين بارزتين هما: صفة الشاعر الواعظ. أو صفة الشاعر الفنان.

ج- شعر تعليمي.

د- إحياء لمبادئ الرسالة الإسلامية، وإشادة بقيمه الإنسانية الخالدة.

هـ- تميز شعراء المغرب عن غيرهم قديما، وحديثا في هذا الباب بما قدموا من صور فنية راقية، يعجز عن بلوغها كبار الشعراء، ولذلك فهم متميزون على غيرهم فنيا، ولنا في المدائح النبوية عند حازم وابن الخلوف القسنطيني، المثل الصادق.

و- العاطفة القوية: وهي عواطف الإعجاب، والحب والولاء، كما تتجلى فيها عواطف الحنين والحزن، والحسرة...

ز- الغربة والحزن في الشعر الحفصي.

ح- الاغتراف من التراث الأدبي القديم ومن القرآن والحديث النبوي الشريف.

ط- تميز لغة الشعر النبوي، باتكائه على قاموس تتخير من الألفاظ والعبارات المناسبة لهذا المقام الرفيع، وهي لغة متميزة عن غيرها في الموضوعات والأغراض الأخرى، فالمدح المناسب هنا هو مدح الأخلاق الحميدة، والسلوكات القويمة، والعلم والعدل، والإيثار والصدق والشرف وحب الله وحب الرسول صلى الله عليه وسلم، وحب الناس، وحب الوطن.

فهي عبارات منتقاة بدقة فيها من الحكمة، ومن الأمثال، ومن الأحاديث النبوية ومن القرآن الكريم والاغتراف من كتب التاريخ والسير والإشارة إليها في المدائح النبوية وبذلك تميل هذه القصائد المدحية إلى نوع من التعليم.

- معارضة الشعراء للقصائد النبوية القديمة من كعب بن زهير حتى ابن الخلوف القسنطيني، وقد بقيت قصيدة البردة، نبراسا يهتدي بها الشعراء في مدائحهم النبوية في اللغة وفي المعنى وفي الأسلوب...

- أدب الرحلة: فقد ازدان هذا العصر بأشهر الرحالين الذين مروا على المدن الثقافية للدولة الحفصية، وخلدوا مشاهداتهم وآراءهم النقدية، في أدباء عصرهم. كرحلة: العبدري، ابن بطوطه، عبد الباسط. رحلة القلصادي وحتى الزركشي المولع بالأسفار ورحلة ابن رشيد ملء العيبة.

- إبراز عبقرية شعراء الجزائر وتونس وليبيا في الأدب المغربي القديم ومدى إسهامهم في بعث وإحياء الحركة الأدبية عامة، وحركة الشعر خاصة.

- كشف المغطى من هذا الشعر والتراث الذي تزخر به منطقة المغرب العربي -في عهد الحفصيين خاصة- وقد حقق البحث هذه النتائج التي كنا نود الوصول إليها، وإلى مزيد من رفع اللبس والغموض، والتهميش والنسيان عن أدب المغرب والمغاربة في القديم.

ومما يتصف به الشعر في ظل الدولة الحفصية:

- شمولية الشعر للحياة الاجتماعية والسياسية، والتعبير عن تلك الأحداث بصدق، وبطريقة فنية، مخلدة لتلك الأحداث والآثار.

- ميل الشعر في هذه الفترة إلى المدح، والوصف، والغزل، والحنين إلى الأوطان والرثاء لحالها والاستعطاف أو الاعتذار، أما الابتكار في الصور والأخيلة فلم يعد من أولوياتهم، بل أصبح الشاعر يكتفي بمعارضة أو بتضمين قصائد القدماء، كما فعل كثير من الشعراء.

- تجلي ظاهرة الحزن والحسرة في لغة الشعراء حتى لا تكاد تظفر بلغة فيها الفرح والسرور، بل أصبح الشاعر الحفصي لايبوح إلا بأحزانه وآلامه لما يلاقي أهله ووطنه من ويلات القهر وغلبة الآخر.

أن هذا العهد الذي يعتبر ويوسم بعصر الإنحدار والضعف في اللغة والأدب. هو في رأينا لا ينطبق تماما على وضع الشعر الحفصي وعلى شعراء هذه الدولة التي ازدانت بهم فترة الحفصيين- واستقطبت خيرة الشعراء في عهدها الأول من أمثال: ابن الأبار، حازم، ابن حسينة، القلعي، ابن العطار الجزائري وابن الخلوف القسنطيني، والتجاني، والرحوي، وابن خلدون، وابن عبد السلام وغيرهم، لا يمكن أن نسمي عصر هؤلاء العباقرة الملهمين من الشعراء بعصر الضعف والانحطاط. لأن شعرهم مازال شاهدا على ذلك صدق في العاطفة، وعمق في الفكرة الصائبة، وفي اللغة وحسن التصوير والتمثيل، حتى أصبح شعراء الدولة الحفصية يمتثلون بدقة في قصائدهم إلى المقاييس النقدية وسأعرض إلى ذلك فيما يلي:

1- الوحدة الموضوعية[1] التي نادى بها حازم وطبقها في شعره.

---

[1] القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص349.

كما لاحظنا ذلك وخاصة في الأغراض التالية:

- في غرض الرثاء.
- في غرض الغزل.
- في غرض الإخوانيات.
- في غرض الحنين إلى الأوطان.

وهذا ليس أمرًا هينًا في الجانب الفني، فقد كان يعتقد البعض أن الوحدة الموضوعية، واللغوية والنفسية هي من خصائص الأدب الحديث:

غير أنني وجدت هذه المبادئ والقواعد، قد تمثلها الشعر الحفصي، بل وقبل الحفصيين عندما كانت النهضة الأدبية والشعرية في عهد الصنهاجيين (في القيروان) وما جاورها من المدن الثقافية.

لقد تأكدت هذه الحقائق الفنية عند بن شرف في رثاء مدينة القيروان وكذلك عند بن رشيق، اللذين كانا شاهدين على تلك النكبة، والخراب الذي ألحقه أعراب بني هلال بهذه المنطقة وما جاورها.

- كثرة الشعر والشعراء الكبار الذين وسموا هذا العهد بالنضج وبالإبداع في مختلف الفنون الشعرية.
- كثرة المعارضات الشعرية فقد عارض التجاني قصيدة حازم[1].

وهذه المعارضات فسحت المجال واسعا للمنافسة وإظهار البراعة الفنية.

- كما كثر شعر المناسبات وكثر الشعر التعليمي، وشعر النظم خاصة: في اللغويات (كألفية بن مالك) ومختصرات الفقه، كمختصر بن عرفة وابن عاشر...

وبالرغم من حالة الضعف العام التي عرفتها المنطقة العربية من بغداد إلى غرناطة.

فإن الشعر الحفصي بقي يتألق، ويشع بضيائه على الحضارة العربية الإسلامية رغم أفول نجمها، وهو جدير بالقراءة والإحياء إلى اليوم.

- وحسبنا مما علمناه، يكون عونا للقارئ الذي يبحث عن تراثه عامة وفي عهد الحفصيين خاصة.
- فحسبنا ما قدمنا من دراسة للشعر الحفصي أن يكون في الواجهة، على يون في الواجهة، على مستوى العالم العربي، لأن شعراء هذه الفترة هم من غرر، هذا الزمان ومن فرسان الكلمة، بدون مبالغة أو تطاول.
- إن إحياء أدب ما في بيئة من البيئات العربية، هو لبنة إضافية في صرح الثقافة العربية الإسلامية. وربما كان الشعر الحفصي هو إحدى تلك اللبنات.

---

[1] يقول حازم في مطلع قصيدته:(القرطاجني، قصائد ومقطعات، ص 176.)

لم تدر إذْ سألتكَ ما أسلاَكها   أبكتْ أَسًى أم قطعت أسلاكها

فعارضه التجاني بقوله:

يا ساحر الألحاظ يا فتاكها   فُتْيَا جَوَازِ الصَّدِّ من أَفْتَاكها

<u>المصادر والمراجع</u>

* **القرآن الكريم**

1. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، <u>الحلة السيراء</u>، تحقيق: د/ حسين مؤنس. الشركة العربية للطباعة والنشر. القاهرة. مصر، 1963م.

2. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، <u>إعتاب الكتاب</u>. تحقيق د/ صالح الأشتر. مطبوعات مجمع اللغة العربية. دمشق، 1961م.

3. ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي، <u>الديوان</u>. تحقيق د/ عبد السلام الهراس. الدار التونسية للنشر. تونس، 1985م.

4. إبراهيم أنيس، موسيقى الشعر، مكتبة الأنجلو المصرية، ط3. 1965.

5. الأنصاري، أبو عبد الله محمد، <u>فهرست الرصاع</u>، تحقيق وتعليق: محمد العنابي. نشر المكتبة العتيقة. تونس.

6. بعيزيق، صالح، <u>بجاية في العهد الحفصي دراسة اقتصادية واجتماعية</u>، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس 2006م

7. التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد، <u>رحلة التجاني</u>، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. المطبعة الرسمية. تونس، 1958م.

8. التجاني، أبو عبد الله محمد بن أحمد، <u>رحلة التجاني</u>، تحقيق: حسن حسني عبد الوهاب. الدار العربية للكتاب. تونس، 2005م.

9. الحاجري، محمد طه، <u>دراسات وصور من الحياة الأدبية في المغرب العربي</u>، دار النهضة العربية. ط1. بيروت. لبنان، 1983م.

10. حركات، ابراهيم، <u>المغرب عبر التاريخ</u>. طبع ونشر السلمي. الدار البيضاء. المغرب، 1965م.

11. حسين نصار، <u>القافية في العروض والأدب</u>، دار المعارف، مصر.

12. الحفناوي، لأبي القاسم محمد، (1897-1936م)، <u>تعريف الخلف برجال بالسلف</u>، تحقيق: محمد أبو الأجفان، ومحمد بطيخ. منشورات مؤسسة الرسالة، المكتبة العتيقة.

13. حميد آدم، <u>فن الأسلوب دراسة وتطبيق عبر العصور الأدبية</u>، دار صفاء للنشر والتوزيع. عمان، ط1. 2006م.

14. **ابن الخطيب، لسان الدين،** الإحاطة في أخبار غرناطة. محمد عبد الله عنان. مكتبة الخانجي. القاهرة، ج4،1، مصر، 1976م.

15. **ابن خلدون،عبد الرحمان،** الرحلة، تحقيق: محمد بن تاويت الطنجي. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان، ط .2004

16. **ابن خلدون، عبد الرحمان،** كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر. دار الكتاب اللبناني.ط3. بيروت، 1967م.

17. **ابن خلدون، عبد الرحمان،** المقدمة. المكتبة التجارية الكبرى. مصر.

18. **ابن خلدون، عبد الرحمان،** المقدمة، تقديم واختيار: سهيل عثمان، ومحمد درويش. منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. دمشق، 1978م.

19. **ابن الخلوف القسنطيني،** ديوان جنى الجنتين في مدح خير الفرقتين، تحقيق: العربي دحو. منشورات اتحاد الكتاب الجزائري. الجزائر، 2004م.

20. **ابن أبي دينار**، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، تحقيق وتعليق: حمد شمام. نشر المكتبة العتيقة. تونس.

21. **الدباغ، أبو زيد عبد الرحمان،** معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، تحقيق: محمد الأحمدي أبو النور، محمد ماضور، مكتبة الخانجي، مصر 1968.

22. **ابن الرشيق،** العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، محمد محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط5 1981م، ص .215

23. **الزركشي، أبو عبد الله،** تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق وتعليق: محمد ماضور. المكتبة العتيقة. تونس.

24. **زلاقي، محمد،** الشعر المولدي في المغرب والأندلس، بحث لنيل درجة الدكتوراه، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2006. (مخطوط).

25. **بن سلامة، الربعي،** تطور البناء الفني في القصيدة العربية، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر.

26. **ابن شريفة، محمد،** ابن عميرة المخزومي حياته وشعره. نشر بالرباط، 1966م.

27. **الشماع، عمر بن أحمد،** الأدلة البينة النورانية في مفاخر الدولة الحفصية، تحقيق وتقديم: الطاهر بن محمد المعموري. الدار العربية للكتاب..1984

28. **صابر عبد الدايم،** موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور، مكتبة الخانجي، القاهرة.

29. **الصنهاجي ، أبو بكر بن علي** (المعروف بالبيدق)، أخبار المهدي بن تومرت، تقديم وتحقيق وتعليق: عبد الحميد حاجيات. المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2. الجزائر،1986م.

30. **العامري، محمد الهادي**، تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون. الشركة التونسية للنشر والتوزيع. تونس، 1974م.

31. **ابن عامر، أحمد**. دار الكتب الشرقية. تونس.

32. **عبد الباسط**، الرحلة، تحقيق: Robert Brunschvig .

33. **عبد الوهاب، حسن حسني**، المنتخب المدرسي في الأدب التونسي. المطبعة الأميرية. القاهرة، 1944م.

34. **الغبريبي، أبو العباس أحمد بن أحمد**، عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية. رابح بونار. ش.و.ن.ت.الجزائر. الجزائر، 1970م.

35. **ابن القاضي، أحمد**، جذوة الإقتباس. دار المتصور للطباعة والوراقة الرباط. ط1،ط2، 1974،1973م.

36. **القرطاجني، أبو الحسن حازم**، قصائد ومقطعات. د/محمد الحبيب بن الخوجة. الدار التونسية للنشر. تونس، 1972م.

37. **القرطاجني، أبو الحسن حازم**، منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966م.

38. **ابن القنفد القسنطيني، محمد بن حسين بن علي**، الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. محمد الشاذلي النيفر، عبد المجيد التركي. الدار التونسية للنشر. تونس، 1968م.

39. **إبن القنفد القسنطيني، محمد بن حسين بن علي**، الوفيات.عادل نويهض. منشورات دار الأفاق الجديدة. ط2، بيروت، 1978م.

40. **الكعاك، عثمان**، التقاليد والعادات التونسية، ط3، الدار التونسيةللنشر، 1981،. تونس.

41. **الكنون، عبد الله**، النبوغ المغربي في الأدب العربي. دار الكتاب اللبناني. بيروت. لبنان، 1975م.

42. **لراوي، العلمي**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله أبي بكر القضاعي البلنسي الشهير بابن الأبار، بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه، السنة الجامعية 1997-1998. جامعة قسنطينة (مخطوط)

43. **لي تورنو، روجي**، حركة الموحدين في المغرب في القرنين 12-13م، د/ أمين الطيبي. نشر الدار العربية للكتاب. تونس، ليبيا، 1982م.

44. **المجدوب، عبد العزيز**، الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية. الدار التونسية للنشر. ط1، تونس، 1975م.

45. **محمد حسن**، المدينة والبادية بإفريقية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، (ج1،2). 1999م.

46. **المطوي، العروسي**، السلطنة الحفصية، دار الغرب الإسلامي.بيروت. لبنان، 1986م.

47. **المقري التلمساني، أحمد بن محمد**، أزهار الرياض في أخبار عياض. أعيد طبع الكتـــاب تحت إشراف اللجنة المشتركة للتراث الإسلامي بين حكومة المملكة المغربية، ودولة الإمـــارات العربية المتحدة. (ج5).

48. **المقري التلمساني، أحمد بن محمد**، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: د/ إحسان عباس. دار صادر. (ج 1-8).

49. **الميلي، مبارك بن محمد**، تاريخ الجزائر في القديم والحديث. ش.و.ن.ت.الجزائر. الجرائر، 1976م.

50. **نويهض، عادل**، معجم أعلام الجزائر.منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر. ط1، بيروت، لبنان، 1971م.

51. **النيفر، محمد**، عنوان الأريب عما نشأ بالمملكة التونسية من عالم أديب. المطبعة التونسية. ط1. 1351هـ.

52. **الوزير السراج، محمد بن محمد**، الحلل السندسية في الأخبار التونسية، محمد الحبيب الهيلة، ج1.

53. **يوسف حسين بكار**، بناء القصيدة في النقد العربي القديم، دار الأندلس في النشر والتوزيع، بيروت لبنان.

54. **Robert, Brunschvig**، تاريخ افريقيا في العهد الحفصي من القرن الثالث عشر إلى القرن الخامس عشر، ترجمة: حمادي الساحلي. دار المغرب الإسلامي. ط1. بيروت. لبنان، 1988م.

الفهرست

Poetry under the Hafsids (625-981 Hegria)

*This dissertation presents a historical and critical study of arabic poetry during the reign of the Hafsids . The introduction identifies the object under question , the main reasons for understanding the research , and an ******* of the political , social , and cultural life of the Hafsid state .*

*Chapter one is divided into Part A and Part B .Part A is concerned with the study of poetry celebrating the birth of the prophet Mohammed with his distinctive religio** character , poetry of nostalgia for the homelands and love poerty. Part B looks at six major poets: Ibn Lafkoun and Ibn Al-Khallouf from Constantine (Algeria); Hazim Al-kartadjenni and Ibn Al-Abbar from Andalucia (spain); and Al-Tijani and Ibn Abdessalem from Tunisia .*

Chapter two examines the characteristics and the artistic elements that are dominant in the Hafsid poem , notably structure and form .

*The conclusion shows the ********* role that poetry played in the making and *******ty of Hafsids civilisation .*

La poésie sous le régne de L'ETAT – HAFSIDE 625 -981 de L'Hégire.

Cette thése a pour but d'entamer une profonde étude-Historio-critique- dela poésie Arabe sous le régne de l'état Hafside .

*Dans l'intoduction de cette thése nous avons entamé la thématique de cette recherche ,les causes principals qui nous ont conduites à la rédaction de cette thése , qui ****** une étude approfondie de la poésie Arabe sous le régne de l'Etat Hafside .*

Les parties composante cette thése s'alignent comme suit :

1- *prologes :oú hors avons étudié la vie politique , sociale et culturelle de l'état Hafside.*

CHAPITE I se divise a deux parties (A et B).

*Dans la patie A – a pour fin d'étudier , la poésie ses différents thémes ,, à sa****, la glo** poésie dés Naissances à Caractére Religieux notament la naissance du prophéte Mohammed (salut de dieu sur lui).Théme qui ne assait de prendre grande àpogée ; poésie de la nostalgie des pays, poésie courtoise,etc.*

La partie B du même Chapitre envisageait l'Etude des six poétes principaux dont deux émanaient de constantine :IBN LAFKOUN ,et IBN EL KHALOUF.Deux poétes provenant de la terre D'Andalousie :HAZIM –EL CARTADJANI , et IBN EL ABBAR ,Deux autres poétes – TUNISIENS qui sont : ETTIDJANI et IBN ABDESSALAM .

Le chapitre II a pour fin d'analyser les caractéres et les eléments artistique qui prédominaient le poéme Hafside à savoir ;

1-Structure poétique

2-Forme (et stylisque) poétique .

*En conclusion nous avons éclairci le rôle majeur de la poésie Hafside , riche champ culurel et artistique qui demenerait encore d'autre études ******et perséverantes tant cet état j*****un rôle civilisationnel primordial.*